هذا هو الجزء الثانى من كتاب اتحاف ملوك
الزمان بتاريخ الايمبراطور شرلكان
ترجمه من الفرنساوية الى العربية
الفقير الى الله تعالى خليفه محمود
ويليه الجزء الثالث

فهرست الجزء الثانى من كتاب اتحاف ملوك الزمان بتاريخ الامبراطور شرلكان

مطلب

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفه

ا	صحيفه

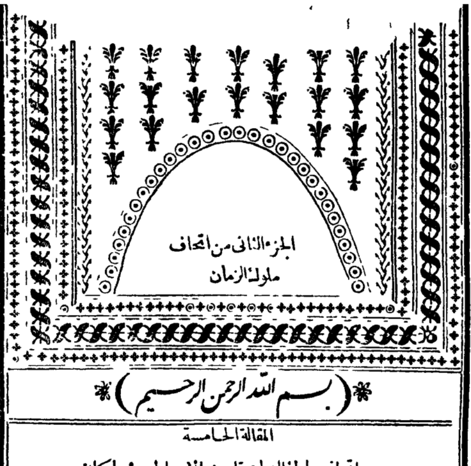
صحيفه

مطلب

صحيفه

بيان ماوقع فى الجزء الثانى من كتاب اتحاف ملوك الزمان بتاريخ الامبراطور شرلكان من الخطا والصواب

خطا	صواب	صحيفه	سطر
حضرالى	حضراالى	١١	١٠
بتمامهما	بتمامها	٢٨	٢٤
لتنبت	لتبت	٢٨	١
بمالطه	بماطله	٥٠	٤
ذوى الفخار	ذرى الفخار	٦١	٥
والمشقاق	والشقاق	٦١	٢١
وكلاتها	وكلاتهما	١٠٦	١٢
أن لا يعطوه	أن يعطوه	١٢٠	١
منهما	منها	١٢٠	٢١
وسارمعا	وسارامعا	١٢٨	١١
السطان	السلطان	١٥٨	٢٥
حظر	حط	١٧٥	١١
افتحت	افتتحت	١٩٤	٩
واللشديد	والتشديد	٢٠٢	١٨
السطر الاول من صحيفة ٢١٣	مكرر مع السطر الاخير من صحيفة	٢١٢	
المذاكرت	المذاكرات	٢٢٧	٦



(بسم الله الرحمن الرحيم)

المقالة الخامسة

من اتحاف ملوك الزمان بتاريخ الامبراطور شرلكان

مطلب غضب اهل اوروبا كافة على الامبراطور ١١ من شهر تموز

ولما رأى اهل اوروبا ما كان يقاسيه البابا اذذاك من سيء المعاملة امتلأت قلوبهم فزعا ورعبا وتعجبوا كل العجب من الامبراطور شرلكان حيث تجاسر على فعل ذلك في حق سيد ابناء النصرانية وخليفة الصفوة المسيحية وقبض عليه واخذه اسيرا وضيق عليه في الاسر مع انه بموجب عده من ابناء النصرانية بل وبموجب منصبه ومقامه كان ينبغي له أن يدافع عن الكنيسة ويذب عنها من اراد هتك حرماتها فظهر لجميع الافرنج ان هذه الفعال من قبيل الكفر والالحاد فلابد من الانتقام من فاعلها وانه يجب على جميع ابناء النصرانية أن يتحالفوا ويتعاهدوا لينتقموا من الامبراطور لاسيما وكان كل من هنري ملك انكلترة والملك فرنسيس قد لحقه الفزع من نجاح الامبراطور في بلاد ايطاليا فتعاهدا معا وحصل بينهما التئام اكيد قبل اخذ مدينة رومة وعزما على ردع الامبراطور وقمع نفسه الطماعة فاتفقا على شن الغارة بمملكة البلاد الواطية ليشاغلاه ويلهياه عن النظر لبلاد ايطاليا وانضم

سنة ١٥٢٧

الى تلك الاسباب سبب آخر وهو انهما قصدا انقاذ البابا من يد الامبراطور وهو مقصد سياسي فيه اعانه لهما على نيل مرامهما زيادة على كونه يكسبهما الشرف والفخار بالنسبة للديانة ولكن رأيا انه لا يمكنهما تجيز هذا الغرض الا اذا قطعا النظر عن الاغارة على البلاد الواطية ووجها جيوشهما الى بلاد ايطاليا حيث ظهر لهما انه لا يمكنهما انقاذ رومة ولا فك البابا كا يجان من ربقة الاسر الا مع بذل كل الجهد وصرف جميع الهمة وكان الملك فرنسيس اخذ الان قد احد يدرك ان شدة تدقيقه في المقاصد السياسية التى عزم عليها فى شأن بلاد ايطاليا قد افضت به الى كل ورطة وخطب كما ان كثرة اهماله وتساهله قد ادت الى أن تقوى عليه خصمه الامبراطور شرلكان بامور كان يسهل على الملك فرنسيس أن يكون عديله فيها * فبناء على ذلك اراد فرنسيس أن يبذل وسعه حتى يمحو عن نفسه معرة الخطا التى لحقته بسبب تلك الفعال هذا وكان الملك هنرى يرى انه يلزم معاهدته وانضمامه الى ملك فرنسا ليمنع الامبراطور عن أن يصير بيده ملك بلاد ايطاليا ويتصرف فيها كيف يشاء لانه ان تملك على هذه البلاد تقوى شوكته وتعظم صولته ولا يجد فى ملوك الافرنج معارضا ولا مناقضا لاوامره فيلزمهم حينئذ الاشياء لا سيا وكان الملك فرنسيس قد استمال اليه قلب الوزير ولسى بعطايا جليلة وهدايا جزيلة فصار هذا الوزير يحرض سيده الملك هنرى بكل ما ينفر نفسه من الامبراطور ويوجب البغضاء والشقاق بينهما وزيادة على ذلك كان ثم سبب آخر قوى حسن ذلك للملك هنرى وهذا السبب كان يخصه وذلك انه فى اثناء ذلك الزمن كان يريد أن يطلق زوجته كاترينة اميرة اراغون غير انه لما كان الطلاق غير مشروع فى دين النصرانية رأى الملك انه فى هذا الغرض لا بد له من حكم البابا الذى هو امام هذا الدين فاراد أن يصنع معه جميلا ويعينه على الخروج من الاسر ليساعده فى الغرض المذكور وهو طلاق زوجته

مطلب العصبة المنعقدة على الامبراطور

ولما كان كل من الملك هنرى وملك فرنسا له اسباب تدعوه الى معارضة الامبراطور والمدافعة عن البابا لم تطل مدة المذاكرة بينهما فى هذا الشان فقوض

سنة ١٥٢٧

الملك هنرى لوزيره ولسى بت هذا الامر مع الملك فرنسيس واما الملك فرنسيس فلم يوكل عن نفسه احدا فى هذا الغرض بل تذاكر فيه بنفسه مع الوزير ولسى بمدينة اميان ولما وصل الوزير ولسى الى هذه المدينة تلقى فيها مع غاية الترحيب والاكرام وقوبل بالتبجيل والاحترام وعومل معاملة الملوك وانحط الرأى بينهما على امور اولها زواج الدوق دورليان ابن الملك فرنسيس بالاميرة مارية بنت الملك هنرى ووقع الاتفاق بينهما على ان ايطاليا تكون ميدان الحرب وتعين مقدار العساكر ونوعها ومقدار المبالغ التى يعطيها كل من الملكين واتفقا على أن تعرض على الايمبراطور الشروط اللازمة فان بادر بقبولها والا دعى الى الحرب بدون مهلة ولا تراخ وكان من طبع الملك هنرى التعجيل بتنجيز ما يشرع فيه او يعزم عليه فبادر بالدخول فى هذه المعاهدة الجديدة حتى انه لتأييد قوله وتأكيده تنازل عما كان يدعيه ملوك انكلترة قبله فى شان تاج مملكة فرانسا ليكون ذلك برهانا جليا على محبته وصداقته للملك فرنسيس وانما جعل له فى نظير ذلك خمسين الف ايكو تدفع كل سنة له ولعقبه

١٨ من شهر اب

مطلب
صيرورة اهل فلورنسة حرين مستقلين بانفسهم

ومع ذلك كان البابا لم يزل اسيرا مسجونا تحت يد الامير الرسون فى غاية الضنك والضيق بسبب تشديد هذا الامير عليه وانما كان باقيا اسيرا الى ذلك الوقت لانه كان لا يمكنه أن يوفى بالشروط التى انحط عليها الرأى فى المشارطة وكان اهل فلورنسة بمجرد أن وقفوا على خبر انهزام البابا واخذ مدينة رومة عصوا وطردوا الكردينال كورتون من بلادهم وكان يحكم المدينة بالنيابة عن البابا وكسروا نيشانات افتخار العائلة المديسيسية (عائلة منها البابا كليمان) وكسروا التمثال المرسوم عليه شخص البابا ليون وكذلك تمثال البابا كليمان واظهروا الحرية والاستقلال واعادوا الى مملكتهم الحكومة الاهلية التى كانت فيها سابقا وارادايضا اهل البنادقة أن يكون لهم حظ من سلب البابا فاخذوا قلعة راوينة وبعض قلاع اخرى من القلاع القسيسية متعللين بانهم يريدون حفظها تحت ايديهم على سبيل الوديعة وظن دوق اوربان

سنة ١٥٢٧

ودوق فرارة انه لا رجوع لملك البابا بعد هذه المصائب والاهوال فاخذ كل منهما جزأ من دوله واستولى عليه

مطلب
عدم نشاط عساكر الامبراطور

واراد الامير لانواى كذلك أن يستفيد فائدة عظيمة من هذه الواقعة التى بنجاح سيده الامبراطور وظفره فيها قد ازدادت شوكته وصولته بين ممالك الافرنج ولهذا القصد توجه الى رومة مع الامير مونكاد والملتزم دوغواست صحبة العساكر التى امكنهم جمعها من مملكة نابلى وكان وصول هذه العساكر الى رومة ازديادا فى مصائب سكانها وذلك ان هؤلاء العساكر لما دخلوا تلك المدينة ورأوا ان العساكر الذين كانوا فيها من قبلهم قد غنموا مغنما كبيرا قامت بهم الغيرة ففعلوا مع السكان امورا فاحشة من الظلم والنهب وسلبوا منهم ما كان قد بقى من نهب العساكر الاسبانيولية والالمانية

وكان لا يوجد اذ ذاك فى بلاد ايطاليا جيش يمكنه مقاومة عساكر الامبراطور بحيث لو اراد هؤلاء العساكر التغلب على مدينة بولونيا وغيرها من المدائن التى لم تكن بايديهم من بلاد البابا لكفاهم فى اخذها الحضور حول اسوارها ولم يلزم لهم حرب ولا ضرب الا انهم فى عهد الدوق دى بوربون كانوا قد تعوّدوا على عدم الطاعة والانقياد لضبط العسكرية وربطها وكانوا مدة اقامتهم فى رومة قد اشربت اللذات فى قلوبهم ولم يجدوا لهم رئيسا يمنعهم عن الامور التى كانوا يرتكبونها فصاروا اعداء للضبط والربط والخدم العسكرية ولما دعوا الى ترك رومة والتوجه الى المدائن الاخرى لقصد اخذها والتغلب عليها ابوا الخروج منها من غير أن تدفع لهم ماهياتهم المتأخرة لهم وكانوا يعلمون ان ذلك متعسر واظهروا ايضا انهم قد انتخبوا امير دورنجه واقاموه سر عسكر على جيوشهم وانهم لا يطيعون لغيره امرا فحين رأى الامير لانواى انه لا يأمن على نفسه مادام مع هؤلاء العساكر العاصين الذين كانوا يكرهونه ويحتقرون منصبه عاد الى مملكة نابلى وبعد ذلك بمدة قليلة تبعه الامير مونكاد والملتزم دوغواست لهذا السبب وحيث ان الامير

سنة ١٥٢٧

دورنجه لم يثبت له منصب السرعسكرية على الجيش الا باختيار العساكر الذين طغوا وبغوا بسبب نجاحهم وعدم ضبطهم وربطهم كان يراعى خاطرهم ويخشى بأسهم اكثر من مراعاتهم لاوامره وبناء على ذلك لم يفز الايمبراطور بفائدة من الفوائد التى كان يؤملها بسبب تغلبه على رومة بل لحقه غم شديد حيث رأى ان هذا الجيش العظيم الذى لم يتيسر له جمع مثله قبل ذلك قد تراكمت عليه اسباب الكسل وعدم النشاط وفتور الهمة حتى لم يمكن حث رجاله وتشجيع قلوبهم بوجه من الوجوه

مطلب
دخول جيش الفرنساوية بلاد ايطاليا

وبهذه الاسباب اتسع الوقت مع ملك فرانسا ومع البنادقيين حتى اجمعوا امرهم وتعاهدوا واتفقوا على انقاذ البابا والذب عن حقوق مملكة ايطاليا وانضمت اليهم جمهورية فاورنسة لعدم حزمها وكان اهل ايطاليا يعترفون للامير لوتريك بالفضل والمعارف وينصفون فى الحكم عليها اكثر من انصاف فرنسيس له فاختاروه سرعسكر على جيوش العصبة لكنه لم يقبل هذا المنصب الا بعد التوقف الكلى والاشمئزاز خوفا من أن يصير فيما بعد عرضة للوم او يقع فى الحيرة والعجز بسبب اهمال الملك فرنسيس او خبث طوية اخصائه المقربين له كما حصل له قبل ذلك * ثم انه بعد توليته سار الى بلاد ايطاليا ومعه اعظم عساكر مملكة فرانسا واحسنها واما ملك فرانسا فانه قبل أن يدعو الايمبراطور الى الحرب دفع مبلغا جسيما ليستعان به على مصاريف تلك الغزوة وسلك السرعسكر لوتريك فى مبدأ الامر مسلك الحزم والثبات وحصل له الظفر والنجاح وذلك انه باعانة الامير اندره دورية الذى كان فريد ذلك العصر فى البحرية تغلب على جمهورية جنويزة واعاد فيها حزبا يقال له حزب الفريغوس واثبت فيها حكم الفرنساوية وحاصر مدينة الاسكندرية البطليانية وادخلها تحت الطاعة بعد ايام قلائل وادخل تحت الطاعة ايضا جميع البلاد التى أمام نهر تيزان واخذ عنوة مدينة باوية التى كانت فى الواقعة السابقة قد مكثت زمنا طويلا وهى تقاوم جيوش فرنسيس ولما تغلب عليها دخلها العساكر الفرنساوية ونهبوها مع قسوة

ازدادت

ازدادت بما كان راسخا فى اذهانهم من الاخطار والاهوال والمشاق التى كابدوها حين انهزامهم فى الوقعة الاولى تحت اسوار هذه المدينة ولو توجه لوتريك الى مدينة ميلان وحاصرها لسلمت اليه قيادها لان الامير انتوان دوليوه الذى كان يحفظها لم يكن معه من العساكر الحافظين الاعدد قليل وكان لا يمكنه تحصيل الذخائر اللازمة لهم ولا يمكنه امساكهم وحجزهم عن العصيان الا بحزمه وسياسته وحسن تدبيره لكن لم يتجاسر لوتريك على هذا الامر الذى لو شرع فيه وتممه لعاد عليه بالشرف والفخر وعاد على العصبة بالمنافع الجسيمة والفوائد العظيمة وسبب عدم عزمه على ذلك هو ان الملك فرنسيس كان يعلم ان المتعاهدين معه يغارون منه اذا اخذ بعض اراض من بلاد ايطاليا وان مقصدهم من المعاهدة معه هو اضعاف شوكة الامبراطور وخشى انه ان سعى واعاد الامير سفورس الى حكم دوقية ميلان تفترهمة المتعاهدين معه ولا يعينونه حتى الاعانه فى الاغارة على مملكة نابلى فلاجل ذلك صدر منه امر الى الامير لوتريك أن لا يكثر من الفتوح فى بلاد لومبردية لاسيما وكان البابا يلح عليه فى الاستغاثه به وكان اهل فلورنسة يدعونه الى حمايتهم والمدافعة عن بلادهم فتعلل بذلك وتوجه الى رومة ولم يلتفت الى تضرع الامير سفورس ولا الحاح اهل البنادقة الذين كانوا يدعونه الى حصار مدينة ميلان

مطلب
اطلاق البابا وتخلية سبيله بامر الامبراطور

ثم ان الامير لوتريك توجه مع الجيش الى رومة وكان يسير مع التؤدة والتأنى فاتسع الوقت مع الامبراطور حتى امكنه أن يتذاكر فى شان ما ينبغى له فعله فى حق البابا الذى كان اسيرا تحت يده بقلعة سنتانج ومع ان الامبراطور كان يظهر التدين حصل منه فى عدة فرص ما يدل على انه لم يكن له اعتناء بالدين وانه كان يظهر خلاف ما يبطن خصوصا فى فرصة اسر البابا فقد اظهر الرغبة التامة فى نقل البابا الى بلاد اسبانيا ليقال انه قد اسر فى ديوانه ملكين هما اعظم ملوك اوروبا يعنى الملك فرنسيس والبابا لكنه خشى أن يزداد عليه غضب ملوك الافرنج ويبغضه رعاياه اذا هو فعل مثل ذلك مع امام دين

سنة ١٥٢٧

النصرانية فاستصوب أن لا يحضره ببلاد اسبانيا هذا وكان المتعاهدون المتعصبون عليه قد فتحوا بلادا كثيرة من ايطاليا وظفروا فى وقائع جمة فرأى انه يجب عليه اطلاق البابا من الاسر ووضعه بمحل آخر غير قلعة سنتانج لكن كان هناك اسباب حملته على ايثار الامر الاول وهو تخلية سبيله منها انه كان محتاجا كل الاحتياج الى الدراهم ليجمع جيشه الذى تشتت منه ويصرف له الماهيات المتأخرة وكان قبل ذلك قد جمع مشورة وكلاء مملكة قسطيلة بمدينة والادوليدة فى اوائل السنة ليعرض عليهم امره وحالة مصالحه فاعلمهم انه يلزمه أن يستعد بامور جسيمة وقوى عظيمة حتى يمكنه أن يقاوم اعداءه الذين تعصبوا عليه لغيرتهم من نجاحه وظفره وطلب منهم أن يمدوه بالمبالغ الجسيمة اللازمة له لتنجيز هذا المقصد العظيم غير ان ارباب تلك المشورة أبوا أن يضربوا شيأ من المغارم على الملة حيث كان قبل ذلك قد اخذ منها مبالغ جسيمة وصمموا على ابائهم مع مابذله من الجهد من الترغيب والترهيب فى حملهم على اجابته فرأى حينئذ انه لم يبق له وسيلة فى تحصيل الدراهم اللازمة له سوى كونه يأخذ من البابا كائنا على طريق الفداء مبلغا يصرف منه ماهيات عساكره حيث كان يعلم انه لا يمكن اخراجهم من مدينة رومة قبل أن يدفع لهم المتأخر من استحقاقهم

١١ من شهر سباط

هذا وقد كان البابا يبذل غاية جهده ليخلص من ربقة الاسر حتى عرف بتملقه ومداهنته كيف يستميل الكردينال كولون ويزيل من قلبه الحقد والعداوة لاسيما وكان هذا الكردينال يحب أن يعيد البابا الى منصبه ليرى اهالى اوروبا انه ذو اقتدار عظيم حيث انه بعد أن اذله ووضعه اعلى درجته ورفعه واستمال البابا ايضا قلب الامير موروون بزخرف القول والمواعيد وكان لهذا الامير افعال عجيبة وامور غريبة تدل على حقيقة طبعه وكنه حاله اتم الدلالة فانه عرف كيف يسترجع ما كان له من الصولة ونفوذ الكلمة عند وزراء الايمبراطور واحزابه وكان الكردينال كولون بمكان من المكر والخديعة فبنفوذ كلمة موروون ومخادعة كولون زالت العوائق والموانع

سنة ١٥٢٧

التي كان يعطل بها رسل الايمبراطور ما رتب البابا وتمت في اقرب وقت مشارطة اطلاق البابا من الاسر على شروط ملايمة للحالة التي كان عليها البابا وقتئذ وان كانت في الواقع ونفس الامر صعبة وحاصلها ان البابا الزم بدفع مائة الف ايكو لتصرف على الجيش والتزم أن يدفع مثل هذا المبلغ بعد خمسة عشر يوما وأن يدفع مائة وخمسين الف ايكو بعد ثلاثة اشهر والزم ايضا بأن يعد بانه من الآن فصاعدا لا يكون له مدخل في حزب المتعصبين على الايمبراطور ولا يساعدهم في القتال مع عساكر الايمبراطور ببلاد لنبرديا ولا بمملكة نابلي وتعهد بأن يتبرع للايمبراطور بعشر الايرادات القسيسية التي تحصل من بلاد اسبانيا واذن له بغزوة صليبية (الغزوات الصليبية كما تطلق على القتال لاخذ بيت المقدس تطلق ايضا على قتال الخوارج الذين خرجوا عن دين الكنيسة ومن يجعل من اهل تلك الغزوات يعد سعيدا عند النصارى دنيا واخرى) ودفع البابا الى الايمبراطور رهائن ليستوثق بها حتى يفعل بمقتضى ماذكر في المشارطة واعطاه زيادة على ذلك عدة مدائن لتبقى تحت يده حتى يفي بالشروط التي حصل الاتفاق عليها

وبعد أن باع البابا المناصب والوظائف القسيسية وفعل ما يباين اصول الكنيسة وقوانين دين النصرانية ودفع المبلغ الاول عينوا يوما لاطلاقه وتخلية سبيله الا انه في مدة سجنه التي بلغت ستة اشهر كان قد سئمت نفسه واشمأزت وصار يخشى نوائب الدهر وغوائله كما هو دأب من تحل به النكبات فخاف أن يتوقف جماعة الايمبراطور ثانيا في اطلاقه وتخلية سبيله حتى انه في الليلة التي قبل اليوم المعين لاطلاقه تنكر في صفة بياع وخرج من القلعة ولم يعرفه احد وانما امكنه ذلك لان الامير ألرسون كان لا يدقق عليه منذ عقد المشارطة ثم سار حتى وصل قبيل الفجر الى مدينة اورويطو ولم يكن معه الا رجل من ضباطه فلما نزل بهذه المدينة بعث كتابا الى الامير لوتريك يثني عليه فيه الثناء الجميل ويفهمه انه هو السبب في خلاصه من ربقة الاسر واطلاقه من السجن

مطلب
ما طلبه الايمبراطور من الملك فرنسيس والملك هنري

وفي اثناء تلك المذاكرة ذهب رسل ملك فرانسا وملك انكلترة الى

سنة ١٥٢٧

اسبانيا ليعرضوا على الايمبراطور ما انحط عليه الرأى فى المشارطة المنعقدة بين الملك فرنسيس وولسى وزير ملك انكلترة وكان الايمبراطور لا يريد أن يعادى هذين الملكين ويخاطر بنفسه فى الحرب معهما فان ذلك يفضى بقواه وخزائنه الى الضعف والنفاد فظهر منه انه يجنح الى التساهل فى بعض امور من الشروط الصعبة المذكورة فى المشارطة المنعقدة بمدينة مدريد وكان الى ذلك الوقت يدقق فى طلبها كل التدقيق ولا يرضى أن يتساهل فى شئ منها فعرض انه يرضى بقبول المبلغ الذى كان عرضه عليه اولا الملك فرنسيس (وهو مليونان من الايكو) فى نظير نزوله عن دوقية بورغونيا ورضى ايضا أن يخلى سبيل ولديه المسجونين عنده بشرط أن يخرج جيشه من بلاد ايطاليا ويرد الى الايمبراطور جنورة وغيرها من البلاد التى تغلب عليها فى ارض ايطاليا واما الامير سفورس فشدد الايمبراطور فى انه لابد من عقد مشورة فيها عدة قضاة ليحكموا عليه بما يستحقه فى نظير خيانته هذا ما طلبه الايمبراطور فلما عرض ذلك على الملك هنرى وكان مما يخص حليفه ملك فرانسا بعثه اليه وانتظر جوابه ولو كان الملك فرنسيس يريد الصلح واجتناب ما يجر الى تلف بلاده وتعب رعيته لما توقف فى قبول هذه الامور لقربها جدا مما كان يطلبه بنفسه قبل ذلك لكن كانت مقاصده قد تغيرت بالكلية وذلك انه لما رآى ان الملك هنرى قد تعاهد معه وصار حليفه ورآى أن سر عسكره الامير لوتريك قد نجح فى ايطاليا وفتح منها بلادا كثيرة وأن جيشه يفوق جيش الايمبراطور ايقن بالنجاح وانه يأخذ مملكة نابلى فتعلل بامور وأبى قبول ما عرضه الايمبراطور بل طلب منه أن يرد الى الامير سفورس سائر دوله بدون مقابل ولا شرط مظهرا أن ذلك من باب الشفقة والرأفة بالامير المذكور مع انه قبل ذلك كان لا يخطر بباله مثل هذا الامر وطلب منه ايضا أن يخلى سبيل ولديه قبل أن تخرج جيوشه من ايطاليا وبلاد جنورة قائلا ان الوثوق بكلام الايمبراطور مما يباين الكياسة والتبصر فغضب الايمبراطور من هذه المطاليب الصعبة المشوبة بالقدح والتوبيخ وندم

سنة ١٥٢٧

على كونه تساهل فى الشروط الاولى واظهر انه لا يتحول عن ادنى شئ من الامور المذكورة اخيرا وكان لا يظن احد أن الملك هنرى يقر الملك فرنسيس على طلب مثل هذه الامور لكنه اقره عليها وبعث رسله مع رسل الملك فرنسيس الى الامبراطور ليعرضوا عليه ما رب ملكيهم فأبى الامبراطور أن يقبلها وانصرفوا من عنده على ذلك

٢٢ شهر كانون الثانى سنة ١٥٢٨

وكان مع هؤلاء الرسل رسولان آخران احدهما من طرف الملك هنرى والآخر من طرف ملك فرانسا وكانا قد ارسلا لدعاء الامبراطور الى الحرب اذا هو لم يرض بالشروط المبعوثة اليه مع هؤلاء الرسل وكانا قد مكثا مختفيين عن الاعين حتى يريا هل يرضى الامبراطور بالشروط المعروضة عليه ام لا فلما ظهر لهما أن الامبراطور قد ابى أن يقبل تلك الشروط حضر الى ديوانه فى اليوم الثانى بعد انصراف الرسل المبعوثين بالشروط وطلبا منه الحرب كل عن لسان سيده فتلقاهما الامبراطور مع الهيبة والجلالة التى تليق بمقامه وخاطب كلا منهما بخصوصه على وجه يدل على ما فى ضميره لكل من الملكين فأجاب رسول الملك هنرى مع ثبات وعزم مشوب ببعض علامات تدل على الاعتبار والاحترام واغلظ القول حين اجاب رسول ملك فرانسا وامره أن يخبر سيده فرنسيس بان الامبراطور من الآن فصاعدا لا يعتبره فى شئ بل يعده ممن لا يعول عليهم ولا يوثق بكلامهم ويخبره عن لسانه انه عار عن شرف العرض والفضائل التى يمتاز بها الامراء والاشراف فلما وصل الرسول الى الملك فرنسيس واخبره بقول الامبراطور وكان عنده شمم وتعاظم اثر فيه ذلك غاية التأثير وعزم على أن يقاتل الامبراطور مقاتلة شخصية بمعنى انه يبرز اليه بنفسه فى الميدان لينتقم منه فى نظير سبه والقدح فيه فبعث رسوله فورا الى الامبراطور وارسل معه بطاقة يدعوه فيها الى المبارزة معه فى الميدان وطلب منه أن يعين زمن القتال ومكانه وانه يختار ما شاء من انواع الاسلحة ولم يكن الامبراطور دونه فى النشاط والشجاعة فقبل هذا الامر بدون توقف ولكن حصل بينهما مراسلات ومكاتبات فى شأن هذه المقاتلة وكانت تلك المكاتبات مشحونة باللوم والتوبيخ

مطلب
دعاء الامبراطور الى الحرب

مطلب
دعاء الملك فرنسيس الامبراطور الى المقاتلة الشخصية وهى مبارزة القرنين فى الميدان

سنة ١٥٢٨

مطلب
تقوية عادة تلك المقاتلة المسماة بالدويل بهذه الحادثة

المشعر بالمسبة واساءة الادب من الجانبين فتنوسى هذا الامر وهو فى الحقيقة لا يليق بهما اذهما اعظم ملوك ذلك العصر وانما هو من شأن الابطال المأثور ذلك عنهم فى الحكايات

ولما حصل هذا الامر من ملكين كانا اعظم ملوك ذلك العصر تقصت به اذهان الناس ونشأ عنه تغير عظيم فى اخلاق بلاد اوروبا وقد قدمنا فى الاتحاف ان عادة الدويل (الدويل اصله باللغة اللاطينية دويلوم ومعناه القتال بين اميرين ثم توسع فيه حتى صار يطلق على كل حرب شخصى يحصل بين اثنين اياما كان نسبهما او مقامهما ومعنى دو اثنان) كانت قد مكثت زمنا طويلا تسوغها الشرائع والقوانين فى سائر بلاد الافرنج حتى كانت معدودة شطرا من قوانين الملل الافرنجية وربما حكم بها القضاة المدنية فى بعض الاحوال من حيث كونها واسطة فى قطع النزاع فى الدعاوى المدنية والجنايات لكن لما كان القتال الشخصى اذ ذاك معتبرا كانه امتحان يظهر فيه الله سبحانه وتعالى العدل والانصاف ويخلص الحقوق لاربابها كانت الشرائع والقوانين لا توجبه الا فى انهاء المصالح والدعاوى العامة وكانت تبين الكيفية التى يكون بها هذا القتال وحيث كانت تلك العادة جارية فى المحاكم اقتدى بها الناس واستعملوها فى مشاجراتهم الخصوصية الشخصية فبعد أن كان الدويل لا يعمل الا بامر من الحاكم صار من وقتئذ يعمل بدون امره وتوسع فى استعماله حتى صار يجرى فى صور لم تكن مقررة فى القوانين فلما حصل بين الايمبراطور شرلكان والملك فرنسيس انهما ارادا القتال الشخصى معا والبروز فى الميدان تقوت هذه العادة كل التقوية وكثر استعمالها فكان اذا حصل ادنى اساءة فى عرض امير من البيكزادات رأى ان له الحق فى الانتقام من خصمه فيدعوه الى الميدان ليخلص منه حقه فنشأ عن ذلك نتائج مضرة حيث كان الناس يومئذ مع شجاعتهم وكبر نفوسهم ذوى خشونة وشراسة اخلاق فكانت تكثر اساءتهم وحقدهم لبعضهم فهلك اعظم اهالى اوروبا فى الميدان فكم هلك فى هذا القتال اناس يعظم نفعهم للوطن ولقد مرت اوقات كان بها

سنة ١٥٢٨

القتال الشخصي اهول واشنع من الحروب المدنية والفتن الداخلية فانظر الى حكم العادة وقوة نفوذ احكامها واقبيا تها على الاحكام الشرعية والسياسية حيث ان هذه قررت عقوبات صعبة واستعملت وسائل دينية في ابطال هذا الامر الذى لم يكن معروفا عند الاقدمين ولا يستحسنه العقل والذوق السليم ومع ذلك فلم يمكن ابطاله ولا قطع عرقه ولكن ينبغي أن نعترف أن ذلك الامر مع شناعته ترتب عليه الآن تهذيب الاخلاق وتحسينها واحترام الناس لبعضهم حتى صارت معاملات الناس ومعاشراتهم جارية على وجه لطيف مستحسن لم يسبق نظيره عند اعاظم الملل السالفة واكثرها تمدنا ورفاهية واحسنها اخلاقا

مطلب
خروج عساكر الايمبراطور من مدينة رومة

ولنرجع الى موضوعنا فنقول انه في مدة ما كان الايمبراطور والملك فرنسيس يريد ان انهاء دعواهما بالقتال الشخصي كان الامير لوتريك مستمرا على الحرب في ايطاليا مع عساكر الايمبراطور وكان جيش لوتريك قد ازداد عدده حتى بلغ خمسة وثلاثين الفا فساربه الى مملكة نابلي فلما دنا منها حصل لعساكر الايمبراطور فزع ورعب زاده الحاج رئيسهم امير اورنجه وحثه لهم على الخروج من مدينة رومة فتوقفوا ثم خرجوا منها بعد أن مكثوا فيها عشرة اشهر وهم يظلمونها ويرتكبون فيها ما الامزيد عليه من انواع المفاسد والمظالم لكن لم يبق من هؤلاء العساكر الايمبراطورية الذين دخلوا رومة في بهاء ورونق عظيم الا نصفهم وهلك الباقي فيها بالطاعون والامراض التي حدثت فيهم من طول مدة الدعة والبطالة وانهماكهم على اللذات والشهوات مدة اقامتهم بها وقد بذل الامير لوتريك غاية جهده ليتمكن من الهجوم على عساكر الايمبراطور وهم متوجهون الى ارض نابلي ولو نجح في ذلك لانتهى الحرب لوقته الآن رؤساء هؤلاء العساكر لحزمهم وتيقظهم افسدوا عليه ما دبره في هذا الشان حتى وصل العساكر المذكورون الى نابلي ولم يهلك منهم الا القليل وكان من عدة اهالي مملكة نابلي أن يسلموا للحزب الاقوى الغالب وكانوا يودون الخلاص من حكم اهل اسبانيا

سنة ١٥٢٨

والامبراطورهم فقابلوا جيش الفرنساوية مع الفرح وكانوا يتلقونهم مع البشاشة ا لحا نزلوا من بلادهم حتى لم يبق لعساكر الامبراطور من المدائن الحصينة والقلاع سوى مدينة غايطة ومدينة نابلى فأما الاولى فلم تبق بايديهم الا لانها كانت حصينة متينة الاسوار وكان السبب فى حفظ مدينة نابلى هو حضور عساكر الامبراطور بها ومدافعتهم عنها ومع ذلك تقدم الامير لوتريك بالجيش الفرنساوى الى نابلى وضرب معسكره تحت اسوارها لكنه راى انه لا يمكن الاستيلاء عليها لكثرة العساكر والمحافظين بها فاقتصر على حصارها حصارا محاطة وان كان يعلم ان طريقة الحصار بطيئة غير انه رآها دون الهجوم خطرا وبعد أن رتب الحصار وسد اكناف المدينة وارجاءها كتب الى سيده الملك فرنسيس يعلمه بان عساكر الامبراطور سيضطرون عن قريب الى التسليم لشدة القحط والمجاعة لانه قد قطع عنهم الوارد وسد عليهم جميع الابواب وقد حصلت حينئذ حادثة تقوى بها هذا الامل عند حزب فرنسيس وهى أن عساكر الامبراطور شنوا الغارة ليتغلبوا على البحر فرجعوا خائبين وذلك أن سفن الامير اندرة دورية التى كان حكمدارها ابن اخيه الامير فيليبين كانت تخفر داخل المينا فاراد الامير مونكاد وكان قد خلف الامير لانواى على حكومة نابلى أن يتغلب على البحر فجهز مقدارا من السفن يزيد على سفن الامير اندره دورية ونزل فيها هو والملتزم غواست واعظم الضباط والعساكر الاسبانيولية وهجم على سفن الامير دورية قبل أن تلحقها سفن الفرنساوية وسفن جمهورية البنادقة ولكن كان الامير دورية يفوق اعداءه فى فن البحرية والحركات العسكرية فانتصر على عساكر اسبانيا مع شجاعتهم وكثرة عددهم وعددهم وقتل الامير مونكاد حاكم نابلى وتلف معظم سفنه وأسر الملتزم غواست وعدة من اكابر الضباط الاسبانيولية فوضعهم الامير فيليبين فى السفن التى اخذها من الاعداء وارسلهم الى عمه اندره دورية علامة على نصره على الاعداء وظفره بهم

شهر سباط

مطلب
حصار الفرنساوية لمدينة نابلى

ومع

سنة ١٥٢٨

مطلب
الحوادث التى طالت بها مدة المحاصرة

ومع هذا النجاح الذى تقوى به امل الامير لوتريك فى حصول النصر عن قريب حصلت عدة حوادث اخرى افسدت عليه آماله وذلك ان البابا كليان وان اعترف غير مرة ان الملك فرنسيس هو الذى انقذه من الاسر وبالغ فى الاساءة التى حصلت له من طرف الامبراطور كان لايسلك فى اموره على حسب ما كان يعترف به ويظهر من صدق المحبة للملك فرنسيس واغرب من ذلك انه تناسى بغضه للامبراطور وصار لايبحث عن الانتقام منه لنفسه فى نظير اساءته له وذلك انه كان من عادته ان لايأمن من صروف الدهر وغدره بل يحترس مهما امكن فى اموره فلما حلت به المصائب ووقع اسيرا فى قبضة الامبراطور وخلص من ذلك زاد احتراسه من نكبات الدهر فكان كلما تفكر فيما حصل له ازداد خوله وكثر تردده فبينما كان يلاهى الملك فرنسيس بالمواعيد المزخرفة كان يتفاوض سرا مع الامبراطور شرلكان لاسيما وكان البابا المذكور يريد أن يثبت لعائلته الحكم الذى كان له فى بلاد فلورنسة قبل أن تخرج عن طاعته وتصير جمهورية مستقلة وكان يعلم أن الملك فرنسيس لايساعده على ذلك حيث انه تعاهد مع هذه الجمهورية معاهدة اكيدة وان الامبراطور هو الذى ينفعه فى مثل هذا الامر فكان ميله الى الامبراطور الذى هو عدوه اكثر من ميله الى الملك فرنسيس مع انه كان سببا فى خلاصه من الاسر فلذا لم يساعد الامير لوتريك ادنى مساعدة هذا وكان اهل البنادقة يغارون من نجاح جيش الفرنساوية فاشتغلوا بأخذ بعض مدائن بحرية من بلاد نابلى كانت مطمح نظرهم ولم يلتفتوا الى اعانة جيش الفرنساوية على اخذ مملكة نابلى فآثروا مصلحة انفسهم على المصلحة العامة

واما ملك انكلترة فلم يمكنه ايضا أن ينجز الغرض الذى كان عزم عليه لاجل مشاغلة الامبراطور وايقاعه فى الحيرة وهذا الغرض هو الهجوم على مملكة البلاد الواطية وكانت من ممالك الامبراطور وكان السبب الذى منعه عن تنجيزه هو ان رعاياه كانوا لايرضون بهذا الحرب لكونهم رأوا انه لايعود عليهم

سنة ١٥٢٨

بالمنفعة بل يترتب عليه تعطيل تجاراتهم وكسادها فلما شاهد منهم ذلك اخذ
يعاملهم بما يسكن به غضبهم ويمنع من حصول فتنة بينهم حتى اضطر الى عقد
هدنة مدة ثمانية اشهر بينه وبين ملكة البلاد الواطية وقد حصل ايضا من
الملك فرنسيس اهمال وتراخ كما هى عادته فلم يرسل الى الامير لوتريك
المبالغ اللازمة لمصاريف الجيش ولوازمه

مطلب
قيام الامير اندره دورية على الفرنساوية ودخوله فى حزب الايمبراطور

فبتلك الاسباب فترت همة العساكر الفرنساوية وهمة الامير لوتريك
وحصلت حادثة اخرى سدت عليهم جميع الابواب واوقعتهم فى اليأس والقنوط
وهى عصيان الامير اندره دورية وذلك أن الامير المذكور كان جمهوريا
وكانت تربيته من صغره فى البحرية فكان مع حبه للاستقلال كاهل
الجمهوريات متخلقا بالاخلاق الحميدة من طيب السريرة وخلوص الطوية
وغير ذلك من الصفات المحمودة التى يمتاز بها البحرية وكان طبعه يأبى المداهنة
والتملق اللذين لابد منهما لمن اراد أن يكون له حظوة فى دواوين الملوك وكان يعرف
مقدار نفسه وجلالة شانه فكان يبدى رأيه فى كل امر بحسب ما يستحسنه عقله
ويتظلم ممن يضره فلا يخشى بأسا وكان وزراء الفرنساوية غير متعودين
على مثل هذا الشمم فعزموا على اهلاك هذا الامير حيث كان لا يحسن
معاملتهم ويسلك معهم مسلكا يرونه مخلا بشروط الادب والاحترام وكان
فرنسيس يعلم أن هذا الامير ينفعه كل النفع وكان يعهد فيه كرم الاخلاق ومع
ذلك لم يزل اخصاؤه وارباب ديوانه يقدحون فيه ويبالغون فى ذمه ويصفونه
بالكبر وسوء الخلق وانه يؤثر مصلحة نفسه على مصلحة فرانسا فزال حسن ظن
فرنسيس فيه بالتدريج وصار لا يثق به ومن وقتئذ حصل للامير اندره دورية
اساءة وظلم لا تطيقه النفوس فكانت ماهيته لا تدفع له اولا بأول كالسابق
بل كان فى الغالب لا يسمع قوله ولا يقبل رأيه فى المصالح البحرية وارادوا
أن يأخذوا من ابن اخيه الامير فيليبين جميع من أسرهم فى الحرب البحرى
الذى حصل بينه وبين سفن الايمبراطور فى مينا نابلى وبينما كان الامير
اندره دورية متضجرا من هذه الامور غاية الضجر اذ حصلت حادثة اخرى غيل

سنة ١٥٢٨

بمباصيره وهى أن الفرنساوية اخذوا يحصنون مدينة سابون ويتظفون
ميناها ونقلوا اليها من التجارة بعض فروع كانت مخصوصة بمدينة جنويزة
التى هى موطن هذا الامير وظهر منهم انهم يريدون جعل مدينة سابون
المذكورة زاهية بالتجارة والثروة كمدينة جنويزة وكان اهل جنويزة
يبغضون تلك المدينة ولا يحبون أن تشركهم فى التجارة فلم يستطع ذلك
واخذته الحمية على وطنه فتشكى من هذا الامر وهدد الفرنساوية بانهم ان
لم يرجعوا عن هذا المقصد حل بهم الضرر وندموا كل الندم وكان خواص
فرنسيس يبغضون هذا الامير فلما حصل منه ذلك اخبروا به الملك بعد
أن بالغوا فيه واضافوا اليه امورا رديئة من عندياتهم قاصدين تنفير الملك عنه
فغضب فرنسيس كل الغضب وبعث امرا الى الاميرال (قبطان باشا)
باربيزيو أن يتوجه صحبة الدونمنا الفرنساوية الى جنويزة ويقبض
على الامير اندره دورية ويستولى على مامعه من السفن وكان يلزم
المحافظة مهما امكن على اخفاء هذا الامر الصادر عن غير حزم وتبصر لكن
لم يعتن باخفائه فعلم به الامير اندره دورية من قبل فاخذ سفنه ورسابها
فى محل آمن بحيث لا يخشى من اعدائه مادام فيه وكان الملتزم غواست
وقتئذ اسيرا عنده فلما رأى هذا الملتزم غم هذا الامير اخذ ينفره من الفرنساوية
ويذكر له ما يرغبه فى الانضمام الى حزب الامبراطور فلما رأى أن الغضب والحقد
قد تمكنا منه غاية التمكن انتهز تلك الفرصة وحمله على أن يبعث ضابطا من ضباطه
الى الامبراطور يلتمس منه الدخول فى خدمته بموجب شروط بعثها مع ذلك
الضابط وكان الامبراطور يعلم أن دخول هذا الامير فى خدمته مما يعينه اتم
الاعانة على اعدائه فبادر بقبول الشروط المعروضة عليه من طرفه وادخله
فى حزبه فبمجرد اتمام هذا الامر ارسل الامير دورية الى الملك فرنسيس
نيشانه وحط عن سفنه بنديرة الفرنساوية وابدلها ببنديرة الامبراطور ورفع
الشراع وسار جهة مدينة نابلى لقصد خلاصها وانقاذها لا لقصد حصار
ميناها كالسابق

سنة ١٥٢٨

مطلب
الضنك الذى حصل للفرنساوية امام نابلى

فعند وصوله الى مدينة نابلى فتحت طرق البحر وصارت تلك المدينة فى رخاء من العيش بعد أن كانت فى اشتداد الكروب من القحط والجدب واما الفرنساوية فانهم بعد أن تركهم الامير اندره دورية ضاعت منهم سلطنة البحر وبعد مدة قليلة تفدت ازوادهم وذخائرهم وآلوا الى اسوء حال وكان الامير دورنجه قد تولى الرياسة على جيش الايمپراطور بعد موت النائب الذى كان حاكما على بلاد نابلى فسلك هذا الامير ما صار به اهلا لهذا المنصب العظيم وكان عزيزا على العساكر محبوبا لديهم لانهم انتصروا معه مرارا عديدة ونجحوا كل النجاح فكانوا يطيعونه ويتلقون اوامره بالقبول وخلوص النية فكان دائما وابدا ينقض على الاعداء بعساكره ويتعبهم حتى اذاقهم العذاب الاليم وكلت قواهم وتلاشى عزمهم * ومن سوء حظ الفرنساوية نزلت بجيشهم الامراض التى تكثر عادة بتلك البلاد فى فصل الصيف وكان الفرنساوية قد أسروا جملة من عساكر الايمپراطور فيهم بقايا الطاعون لانهم كانوا بمدينة رومة واتوا به معهم الى نابلى فلما دخل هؤلاء الاسارى فى معسكر الفرنساوية ظهر فيه الطاعون فعما قليل هلك عساكر الفرنساوية ولم يسلم من العدوى الا مقدار قليل من الضباط والعساكر فلم يبق فى الجيش الادون اربعة آلاف تقدر على حمل السلاح ولا شك ان هذا المقدار لا يكفى فى المدافعة عن المعسكر فحاصر عساكر الايمپراطور من بقى من جيش الفرنساوية وضيقوا عليهم كل التضييق حتى حل بهم مثل ما كان حل بعساكر الايمپراطور فمكث رئيسهم الامير لوتريك مدة طويلة وهو يعارض تلك العوارض والمصائب ثم اصيب بالطاعون وكان قد عظم عليه الامر واشتد به الكرب فهلك وهو يتأوه من اهمال الملك فرنسيس وخيانة حلفائه ومتعاهديه حيث ترتب عليهما فقد ابطال الفرنساوية وشجعانهم وكان لا يوجد بعده من يصلح للرياسة على الجيش لان جميع الضباط من الجنرالات كانوا مرضى فانيط بها الملتزم دوسالوس ولم يكن عنده من المعارف ما يكفى فى تدبير هذا المنصب المهم الجسيم فاختل نظامه وفر الى مدينة اويرسة هو ومن بقى من الجيش وكانوا اشرذمة قليلة قد لحقهم

١٥ من شهر اغسطس

مطلب
رفع الحصار

سنة ١٥٢٨

من التعب والنصب مالامزيد عليه فعند ذلك اقام الامير دورية الحصار على مدينة اويرسة فعما قليل اضطر دوساوس الى التسليم ووقعت المشارطة على أن يبقى اسيرا عند سرعسكر الامبراطور ويترك له سائر مواده ومهماته وأن يجرّد الفرنساوية عن الاسلحة ويرسلوا الى مملكة فرانسا بدون سلاح ولا رايات وتصحبهم سرية من عساكر الامبراطور لاجل خفرهم حتى يصلوا الى ضواحى تلك المملكة فبهذه المشارطة المورثة للمعرّة كانت نجاة بقايا الجيش الفرنساوى * و بعزم الامبراطور وحزم رؤسائه وحسن سلوكهم رجع الى ما كان عليه من القوّة ونفوذ الكلمة والشوكة فى بلاد ايطاليا

مطلب رجوع جنورة الى حريتها

وقد اعقب تدمير هذا الجيش فى محاصرة نابلى ضياع جنورة وكان الامير دورية يطمع فى انقاذ وطنه من حكم الاجانب حيث ان ذلك هو الحامل له على التخلى عن حزب الملك فرنسيس والدخول فى حزب الامبراطور ولم يكن لاحت له فرصة اعظم من ذلك فى تتميم هذا المشروع الممدوح وكان اهل مدينة جنورة قد هاجروا منها لوجود الطاعون بها وكان محافظوها من الفرنساوية قد لحقهم الضجر والسآمة حيث كانت لاتدفع لهم ماهياتهم وكانوا قد تناقص عددهم بسبب الامراض الوبائية ولم يأتهم امداد جديد يعينهم ويشدّ عضدهم ولما بعث الامير دورية رسلا الى تلك المدينة رأوا من بقى من اهلها قد سئموا من حكم الفرنساوية وحكم اهل اسبانيا حتى صاروا يودون أن ينقذهم احد من ذلك ووعدوا بانه ان تصدّى هذا الامير لانقاذهم بادروا بملاقاته ومساعدته فى جميع مشروعاته فلما بلغ ذلك الامير دورية وايقن أن مقتضيات الاحوال تساعده فى تنجيز هذا الغرض توجه بسفنه فى نهر جنورة فلما دنا منها تباعدت عنها السفن الفرنساوية واخرج سرية من عساكره الى البر فجاءت المدينة ليلا وتغلبت على باب من ابوابها وكان حكمدارها اذ ذاك الامير تريولس الفرنساوى فآوى الى القلعة مع محافظيها وكانوا فى عدد قليل وغلقوا ابوابها فاستولى الامير دورية على المدينة بدون قتال وكان الامير تريولس وهو فى القلعة لايجد ما يلزم له

١٢ من شهر ايلول

سنة ١٥٢٩

سليمان كان قد تغلب على بلاد المجر واوشك أن ينقض بجيوش المشرق على بلاد الاوستريا وزيادة على ذلك كان دين لوتير كل يوم فى ازدياد وانتشار فى سائر بلاد المانيا وكان الامراء الذين ينصرون هذا الدين ويعضدونه قد عقدوا مع بعضهم عصبة يخشى منها تعكير الامبراطورية وايقاع الفتن بها وكان اهل اسبانيا يلومون الامبراطور على هذه الحروب ويتظلمون منها حيث كان معظم مشاقها عليهم لاسيما وكانت قد عظمت واتسعت دائرتها فرأى الامبراطور ان ارادته لا يكفى فى مصارفها وانما كان نصره على عدوه لوفور حظه ومهارة ضباطه ورؤساء عساكره وهذا بمجرده لا يكفى فى استمرار نصرة عساكره الذين كانوا فى الغالب لا يجدون ما يلزم لهم على عساكر العدو الذين كانوا لم يزل عندهم ما يقوى هممهم ويسوغ لهم الهجوم على اعدائهم هذا ولا يخفى أن الملوك الذين كانوا متعصبين على الامبراطور لم يستطيعوا اخفاء مقاصدهم واغراضهم بخلاف الامبراطور فلم يزل يلزم اعداءه بشروط صعبة حتى لا يتوهموا عجزه عن استمراره على القتال واما البابا فكان لا يريد أن يتخلى عن معاهديه قبل أن يتعاهدا ويعقد مشارطة مع الامبراطور فكان يحاولهم ويخادعهم من جهة ومن جهة اخرى كان يتشارط مع الامبراطور سرا ولما كان الملك فرنسيس يخشى أن يسبقه معاهدوه وحلفاؤه الى الصلح مع الامبراطور سلك فى هذا الامر مسلكا يخل بالمروءة والانسانية وشاغل معاهديه حتى لا يقفوا على ما دبره فى هذا الشان

فبينما كان كل فريق يرغب فى الصلح ولا يتجاسر على طلبه ولا على السعى فى تحصيله شرعت امرأتان فى ايقاع هذا الامر الذى كان يرغب فيه سائر ملوك الافرنج احداهما مرغريطة اميرة الاوستريا الوارثة اقليم سبوة عن زوجها وهى خالة الامبراطور والثانية الاميرة لويزة ام الملك فرنسيس فاتفقتا على أن يتقابلا فى مدينة كمبريه لاجل المفاوضة فى هذا الشان وسكنتا فى بيتين متلاصقين وفتحت بينهما فرجة واجتمعتا على وجه المحبة والالفة بدون التزام ما فيه كلفة وجعلتا يتذاكران ولم يكن معهما

سنة ١٥٢٩

ثالث وكانت كل اميرة منهما تعرف احوال ديوان مملكتها ومصالحها حق المعرفة وكانت كل منهما تثق بصاحبتها فعما قليل انحط الرأى بينهما على امور شتى وكاد يتم بمذاكراتهما صلح تام مستكمل لجميع الشروط والادوات وفى اثناء ذلك كان رسل الملوك المتعاهدين ينتظرون مع القلق ما يصدر من هاتين الاميرتين فى شأن بلاد اوروبا

مطلب
انعقاد مشارطة خصوصية بين البابا والايمبراطور فى ٢٠ من شهر حيزران

ومع أن هاتين الاميرتين كانت تعجلان بعقد صلح عام حصل أن البابا سبقهما بعقد مشارطة مع الايمبراطور سرا فى مدينة برسلونة وذلك أن الايمبراطور لما توجه الى بلاد المانيا قصد أن ينزل بايطاليا لينشر بها الامن والاطمئنان قبل وصوله الى المانيا لتسكين الفتن والتفاقم فرأى انه يلزمه أن يعقد مع دولة من دول ايطاليا معاهدة يعول عليها ويستند اليها وكان البابا لم يزل يبحث عن المعاهدة معه فاستصوب الايمبراطور ذلك وآثر المعاهدة معه على غيرها لاسيما وكان يود أن تلوح له فرصة يصلح بها ما كان فعله من الاساءة فى حق البابا الذى هو رئيس النصارى وامام دينهم ويمحو قديم خطيئته بحديث صنيع جميل فعامل البابا باحسن المعاملة وسلم له فى امور شتى كان لا يتأتى له الطمع فيها ولو بعد نصرات عديدة فكان من جملة المواد التى اشتملت عليها المشارطة أن تعهد الايمبراطور بأن يرد الى البابا سائر الاراضى القسيسية وأن يرتب ثانيا فى فلورنسة حكم العائلة الميديسية وهى عائلة البابا كليمان كما تقدم وأن يزوج بنته من الزناء للامير اسكندر رئيس العائلة المذكورة وأن يرخص للبابا أن يفعل كيف يشاء مع الامير سفورس ويتصرف فى حكومة دوقية ميلان كما يحب ويختار وتعهد البابا أن يعطى للايمبراطور حكومة مملكة نابلى ولا يدفع الايمبراطور له خراجا وانما يتعهد له أن يهاديه ببرذون ابيض لتستمر له السيادة على تلك المملكة وصدر منه فرمان بالعفو عن كل من كان اهم دخل فى نهب مدينة رومة والهجوم عليها واذن للايمبراطور واخيه فرديننذ أن يأخذ اربع ما فى دولهما من ايرادات الكنيسة

سنة ١٥٢٩

مطلب
الصلح المنعقد بمدينة كمبريه بين الايمبراطور والملك فرنسيس فى شهر آب

ولما شاع خبر هذه المشارطة وقع التعجيل فى المداولات والمذاكرات التى كانت حاصلة بمدينة كمبريه بين الاميرة مرغريطة والاميرة لويزة حيث ان هاتين الاميرتين بمجرد سماعهما بالمشارطة المذكورة أنهيا مشارطتهما وكانت المشارطة المنعقدة بمدينة مدريد اصلا للمشارطة المنعقدة بين هاتين الاميرتين وكان القصد منها تخفيف الشروط الصعبة المذكورة فى المشارطة الاولى يعنى مشارطة مدريد المذكورة والبنود الاصلية من مشارطتهما هى أن الايمبراطور لا يطلب الآن رد دوقية برغونيا بل يبقيها الى وقت آخر ولا يترك حقوقه ودعواه فى شأنها وأن الملك فرنسيس يدفع مليونين من الايكو لفداء اولاده وقبل اطلاقهم وتخلية سبيلهم يرد الملك فرنسيس الى الايمبراطور سائر المدائن الباقية له فى دوقية ميلان ويتخلى له ايضا عن حكومة الفلمنك واقليم ارتوازة ويترك دعواه فى شأن نابلى وميلان وجنويزة وسائر المدائن الاخرى الموضوعة خلف جبال الپه وبمجرد اجراء المشارطة يتزوج بالاميرة اليونورة اخت الايمبراطور كما هو مقتضى الاتفاق السابق

مطلب
كون هذه المشارطة فيها شرف وفخار للايمبراطور

ولما كان الملك فرنسيس فى قلق عظيم لاجل خلاص اولاده من الاسر رضى بهذه المشارطة فترك جميع ما كان الجأه اولا الى الحرب مع الايمبراطور مدة تسع سنوات وهو حرب طويل لم يكن يعهد مثله فى بلاد اوروبا قبل أن تظهر بها الجيوش المنتظمة وضرب المغارم الخارجة عن حد العادة فصارت بلاد ايطاليا بموجب المشارطة المذكورة تحت يد الايمبراطور يتصرف فيها كيف شاء وانقذ املاكه التى فى مملكة البلاد الواطية من عار التبعية لمملكة فرانسا وبعد أن غلب الايمبراطور خصمه وظهر عليه فى الحرب ألزمه عند عقد الصلح بما شاء من الشروط الزام السيد لعبده والمتبوع لتابعه ولا غرابة فى ذلك اذا نظر الانسان الى سلوك كل من الملك فرنسيس والايمبراطور شرلكان وقت تدبير امورهما فان شرلكان كان يدبر مقاصده مع الحزم والتبصر ويتبعها مع العزم والتصميم حتى تأتى فى التنجيز على احسن

سنة ١٥٢٩

حالة وكان ذلك اوفق بطبعه كما كانت الضرورة والمقتضيات اذ ذاك تجعله مما لا بد منه وكان دائما يراعى مقتضيات الاحوال والحوادث حق المراعاة فلم تفته فرصة مما يترتب عليه نفعه الا انتهزها بخلاف فرنسيس فان عزمه عند الشروع فى المقاصد اقوى من عزمه عند ارادة التنجيز بكثير فكان عند العزم على المشروعات الجسيمة يقدم عليها مع حمية لا تبارى *وحدة لا تجارى* الا انه لا يدوم على ذلك بل لدى ارادة التنجيز تفتر همته * وتضعف حدة عزمه وحميته *وبالجملة فكان غالبا يضيع ما يبدو له من الفرص النافعة المهمة اما لاشتغاله باللعب واللهو او لغش خاصته وخداعهم اياه هذا ما كان من امر الملكين من حيث تباينهما فى صفاتهما الذاتية وكذلك تباين رؤساء عساكرهما فى الفضائل والمعارف لم يكن تأثيره دون ذلك فى نجاح حزب الامبراطور وخذلان حزب فرنسيس فان رؤساء عساكر الامبراطور كانوا دائما مع شجاعتهم لا يعدلون عن سنن السياسة والحزم وكانوا ارباب قرائح جيدة وعقول صائبة مستنيرة بمصابيح التجاريب وفطنة ثاقبة تدرك مقاصد الاعداء وما تريهم وبالجملة فكانوا استكملين لجميع الصفات الجليلة التى يمتاز بها رؤساء العساكر بين الابطال ويثبت بها النصر والظفر بخلاف الرؤساء الفرنساوية فلم يكن عندهم شئ من تلك الصفات الحميدة بل كان اغلبهم جامعا اضدها واذا قطعت النظر عن معارف السرعسكر لوتريك وان لم يساعده الدهر على مشروعاته لا ترى فى رؤساء الفرنساوية من يفتخر بكونه يبلغ فى المعارف درجة الامير بسكير والامير ليوه والامير دوغواست والامير دوريجة وغيرهم من الرؤساء الذين ابرزهم الامبراطور شرلكان لمقاومة الفرنساوية وقتالهم وكان لمملكة فرانسا من يمكنه بمعارفه وحسن سلوكه أن يعادل رؤساء الامبراطور وهو الدوق دى بوربون والامير مورون والامير دورية الا انهم تركوا مملكة فرانسا التى هى وطنهم وانضموا الى حزب الامبراطور وكان السبب فى حرمان فرانسا منهم هو اهمال الملك فرنسيس او خبث طوية اخصائه وظلمهم وقد علم مما سبق أن المصائب التى

سنة ١٥٢٩

حلت بمملكة فرانسا مدة الحرب كانت صادرة عن حقد هؤلاء الثلاثة ويأسهم حيث فعل معهم من الاساءة ما اوجب غضبهم وحملهم على التخلى عن حزب فرانسا والدخول فى حزب الايمبراطور

مطلب
كون هذه المشارطة مزرية بعرض الملك فرنسيس

ثم ان الشروط التى الزم بها الملك فرنسيس فى مشارطة كمبريه وان كانت صعبة عليه الا انها لم تورثه من الخزى والمعرة ما اورثه غيرها مما ذكر معها فى تلك المشارطة وذلك انه فقد شهرته وصار ملوك اوروبا لا يأتمنونه ولا يثقون به حيث تخلى عن معاهديه وجعل امرهم بيد خصمه وسبب ذلك انه لم يتعرض لما فيه مصلحتهم خشية أن يلزم بامور اخرى فى نظير ما يطلبه لهم بل تركهم جميعا تحت ارادة الايمبراطور يتصرف فيهم كيف يشاء فجلب لنفسه العار بتخليه عن اهل البنادقة واهل فلورنسة ودوق فرارة وبعض بارونات من نابلى كانوا قد انضموا الى جيشه ودخلوا فى حزبه فلما حصل منه ذلك تشكوا جميعا من جبنه وغدره بهم كل التشكى حتى انه لما لحقه من الخزى احتجب مدة عن الرسل الذين اتوا اليه من طرفهم لئلا يسمع منهم ما يسيئه من اللوم والتوبيخ الذى يستحقه واما الايمبراطور فقد راعى مصالح من انضموا الى حزبه جميعا حتى انه اثبت حقوق رعاياه الفلمنكيين الذين كان لهم ببلاد فرانسا املاك حقيقية ثابتة اومدعاة وكان من جملة بنود المشارطة بند مخصوص وهو انه يجب على ملك فرانسا أن يرد الى عائلة الدوق دى بوربون الاعتبار والشرف الذى كانت تتمتع به سابقا وأن يرد الى ورثته سائر اراضيه التى ضبط عليها وضمت الى جانب الميرى وكان فيها بند آخر وهو انه يجب على فرنسيس أن يعطى البيكزادات الفرنساوية الذين كانوا بمعية دى بوربون مدة نفيه ما يرضى خاطرهم * فبهذا السلوك الحميد الحسن الذى ازداد بهجة بحصول ضده من الملك فرنسيس استوجب شرلكان اعتبار الافرنج له بقدر ما حصل له من الفخار والسودد بظفره ونصرته

مطلب
امتثال الملك هنرى ورضائه بالمشارطة

ولكن فرنسيس لم يعامل هنرى ملك انكلترة كغيره من معاهديه بل كان لا يقرر شيأ فى مشارطة كمبريه الا و يخبره به ومن حظه أن هذا الملك

كان

سنة ١٥٢٩

كان وقتئذ في حالة بحيث لا يسعه الا استحسان ما يفعله ملك فرانسا واعانته على ما يشرع فيه وذلك ان هنرى كان يترجو من البابا أن يأذن له بطلاق امرأته كاترينة اميرة اراغون لاسباب دعته الى ذلك وهى أن هذه الاميرة كانت زوجة اخيه من قبله وكان اذ ذاك ذا ديانة يخشى أن يكون زواجه بها بعد اخيه مخالفا للشريعة وزيادة على ذلك كان لا يحبها الا انها كانت اكبر منه سنا وكانت اكبر سنها قد ضاعت منها بهجة الشباب ومحاسن الصبا وكان يود أن يكون له اولاد ذكور لا سيما وكان الوزير ولسى يريد ايقاع الفشل والشقاق بين سيده الملك هنرى والايمبراطور وحيث كان الايمبراطور ابن اخت الاميرة كاترينة ظن ولسى المذكور أن طلاق هنرى لها يوجب الشقاق بينه وبين الايمبراطور فصار يحسن له هذا المقصد وهو طلاق تلك الاميرة وهناك سبب آخر بما كان اقوى الجميع وهو أن الملك هنرى كان قد شغف بحب الاميرة اندوبولان وكانت مشهورة بالحسن والجمال صغيرة السن ذات معارف وعوارف فلما رأى انه لا يمكنه أن يحظى بمحاسن تلك الاميرة الا اذا تزوج بها صمم على زواجها وترقيتها الى اوج السلطنة * وكثيرا ما حصل من البابات انهم حكموا بالطلاق بموجب اسباب اوهى واضعف من تلك الاسباب التى كان يستند اليها الملك هنرى * فعرض هذا الامر اول مرة على البابا كليمان وكان مسجونا وقتئذ بقلعة سنتانج وكان لا يؤمل الخلاص من هذا السجن الا بواسطة ملك انكلترة او ملك فرانسا اللذين كانا متعاهدين معه فاظهر الميل الى اعانة هنرى على طلاق زوجته فلما خلص من السجن اظهر خلاف ذلك لانها لما كانت خالة الايمبراطور كان يدافع عنها اتم المدافعة فجعل هنرى يرهب البابا تارة بالايعاد والتخويف وكان بالطبع هيوبا خوافا وتارة يرغبه بالوعد والتسويف فافهمه انه سيرفع قدر عائلته وقد وفى بوعده بعد ذلك بمدة قليلة فلهذه الاسباب نسى البابا كليمان مصالح الملك هنرى ولم ير الا تنفيذ اغراض الايمبراطور حتى ترتب على ذلك تعريض مصلحة الدين الرومانى للاخطار والدمار حيث فعل ما اوجب انفصال ملك انكلترة

سنة ١٥٢٩

عن حزب كنيسة رومة وخروجه عن تبعيتها فكث البابا حولين كاملين وهو يشاغل هنرى ويلاهيه بالمجادلات والتدقيقات التى كان ديوان رومة يتقنها ويحسن استعمالها اذا ارادتطويل قضية اوافسادها وعدم تنجيزها وبعدأن سلك سبيل الخداع والسياسة العويصة المشكلة التى تعسر حلها وتوجيهها على مؤرخى الانكليزالذين تصدّوالهذا الغرض سلب القضاة الذين كان قداقامهم للحكم فى هذه الدعوى ما كان اعطاه لهم من التفويض فى حلها والقضاء فيها وجعل ذلك منوطا بديوان رومة فعلم الملك هنرى أن الامر قدصار منوطا بالبابانفسه ولا يتم الطلاق الا بحكمه وحيث كان البابا اذذاك متحدا بالامبراطور كل الاتحاد لانه كان فعل معه ممايوجب المودة والمحبة مايزيد عن الحد يئس الملك هنرى وايقن انه لايحكم الا بماعليه عليه الامبراطور أوأن حكمه لا يكون الاعن لسان الامبراطور ولكن كان يرى أن عدوله عن هذا الغرض بعد اشتهاره به ممايزرى بعرضه فصمم على سلوك طرق اخرى فى تنجيزه على اى وجه كان لاسيما وكان مشغوفا بحب الاميرة آندوبولان فرأى انه لابدّله من التحبب الى الملك فرنسيس واستعطافه حتى يمكنه أن يقاوم بطش الامبراطور وصولته فلذالم يلمه على كونه تخلى فى مشارطة كمبريه عمن كانوامتعاهدين معه بل اهدى له مبلغا جسيما على سبيل المحبة والصداقة ليستعين به على فداء اولاده وانقذهم من يد الامبراطور

مطلب
نزول الامبراطور فى ايطاليا ١٢ من شهر آب

وقد نزل الامبراطور ببلاد ايطاليا فى محفل عظيم من امراء اسبانيا ومعه طائفة كبيرة من العساكر والجنود وكان قدفوّض امر حكومة اسبانيا مدة غيبته الى الامبراطورجه ايزابلة وكان لطول مكثه فى تلك المملكة قدتمكن من معرفة طباع الاسبانيول وعرف كيف يحكمهم باصول وقوانين ملائمة لعقولهم وطباعهم بل كان يسلك فى بعض الاحيان طرقا مألوفة للعامة وكان يجالس الناس حتى احبته الملة الاسبانيولية بتمامهما وقبل ارتحاله الى بلاد ايطاليا بأيام فعل امراغريبا يدل على انه كان يود

تحبب الملة اليه ويسعى فيما يسرها وهو انه كان قد دخل فى محفل عظيم بمدينة برسلونة وكان اهلها لا يدرون هل الأليق أن يتلقوه بلقب الايمبراطور او بلقب القوسة دو برسلونة فآثر شرلكان اللقب الثانى مظهرا أن هذا اللقب القديم اكثر شرفا له من التاج الايمبراطورى فحصل لهم بذلك مزيد السرور وتلقوه مع غاية الفرح والابتهاج وبايعته مشورة وكلاء اقليم برسلونة على الانقياد والطاعة لابنه فيليبش بوصف كونه وارث قونتية برسلونة وبايعه بمثل ذلك سائر ممالك اسبانيا

وكان نزول الايمبراطور ببلاد ايطاليا مع ابهة الفاتحين وافتخار الغالبين واحتفال الظافرين فكان رسل ملوك هذه البلاد يذهبون وراءه اينما توجه و ينتظرون ما يقضى به عليهم واول بلدة نزلها من بلاد ايطاليا هى جنويرة فتلقى فيها مع الفرح التام والتهليل العام حيث كان حامى حمى حريتها واتحف الامير دورية بعدة علامات من علامات الشرف وانعم على جمهورية جنويرة بمزايا وخصوصيات جديدة وبعد ذلك توجه الى مدينة بولونيا ليقابل البابا فدخل بهذه المدينة باحتفال عام يليق بمقام الايمبراطرة ومع هذه الابهة اظهر التواضع والخضوع للكنيسة كأسلافه اتباعها وذلك انه وان كان معه عشرون الفا يمكنه بهم أن يتغلب على بلاد ايطاليا خر ساجدا أمام البابا وقبل اقدامه مع انه قبل ذلك باشهر قلائل كان اسيرا عنده * وكان اهل ايطاليا لما حصل لهم من الاساءة والاذى من عساكره يتصورون انه مثل ملوك الهون و الغوطيين المتبربرين حيث انهم لم يضروا بلادهم اكثر مما اضر بها عساكره فحصل لهم غاية التعجب حين رأوه لطيفا مألوفا ذا بشاشة وظرف لطيف الاطوار حسن الخلق متواضعا للكنيسة ومحافظا على حفظ دعائم الدين وشعائره وازداد تعجبهم حين اصلح بين الامراء ودولهم واظهر فى هذا الشان من العدالة والانصاف والملاطفة وعدم الغرض ما لم يكن يؤمل فيه حيث كانت تلك الدول اذذاك أسيرة بطشه ولو شاء لفتك بها

وحين سافر شرلكان من بلاد اسبانيا لم يكن فى نيته أن يفعل هذه الاشياء

فى ٥ تشرين الثانى

مطلب
ملاطفة الايمبراطور واسبابها

سنة ١٥٢٩

العجيبة التى لا تنشأ الا عن كل نفس منزهة عن الطمع بل كان يظهر منه انه مصمم على اغتنام كل فائدة والتقاط كل ثمرة تيسرت له بسبب ما ثبت له فى ايطاليا من الظفر والنصرة ولكن ظهر له عدة مقتضيات حملته على العدول عما كان مصمما عليه وذلك أن السلطان سليمان كان قد انتقل من بلاد المجار الى بلاد الاسترسيا ووضع الحصار أمام مدينة بج ومعه جيش يبلغ عدده مائة وخمسين الفا فرأى الايمبراطور انه يجب عليه أن يجمع قواه وعساكره حتى يقدر على مقاومة جيوش الاسلام التى كانت كسيل العرم لا يمكن رده ولا تحويله نعم ان السلطان سليمان لخيانة وزيره وشجاعة الالمانيين وحزم الامير فرديننداكانت تلجئه الضرورة الى رفع الحصار والعدول عن مشروعه على وجه يزرى بشهرته و يضر بمصالحه ومع ذلك كان حضور الايمبراطور ببلاد المانيا مما لا بد منه لاجل ازالة التعكيرات التى كانت حاصلة فيها بسبب المجادلات والمنازعات الدينية * وكان اهل فلورنسة لم يرضوا باعادة دوميديسيس حسبما تعهد به الايمبراطور فى مشارطة برسلونة فتأهبوا لان يدافعوا عن حريتهم بالسلاح وكان قد جهز موادّ كثيرة لسفره وبذل فيها مصاريف زائدة عن حدّ العادة وكانت مصالحه اذ ذاك جسيمة وايراداته قليلة فاضطرّ الى تضييق دائرة مشروعاته الواسعة التى كان عازما عليها وترك جلب مصالح محققة مجزوم بها لدرء مفاسد لا يمكن اجتنابها وان كانت بعيدة فلهذه الاسباب رأى الايمبراطور انه يجب عليه اظهار الملاطفة وعدم الطمع وقد احسن تدبير هذا الامر فاذن للامير سفورس أن يحضر بين يديه وعفا عنه واغضى عما فرط منه وجعله حاكما على دوقية ميلان وزوجه بنت اخته اعنى بنت ملك دانيمارقة ورضى بأن ترد الى دوق فرارة سائر الاراضى التى كانت سلبت منه وانهى المنازعات التى كانت حاصلة بين هذا الدوق والبابا وسلك فى ذلك سبيل العدل والانصاف وان لم يسر البابا بذلك واصطلح ايضا مع اهل البنادقة على أن يردوا سائر ما تغلبوا عليه فى الحرب الاخير من مملكة نابلى وبلاد البابا وفى مقابلة هذه

١٣ من شهر ايلول

١٦ من شهر تشرين الاول

الانعامات

سنة ١٥٢٩

الانعامات الجزيلة طلب مبالغ جسيمة من سائر الدول التى تشارط معها حينئذ فدفعت له تلك المبالغ بدون توقف ولا مهلة فامكنه بذلك أن يسافر الى بلاد المانيا مع الابهة والاحتفال اللائق بمقامه

سنة ١٥٣٠

مطلب
تنصيب عائلة ميديسيس ثانيا فى فلورنسة

وبهذه المشارطات تم الصلح لبلاد ايطاليا بعد حرب طويل كان معظم مشاقه عليها واشتهرت تلك المشارطات فى احتفال عام بمدينة بولونيا فى اول يوم من سنة ١٥٣٠ ودخل بها على كافة الناس الفرح والسرور وشكروا فضل الامبراطور واثنوا عليه الثناء الجميل فى تظير كرمه وحلمه حيث انعم عليهم بالصلح الذى كان اقصى مرامهم وغاية بغيتهم منذ مدة مديدة ماعدا اهل فلورنسة فانهم لم يقاسموا غيرهم فى تلك المسرات لانهم لغيرتهم على حريتهم كانوا لا يتبصرون فى العواقب فصمموا على مناقضة الامبراطور فى تنصيب عائلة ميديسيس ثانيا فى بلادهم فوجه الامبراطور جيشه اليهم ووضع الحصار امام تختهم فتخلى عنهم احزابهم وحلفاؤهم وصاروا لا ينتظرون اعانة من احد ومع ذلك مكثوا عدة اشهر وهم يدافعون عن انفسهم ويقاومون اعداءهم حق المقاومة ثم سلموا على شروط املوا بها بقاء بعض آثار من حريتهم ولكن كان الامبراطور نصيرا للبابا وظهيرا لعائلته التى هى عائلة ميديسيس فخيب آمالهم ومحا صورة حكومتهم القديمة وقلد اسكندر ميديسيس بالشوكة المطلقة التى كانت ثابتة لعائلته الى ذلك الوقت فى بلاد فلورنسة

وقتل فى المحاصرة سر عسكر الامبراطور وهو امير دورنجة وكان اسمه فيليبير دوشالون وبموته انتقلت املاكه والقابه الى اخته قلود دوشالون التى تزوجها الامير رينة قونتة ناسو واتت منه باولاد نقلوا لقب امير دورنجة الى عائلته فصار لهذا اللقب من ذلك الوقت شهرة عظيمة

مطلب
حالة المصالح المدنية والدينية فى بلاد المانيا فى ٢٢ و ٢٤ من شهر اشباط

وبعد اشهار الصلح فى بولونيا وتلقيب الامبراطور فى محفل عام عظيم ملكا على اللنبردية وامبراطور الرومانيين لم يبق داع للامبراطور يحمله على المكث ببلاد ايطاليا فعزم على السفر الى بلاد المانيا لان حضوره بها كان لازما ضروريا وذلك أن النصارى القاثوليقيين واحزاب المذهب الجديد (مذهب

سنة ١٥٣٠

لوتير) كانوا يلحون عليه كل الالحاح ويدعونه الى الحضور لديهم وكان قد امكن لاحزاب المذهب الجديد أن ينشروه ويوسعوا دائرته مدة غيبة الايمبراطور ونزاعه مع البابا وحربه مع مملكة فرانسا لانهم كانوا فى تلك المدة الطويلة لا يجدون من يعارضهم و يعكر عليهم حتى ان اغلب الامراء الذين اتبعوا مذهب «لوتير» لم يكتفوا بادخال العبادة والديانة الجديدة فى بلادهم بل هجروا رسوم الكنيسة الرومانية وابطلوها بالكلية ونسج على منوالهم عدة من المدائن الحرة حتى شوهد أن نصف الجمعية الجرمانية قد انفصل بالكلية عن الكنيسة وفى البلاد التى لم تخرج عن طاعة الكنيسة كانت شوكة البابا قد ضعفت وتناقصت وضاع احترامه من قلوب اهلها وذلك اما لكونهم اقتدوا بما حصل من غيرهم فى الدول المجاورة لهم اولان الدين الجديد كان قد نشأ فى بلادهم سرا اواخذ يهدم اساس الدين القديم خفية * ومع أن الايمبراطور كان فرحا بتلك الحوادث لانها كانت تشغل البابا وتوقعه فى الارتباك مدة مشاجرته وحربه معه رأى أن عاقبتها تضر بالشوكة الايمبراطورية وذلك انه لضعف سلفه من الايمبراطرة كان قد تجاسر على اتباعهم بالافتيات على حقوقهم ومزاياهم حتى ان شرلكان مدة حربه الطويل الصعب لم يأت له من بلاد المانيا امداد يعتمد عليه ولم يجد فى المنصب الايمبراطورى الا مجرد ادعاآت قديمة والقاب لا جدوى لها الا الابهة والغرور فرأى انه ان لم يثبت لنفسه بعض المزايا والخصوصيات التى سلبت سابقا من التاج الايمبراطورى لضعف اربابه من الايمبراطرة السالفين وبقى ملقبا برئيس الايمبراطورية من غير أن تكون له الصولة اللازمة لهذا المنصب العظيم اوقعه هذا المنصب فى مقاصد عظيمة ومشروعات جسيمة لا يستطيع تنجيزها * ورأى أن اشد الاشياء لزوما له حتى يدرك هذا الغرض هو أن يبادر بازالة تلك المذاهب الجديدة لانه ربما ترتب عليها بين امراء الايمبراطورية عصبة مهولة قوية الاسباب بحيث لا يمكن نقضها ورأى ايضا أن اكثر الاشياء صلاحية لتنفيذ هذا الغرض هو أن يدافع عن الدين القديم لانه هو حامى حماه بالطبع وذلك يكسب

شوكته

سنة ١٥٣٠

مطلب
مشورة الدينية المنعقدة بمدينة سبيرة فى ١٥ من شهر ادارسنة ١٥٢٩

شوكته الداخلية مايرجوه من العظم والقوة

فبناء على ذلك امر بمجرد شروعه فى الصلح مع البابا أن تعقد مشورة الدينية الايمبراطورية فى مدينة سبيرة لتتذاكر فى امر الدين وما كان عليه اذ ذاك وكانت مشورة الدينية التى انعقدت سنة ١٥٢٩ قد اباحت مذهب لوتير فغضب من ذلك سائر النصارى وان كان الحكم بغير ذلك فى شأن هذا المذهب واحزابه مما يستلزم مزيد الحزم والاحتراس حيث كانت العقول اذ ذاك فى اضطراب عظيم بسبب المجادلات الدينية التى كانت موجودة منذ اثنتى عشرة سنة وهى لا تخمد نيرانها ولا تفتر لاحد من الفريقين المتجادلين همة فى شأنها فكانت وقتئذ قد بلغت غاية الشدة والحمية وكان الناس قد عظمت جسارتهم وتعودوا على اتباع البدع بسبب ماشاهدوه من النجاح فى عدة مشروعات تجددت فى عصرهم فكانت الاهالى قد ابطلت العبادة القديمة وبدلتها بعبادة جديدة وازداد بغضهم للعبادة القديمة بسبب محبتهم للعبادة التى تمسكوا بها وكان من داب لوتير أنه لا يضجر من مقاومة اعدائه ولا من طول عنادهم بل كان يستسهل كل صعب ليفوز بالمرام * ولا يزال يصمى العدو بسهام الانتقام * لا تفتر له همة * ولا تعوقه الموانع وان كانت جمة * وكان معظم اصحابه مثله حمية وعزما * بل كان بعضهم يفضله معرفة وحزما * فلم يكونوا دونه فى الاقتدار على ادامة الجدال * بل قاسوا اهوال هذا المجال * هذا وكان عدة من اللاييك بل وبعض الامراء لمباشرتهم لهذه المجادلات قد تعودوا على المناقشة فى براهين الفريقين حتى كان يرجع الاختلاف اليهم فى الحكم فوقفوا بذلك على حقائق المسائل المختلف فيها وامكنهم أن يناقشوها ويتعقبوها واحسنوا الجولان فى ميدان المشكلات السكولاستيكية والمعضلات التيولوجيكية ولاشك أنه مع وجود تلك المقتضيات لو حكمت الدينية فى شأن مذهب لوتير واحزابه بغير ماسبق لنفر الناس من بعضهم وقامت بينهم فتن ربما اضرمت نيران حرب دينى ببلاد المانيا فمن ثم اقتصر الارشدوق وغيره من رسل الايمبراطور على أن طلبوا من مشورة الدينية

سنة ١٥٣٠

أن تأمر دول الامبراطورية التى كانت الى ذلك الوقت تعمل بمقتضى الامر بمخالفة لوتير الصادر من مشورة الديتة المنعقدة فى مدينة ورمس سنة ١٥٢٤ بالاستمرار على العمل بمقتضى هذا الامر وأن تأمر الدول الاخرى بانها من الآن فصاعدا لا تحدث شيأ فى الدين ولا تهجر القداس اى الصلاة قبل انعقاد مشورة قسيسية عامة للمذاكرة فى هذا الشان فبعد منازعات كثيرة اقر جمهور الديتة هذا الامر وحكموا باجرائه

مطلب
مناقضة اتباع لوتير لهذا الامر فى ١٩ من شهر نيسان

فناقض فى هذا الامر منتخب سكس وملتزم برندبورغ وحاكم هيسة ودوقات لونبورغ وامير انهالت ورسل المدائن الحرة والامبراطورية وكانت اربع عشرة (وهى مدينة استراسبورغ ومدينة نورمبرغ ومدينة اولم ومدينة قوستنسة ومدينة روتلنجان ومدينة وندسهيم *وميمنونجان* ولاندو* وكامتان * وهلبرون* واسنه* ومدينة ويسمبورغ *ونوردلنجان *وسنتغالة*) واظهر واجميعا المخالفة وصمموا عليها قائلين ان هذا الامر محض اعتساف خارج عن العدل والانصاف واعتزلوا غيرهم فسموا بالبروتستانية اى المعتزلة وقد اشتهرت هذه التسمية فيما بعد وصارت من شعار الشرف حين صار هذا اللفظ يطلق على كل من انفصل عن دين الكنيسة الرومانية واتبع غير مذهبها ولم يقتصر المعتزلة على ذلك بل بعثوا رسلهم الى بلاد ايطاليا ليرفعوا اشكواهم الى الامبراطور فلم يحسن ملاقاتهم واظهر لهم من عدم الاعتناء ما كدر خواطرهم وفترت به هممهم حيث كان مع البابا وقتئذ على غاية من الاتحاد والالتئام فكان لا يبحث الا عما يستميل البابا اليه حتى يعينه فى مصالحه وقد وقعت بينهما المذاكرة مدة اقامتهما معا بمدينة بولونيا بايطاليا فى شأن ما يكون به معالجة الاعتزال واستئصال هذا الداء العضال من بلاد المانيا * ومن المعلوم أن البابات كانوا يخشون باس الجمعيات القسيسية العامة فلذا كانوا يتنحون عنها مهما امكن و يحاذرون انعقادها وكان البابا كليمان خوافا ضعيفا بالطبع فكان اشدهم خشية منها فبمجرد سماعه لطلب انعقادها ارتعدت

فرائصه وامتلأ فزعا ورعبا وصار يبدى للامبراطور جميع ماتسوّله له نفسه في منعه عن الاقدام على هذا الغرض فوصف له تلك الجمعيات بانها ليست الامنشأ العصب والفتن وانها وحشية لايستطيع احد أن يسوسها وانها متجاوزة الحد في الكبر والعتوّ وارباها ملتئمون بعضهم غاية الالتئام فيخشى منها على شوكة الملوك وانها اذا ابطئ في امورها فلاتسعف بدواء هذا الداء الذى يلزم الاسراع بمعالجته وقال له ان التجربة قد افادتنا أن الحلم لايزجر المبتدعين بل يقوى قلوبهم فيلزم أن يسلك معهم مسلك الجهل والجبر حتى يسلم الدين من الخطر الذى هو عرضة له وأن يشدد في اجراء حكم الحرمان والطرد الصادر من البابا ليون العاشر واجراء الامر الصادر من مشورة الدييتة المنعقدة بمدينة ورمس وقال ان ذلك من واجبات الامبراطور فيحق عليه أن يوجه صولته النافذة لقمع العاصين الذين هتكوا حرمة الشوكة القسيسية والشوكة الملوكية ولكن كانت مآرب الامبراطور غير مآرب البابا فكان يرى أن الداء قد تمكن وصار عضالا فلم يستحسن الاكونه يسلك مسلك الرفق واللين في رد المعتزلة عن ابتداعهم وعقائدهم المخالفة للدين ورأى أن انعقاد مشورة قسيسية عامة من الوسايط الصالحة لبلوغ مرامه غير أنه وعد البابا بانه ان لم ينفع سلوك طريق الرفق والملاطفة يسلك مسلك القسر والجبر ويقمع بشديد بطشه وبأسه كل عدو ابتغى غير الدين القاثوليقى

مطلب
المذكرة التى حصلت بين الامبراطور والبابا

ثم سافر الامبراطور من ايطاليا الى بلاد المانيا مصرا على ذلك بعد أن عين مدينة اوكسبورغ لانعقاد مشورة الدييتة وفى اثناء سفره تحقق من آراء اهل المانيا فى شأن المسائل الخلافية بين المعتزلة وكنيسة رومة فظهر له أن عقائد المعتزلة قد انطبعت فى عقول الناس وتمكنت من قلوبهم بحيث لايسوغ له باى وجه كان أن يسلك معهم مسلك الجبر والقوة الابعد سلوك طرق اللين والملاطفة حتى ييأس ثم دخل مدينة اوكسبورغ فى احتفال عظيم وابهة عجيبة فوجدبها مشورة الدييتة منعقدة وهى لهيبة اربابها وجلالة قدرهم وكثرتهم فى ابهة ورونق يعادل اهمية المصالح التى هى منعقدة

مطلب
حضور الامبراطور فى مشورة الدييتة المنعقدة بمدينة اوكسبورغ فى ٢٢ من شهر ادار سنة ١٥٣٠
١٥ من شهر حيزران

سنة ١٥٣٠

المذاكرة فى شأنها وكان لهم مقصد آخر بعقد هذا وهو زيادة رونق احتفال الايمبراطور حيث انه بعد غيبته مدة مستطيلة عن بلاد المانيا رجع اليها يرفل فى ثياب السعادة والفخر والسيادة وربما قيل ان حضور الايمبراطور لديهم انزل السكينة فى قلوب المتشاحنين حتى صاروا مستعدين للصلح وابطال النزاع فلم يأذن منتخب سكس الى لوتير أن يصحبه فى الحضور الى تلك المشورة خوفا من غضب الايمبراطور اذا رآه لانه كان محكوما عليه بالحرمان من طرف البابا وكان سببا فى الفشل والشقاق الذى كان حاصلا اذ ذاك فى الايمبراطورية وغيرها *وقد حصل ايضا أن سائر الامراء المعتزلة اجابة لامر الايمبراطور منعوا علماء اللاهوت أن يعظوا الملأ باتباع الدين الجديد مادام الايمبراطور بمدينة اوكسبورغ *ولهذا السبب انتخبوا من بينهم الشهير ميلختون واناطوه بأن يحرر صورة عقائدهم الدينية على وجه حسن و يفرغها فى قالب مستحسن حسب الامكان حتى لا تغيظ القاثوليقيين اى المتمسكين بدين الكنيسة الرومانية وشرطوا عليه أن لا يكتم الحق وانما خصوه بذلك لانه مع فوقانه عليهم فى العلم كان احسنهم خلقا واكثرهم سكينة حتى انه فى تآليفه الجدالية كان لا يتعدى حدود الأدب فتكفل بهذا الغرض الملايم لطبعه ووفى به حق التوفية فحرر تلك الصورة المسماة بعقائد اوكسبورغ لانها عرضت على مشورة الدينية بهذه المدينة وقرئت امام اربابها فانيط بعض علماء اللاهوت القاثوليقيين بالبحث فيها فوقعت المناقشة بين الفريقين واشتد الجدال بينهم وبين ميلختون و بعض علماء من اصحابه و بعد المناقشات الطويلة والمجادلات رضى ميلختون أن يهذب بعض مواد من هذه الصورة وأن يتساهل فى بعض مسائل اخرى واولها كلها تأويلا لا تغيظ القاثوليقيين و بذل الايمبراطور جميع جهده فى الاصلاح بين الفريقين ومع ذلك ظهر أن الاسباب الموجبة للفشل والشقاق بين الدينين مازالت قوية اكيدة بحيث لا يرجى تأليف بين قلوب الحزبين

مطلب
عقائد اوكسبورغ

فلما رأى الايمبراطور أنه لا يمكنه افحام علماء اللاهوت وجه خطابه الى الامراء

الذين

سنة ١٥٣٠

الذين كانوا يدافعون عنهم وكان هؤلاء الامراء يرغبون فى الاصلاح بين الفريقين خصوصا لاجل رضاء الايمبراطور حيث كان ذلك مرغوبه ومع ذلك وجد الايمبراطور أن هؤلاء الامراء متمكنون من عقائدهم ومذاهبهم كالعلماء فلا يمكن تحويلهم عنها وكانت العقول اذذاك فى شأن الدين مضطربة اضطرابا بحيث لا يستطاع تصوره فى ذلك العصر وذلك لان شغف الناس بمعرفة الحقيقة وبالحرية تناقص ولم يبق على صورته الاولى فكانت الحمية اذذاك عظيمة جدا بحيث كانت تظهر على المصالح السياسية التى هى عادة مطمح نظر الامراء والملوك كيف لا ومنتخب سكس وحاكم هيسه وغيرهما من رؤساء المعتزلة ابوا جميعا أن يتركوا لقصد متاع الحياة الدنيا ما هو عندهم عين الحقيقة والصواب ويعدونه من حقوق الملك الوهاب واظهروا فى ذلك همة عجيبة جديرة بأن تكون اسوة يقتدى بها الجميع مع ترجى الايمبراطور لكل واحد منهم على حدته واستمالتهم بالمواعيد وترغيبهم بمصالح سياسية كانوا يرغبون فى نيلها كل الرغبة

مطلب
الفرمان الصعب الصادر فى حق المعتزلة

١٩ من شهر تشرين الثانى

فلما وجد الايمبراطور أنه لا سبيل الى استعطاف المعتزلة او ايقاع الشقاق بينهم بالرفق واللين رأى أنه لم يبق لذلك وسيلة الا أن يسلك معهم مسلك الباس والقوة ليمانع عن دين الكنيسة الرومانية ويعضد مذاهبها هذا وكان كمبيجة نائب البابا لم يزل يبرهن للايمبراطور على أن غير القوة لا ينفع مع هؤلاء الرافضة المعاندين فخضعت مشورة الدينة الى الحاحه وابرامه وصدر منها فرمان بتخطئة اغلب مذاهب المعتزلة والنهى عن محاماة من يعظ بها ويدعو الناس اليها وبالزام الناس بالتمسك بالدين القديم والتنحى عن الدين المبتدع وكل من خالف ذلك عوقب بعقوبات شديدة مبينة هنالك وكان يجب على كل انسان من ارباب المشاور والمناصب أن يبذل نفسه وماله ليعين على اجراء ما فى هذا الفرمان وتنفيذه وكل من لا يعمل بمقتضاه يحكم عليه بانه لا يصلح لمنصب القضاء او المشورة الايمبراطورية التى كانت اذذاك اعلى دواوين الايمبراطورية الالمانية وذكر فى هذا الفرمان أن البابا بعد ستة اشهر يجمع مشورة قسيسية

سنة ١٥٣٠

عامة لتثبت امر المشاجرة فى الدين

فادرك المعتزلة من هذا الفرمان الصعب الفزع والخوف وعدوه فاتحة لاساءتهم وانمرارهم اشد الضرر وايقنوا أن الايمبراطور قد صمم على تدميرهم فلما صارت احزاب المعتزلة عرضة للاهوال والاخطار فترت همة العالم ميلنختون لاسيما وكان ضعيف العزم بالطبع وتلاشت قوته واضمحلت عزيمته حتى كأن مشروعهم صار ميؤسا منه لا يرجى له نجاح ولا فلاح واخذ يتأسف و يتندم الاأن لوتير مدة انعقاد مشورة الدينة كان لم يزل يعضد حزبه و يقوى عزمه بعدة تآليف اذاعها بين الناس ولم يحصل له ادنى فزع من صدور الفرمان السابق فقوى ثانيا عزم ميلنختون وبعض افراد اخرين من اصحابه كانوا ايضا قد فترت همتهم وارتعدت فرائصهم * وحرّض الامرآء على أن لا يهملوا مذاهب المعتزلة التى هى عين الحقيقة والصواب اذ لا يليق ذلك بهم بعد أن مكثوا مدة وهم يدافعون عنها مع الثبات والعزم الجدير بالمدح والثناء فاثر وعظه فيهم تأثيرا عظيما وغلب ذلك على ما بلغهم فى اثناء هذه المدة من أن الامراء القاثوليقيين قد تعصبوا وتحزبوا مع بعضهم ليعضدوا الدين القديم وأن الايمبراطور من جملة ارباب هذه العصبة فرأوا أنه يجب عليهم أن يحترسوا كل الاحتراس ليكونوا فى أمن من اخصامهم ورأوا أن كلا من امنهم ونجاح قضيتهم موقوف على التئامهم واتحادهم مع بعضهم ولما كانوا يخشون بأس عصبة القاثوليقيين وكانوا مصممين على ما استحسنوا سلوكه فى هذا المعنى اجتمعوا بمدينة سمالكالد وعقدوا بها عصبة لمدافعة من يتعدى عليهم وصارت جميع الممالك المعتزلة فى الايمبراطورية بموجب هذه العصبة حزبا واحدا واتحدت مع بعضها كل الاتحاد وعزموا على أن يكتبوا الى ملكى فرانسا وانكلترة ليستعينوا بهما ويدعوهما الى تعضيد عصبتهم الجديدة

مطلب
عصبة المعتزلة المنعقدة بمدينة سمالكالد

٢٢ من شهر كانون الاول

وقد حصلت حادثة لا تخص الدين فى شئ فتعللوا بها فى الاستعانة بالملوك الاجانب وتلك الحادثة هى أن الايمبراطور شرلكان لما كان طمعه يزيد بزيادة عظمه وشوكته اراد أن يجعل التاج الايمبراطورى وراثيا فى عائلته

مطلب
عرض الايمبراطور أن يجعل اخاه ملكا على الروماتيين

سنة ١٥٣٠

فسعى فى جعل اخيه فردينند ملكا على الرومانيين وكانت مقتضيات الاحوال اذذاك مساعدة على تنجيز هذا الغرض وذلك أن النصر دائما كان حليف اسلحته فانه فى الصلح الاخير صار له صولة عظيمة على سائر بلاد الافرنج حتى لم يبق له فيها من يقاومه او يعطل نجاح اسلحته فكانت له هيبة عظيمة عند الامراء المنتخبين بسبب نجاحه ونصرته وازدياد شوكته وصولته فكانوا لا يستطيعون الاقدام على مخالفة هذا الملك الذى كان التماسه للشئ الزاما به على أنه كان يبدى اسبابا مقبولة اعانته على بلوغ مرامه فكان يفيد أن مصالح ممالكه الاخرى توجب غيبته فى اغلب الاوقات عن بلاد المانيا وأنه يجب أن يكون فيها على الدوام ملك ذو حزم وتدبير ليزيل ما بها من الاختلال الناشئ عن المشاجرات الدينية ويكون بمكان من الشجاعة وعنده من العساكر ما تصير به الامبراطورية آمنة من الدولة العثمانية التى هى قريبة منها وتخشى من اغارة جيوشها عليها فى كل وقت حيث لا تدخل فى مملكة الا وتظفر بها وتخربها وكان اخوه فردينند جامعا لتلك الصفات لا يفوقه فيها غيره وكان لطول مكثه ببلاد المانيا قد وقف على حقيقة احوالها وتمكن من طباع اهلها واخلاقهم وكان قد عاين منشأ المشاجرات الدينية وزاولها من مبدئها فكان اعلم من غيره بدوائها وادرى باسهل الطرق فى علاجها وبالجملة فكانت دوله متصلة بضواحى الدولة العثمانية فهو الاحرى بمدافعة جيوش تلك الدولة عن بلاد المانيا فاذا جعل ملكا على الرومانيين وافقت مصلحته ما يجب عليه من معارضة جيوش الاسلام اذا ارادوا الاغارة على ممالك النصارى

سنة ١٥٣١

مطلب
معارضة المعتزلة فى جعله ملكا على الرومانيين

ولكن المعتزلة لم يقبلوا هذه الاسباب لانهم عرفوا بالتجربة أنه لم يساعدهم على نشر مذاهبهم الا الفترة التى مضت بعد موت الامبراطور مكسيمليان وطول غيبة شرلكان عن الامبراطورية والتراخى فى تدبير مصالحها بسبب هذين الامرين فكان لهم مصلحة عظيمة فى الفترة ويخشون أن يولى عليهم ملك عقب الملك الاول بلا تراخ وادركوا مطامع شرلكان فى هذا المعنى وعرفوا

سنة ١٥٣١

ان قصده هو أن يجعل التاج الامبراطورى وراثيا فى عائلته وأن يصير له فى الامبراطور يه شوكة مطلقة لم تثبت لغيره من امبراطرة المانيا مع السهولة فصمموا على أن يعارضوا كل المعارضة فى تولية فرديننده حتى يقتدى بهم ابناء وطنهم ولا يرضون بهذا الامر الذى يضر بحريتهم فابى الامير منتخب سكس أن يحضر مشورة المنتخبين التى عقدها الامبراطور بمدينة كولونيا بل ارسل ابنه البكرى وامره أن يناقض فى انتخاب فرديننده ويبدى أن ذلك مخالف للقوانين والرسوم والبنود المذكورة فى فرمان الذهب حيث انه يؤدى الى ازالة حرية الامبراطورية ولكن كان الامبراطور قد استمال بقية المنتخبين وان كان ذلك مع المشقة والصعوبة التامة فلم يعبأوا بعدم حضور منتخب سكس ولم يلتفتوا الى مناقضة ابنه بل جعلوا فرديننده ملكا على الرومانيين ولبس التاج بعد ذلك بايام فى مدينة اكسيلاشبيلا

٥ من شهر كانون الثانى

مطلب
انتخاب فرديننده وتوليته

وكان المعتزلة قد اجتمعوا ثانيا بمدينة سمالكالد فبلغهم خبر هذا الانتخاب وبلغهم ايضا أن الديوان الامبراطورى شرع فى تدبير امور سياسية فى شأن اصولهم وعقائدهم الزائغة فرأوا انه يلزمهم تجديد عهود عصبتهم الاولى وتأكيدها وأن يبعثوا رسلهم الى مملكتى فرانسا وانكلترة ليكونا فى حزبهم وكان الملك فرنسيس قد قامت به غيرة عظيمة من الشهرة التى اكتسبها الامبراطور بعدله الذى تباهى به فى الاصلاح بين دول ايطاليا كما تقدم وحصل له ايضا غيظ عظيم حين بلغه تولية اخيه ملكا على الرومانيين وازداد تحيره وقلقه من نجاح الامبراطور فى هذا الامر الذى به يدوم حكمه ببلاد المانيا ويعظم بطشه وبأسه لكنه رأى من عدم الصواب أن يوقع ملته فى حرب جديد مع ضعف قواها فى الحروب السابقة وفتور همتها فى وقائع عديدة لاسيما ان شرع فى الحرب قبل أن تجمع قواها وتنسى ما حصل لها من الخسارة وما حل بها من المصائب والاهوال ومن جهة اخرى كان لا يمكنه نقض مشارطة الصلح التى كان قد طلبها بنفسه من الامبراطور ورأى انه بذلك يكون عرضة للسقوط من اعين الناس ويضيع احترامه واعتباره

مطلب
مداولات المعتزلة مع مملكة فرانسا
١٩ من شهر شباط

سنة ١٥٣١

فى بلاد اوروبا ويشتهر بانه لاشرف له ولاعرض وانما انشرح صدره حين رأى فى بلاد اوروبا احزابا قوية ذات شوكة وصولة تتعصب على خصمه شرلكان فكان يصغى لمن يشتكى اليه من امراء المعتزلة ولم يظهر منه مايكون به تأييد مذاهبهم الجديدة ومع ذلك كان يضرم سرّا نيران الفتن السياسية ليمكن بينهم وبين الايمبراطور اسباب التفاقم والشقاق فارسل لهذا الغرض الى بلاد المانيا الشهير غليوم دوبلى وكان من امهر ارباب المداولات والمدبرين فى مملكة فرانسا فذهب الى دواوين الامراء المغتاظين من الايمبراطور وداهنهم حتى ازداد غيظهم من شرلكان وعقد معهم معاهدة باسم سيده الملك فرنسيس ومكثت هذه المعاهدة خفية لم يترتب عليها ثمرة فى ذلك الوقت الا انها كانت سببا فى الارتباط والاتحاد الذى حصل بين ملك فرانسا وهؤلاء الامراء وكان فى الغالب خطرا على الايمبراطور حيث علم به امراء المانيا المغتاظون الجهة التى يجدون بها نصيرا قوى الشوكة والبطش يستغيثون به من الايمبراطور عند الضرورة والحاجة

مطلب
مداولة المعتزلة مع ملك انكلترة

وكان ملك انكلترة فى غيظ عظيم من الايمبراطور شرلكان لانه كان يعلم أن البابا انما اخر الحكم بطلاق زوجته ومكث مدة طويلة وهو يداهنه ثم رده بالكلية وعارضه فى صحة الطلاق لكون الايمبراطور اغراه على ذلك فكان مستعدا لان يعضد تلك العصبة التى كان من الممكن أن تصير فى العواقب مهولة على الايمبراطور غير أن طلاق زوجته كان اجل مقاصده يومئذ فكان ملتفتا اليه قاطعا نظره عما عداه وزيادة على ذلك كان مشغولا بازالة ما كان للبابا فى مملكة انكلترة من نفوذ الكلمة فلم يكن فى وسعه أن يلتفت الى الامور الاجنبية اى الى المصالح التى تكون خارج مملكته فاقتصر على وعد امراء المانيا بمواعيد مجملة وانما امد الامراء المتعاهدين بمدينة سمالكالد بمبلغ يسير من الاموال

مطلب
مداهنة شرلكان للمعتزلة

ولكن كان الايمبراطور يرى أن الوقت حينئذ غير صالح لان يسلك فيه مسلك الشدة والعنف والانتقام فى قمع المعتزلة وردعهم عن الاعتزال وخروجهم عن دين الكنيسة

سنة ١٥٣١

وكان يرى أن مراعاته للبابا قد اضلته عن سبيل الصواب والرشاد واوقعته فيما لا يلايم السياسة ومقتضيات الاحوال اذذاك وأن مصلحته تقتضى أن يؤلف بين بلاد المانيا حتى تكون جمعية واحدة فتزداد قواها ويقوى عزمها الا أن يوقع فيها الشقاق والتفاقم ويضعفها بالفتن والحروب المدنية وكان المعتزلة اذذاك قد تكاثروا وازدادت حميتهم وصار يخشى باسهم لاسيما بعد المعاهدة التى عقدوها مع بعضهم فى مدينة سمالكالد بسبب خوفهم وفزعهم من الامر الصعب الذى صدر فى شأنهم من مشورة الدينية المنعقدة بمدينة آوكسبورغ هذا ولازدياد شوكتهم وكثرة عدد احزابهم تقوت قلوبهم ولم يكترثوا بما حكم به ديوان الايمبراطور فى شأنهم حتى انهم لما ظهرت لهم الاعانه من طرف الدول الاجنبية تأهبوا الان يهتكوا حرمه الايمبراطور ان لم يرجع عن ايذائهم وكان صلح الايمبراطور مع مملكة فرانسا غير متين وكان الايمبراطور لا يعول على محبة البابا له لانه بالطبع خامل قليل العزم وله مصالح خصوصية لا يعدل عنها النفع غيره وكان يعلم ايضا أن السلطان سليمان كان مشغولا بتجهيز جيش عظيم يدخل به بلاد النمسا ليزيل به المعرة التى لحقته بانهزامه فى حربه الاخير كما سبق فكل هذه الاسباب لاسيما السبب الاخير منها حملت الايمبراطور على أن يصطلح مع الامراء المغتاظين اذ بدون ذلك لا يمكنه تنجيز مقاصده فى المستقبل ولا يكون فى الحال آمنا على نفسه فشرع فى المداولة مع الامير منتخب سكس واحزابه وكان هؤلاء الامراء يغارون من بعضهم كما كانوا مغتاظين من الايمبراطور فكثروا مدة طويلة وهم يتذاكرون فى هذا المعنى المتعلق بامر الدين كما هو العادة فى مثل ذلك لان امور الدين لا يمكن التساهل فيها كالاغراض السياسية ولكن بعد التوقف الكلى والنزاع التام انتهت المداولة وحصل الاتفاق بمدينة نورامبرغ على شروط الصلح وأقرت على رؤس الاشهاد بمشورة الدينية المنعقدة بمدينة راتسبونة وهذه الشروط هى أن يبقى الأمن العام فى بلاد المانيا حتى تجتمع مشورة قسيسية عامة يسعى الايمبراطور فى عقدها ويمهل لذلك ستة اشهر

مطلب
الشروط المنعقدة بين الايمبراطور والامراء المعتزلة فى ٢٣ من شهر تموز (٣ شهر آب)

سنة ١٥٣١

وأن لا يحصل لاحد ضرر فى شأن الدين وأن توقف الاحكام التى تصدر من ديوان الامبراطور فى شأن المعتزلة وأن جميع الاحكام التى صدرت قبل ذلك تكون ايضا موقوفة بدون اجراء حتى تنعقد تلك المشورة هذا من جهة الامبراطور واما المعتزلة فالتزموا أن يعينوه بما فى وسعهم على طرد جيوش الاسلام * فانظر كيف امكن للمعتزلة بثباتهم والتئامهم فى تعضيد دعواهم ومهارتهم فى توريط الامبراطور بمقتضيات الاحوال أن ينالوا شروطا كادت تكون اباحة لدينهم حيث تساهل لهم الامبراطور فى امور كثيرة وهم لم يتساهلوا له فى شئ حتى انه لم يتجاسر على أن يلتمس منهم اقرار تولية اخيه ملكا على الرومانيين مع أن هذا الامر كان اهم الامور عنده اذ ذاك ومن وقتئذ صار معتزلة المانيا اولى اعتبار عظيم وصار لهم كلمة نافذة كأنهم وجاق سياسى خطر معتبر مع أنهم قبل ذلك لم يكونوا الا طائفة معتزلة لا اعتبار لها

سنة ١٥٣٢

مطلب
الجهاد فى بلاد المجار

وبعد ذلك بقليل بلغ الامبراطور شرلكان أن السلطان سليمان دخل بلاد المجار مع جيش جرار يبلغ ثلاثمائة الف رجل فعجل بانهاء مذاكرات مشورة الدييتة التى كانت اذ ذاك منعقدة بمدينة راتسبونة وبين فيها مقادير العساكر والنقود التى يجب على كل امير أن يقوم بها لاجل المدافعة عن الامبراطورية وقد بذل المعتزلة فى هذا الامر غاية وسعهم مكافأة للامبراطور وتوفية بشكره والثناء عليه فامدوه بعساكر اكثر مما فرضه عليهم وتأسى بهم القاثوليقيون فاجتمع تحت اسوار مدينة ويانة جيش عظيم كان من اكبر وابهج الجيوش التى اجتمعت ببلاد المانيا الى ذلك الوقت فانضم اليه طائفة عظيمة من قدماء العساكر الاسبانية والايطالية يقودهم الملتزم دوغواست وانضم اليه ايضا عدة طوائف من الخيالة الثقيلة مجموعة من مملكة البلاد الواطية وانضم الى ذلك ايضا عساكر اخرى جمعها الملك فرديننd اخو الامبراطور من اقليم چه واقليم الاستروسيا وغيرهما من اقاليم بلاده فبلغ عدد هذا الجيش ثمانين الف رجل من المشاة

سنة ١٥٣٢

المنتظمة وثلاثين الفا من الفرسان ومقدارا آخر جسيما من العساكر الغير المنتظمة وكان هذا الجيش العظيم جديرا بأن يجعل عليه رئيس من اعظم ملوك النصارى فلذلك اراد الامبراطور أن يكون هو الرئيس عليه ومكثت بلاد اوروبا متشوفة غاية التشوف الى معرفة عاقبة هذا الحرب بين هذين الملكين اللذين هما اعظم ملوك عصرهما ولكن لما كان طالع كل منهما سعيدا وكانا بمكان من الشوكة والصولة سلكا مسلك الاحتراس من بعضهما وصار كل منهما يخشى الآخر حتى ان هذه الغزوة بعد التجهيزات العظيمة والاستعدادات الجسيمة لم يحصل فيها واقعة تذكر وذلك أن السلطان سليمان لما رأى انه لا يمكنه الظفر بالامبراطور حيث كان دائما متيقظا محترسا رجع الى القسطنطينية فى اواخر فصل الخريف ومما ينبغى التنبيه عليه هو أنه فى ذلك العصر وان كان كل من الاعيان عسكريا وكل ملك قائدا لم يقد الامبراطور عساكره الا هذه المرة وان كان قبلها قد حارب حروبا طويلة وانتصر نصرات جليلة ومع ذلك فكفاه فخرا كونه تصدى لمقاومة السلطان سليمان وحاز السودد والفخار بنجاحه فى هذا المشروع الخطر

شهر ايلول وشهر تشرين الاول

وفى اوائل هذه الغزوة مات منتخب سكس فخلفه ابنه الامير حنا فريدريق وبعد موته لم يحصل ضعف لمذهب لوتير بل اتسعت دائرته وحصل له التقدم والتمكين وذلك أن ابنه لم يكن دونه فى الميل الى هذا المذهب والتمسك به فانه لما خلفه حل محله بين المعتزلة وصار رئيس عصابتهم وكان فى عنفوان شبابه فجعل يدافع مع جسارة الشبان وحميتهم عن هذا الدين الجديد الذى كان آباؤه من قبله قد عضدوه وشيدوا دعائمه بما اورثته لهم التجربة من الحزم والتبصر

فى ١٦ من شهر اب

وكان الامبراطور متشوقا الى روية اسبانيا فبمجرد رجوع جيوش الاسلام الى القسطنطينية سافر اليها وجعل طريقه بلاد ايطاليا لانه كان يود مقابلة البابا فتقابلا فى مدينة بولونيا واظهرا لبعضهما من الاحترام والمحبة ما كانا ابدياه فى المقابلة الاولى غير أنهما لم يكونا اذ ذاك يا تمنان بعضهما

مطلب
مقابلة الامبراطور للبابا عند رجوعه الى بلاد اسبانيا

كما

سنة ١٥٣٢م

كما كانا عليه فى المرة الاولى بهذه المدينة وذلك أن البابا كليمان كان قد اغتاظ مما سلكه الامبراطور فى المشورة التى انعقدت بمدينة اوكسبورغ فانه لما رضى بعقد مشورة قسيسية عامة اضاع بذلك ما كان له عند البابا من المحبة بسبب الفرمان الصعب الذى كان صدر منه اولا فى حق المعتزلة وثم سبب آخر اغضب البابا اكثر من ذلك وهو أن مشورة الديتة المنعقدة بمدينة راتسبونة رخصت للمعتزلة فى مذاهبهم وأن الامبراطور التزم لهم بأنه سيطلب عن قريب عقد مشورة قسيسية عامة ومع ذلك فلما كان الامبراطور متيقنا أن المشورة القسيسية تكون عظيمة الجدوى وكان يود استعطاف قلوب اهل المانيا واستمالتهم اليه الح على البابا فى مدينة بولونيا أن ينجز ما كان قد طلبه منه وبعث اليه رسلا فى هذا الشان وطلب منه أن يسعى فورا فى جمع مشورة قسيسية فلحق البابا حيرة من هذا الطلب حيث كان لا يمكنه رده بوجه حسن ولا اجابته من غير أن يضر بنفسه فجعل اولا يبذل جهده فى تحويل الامبراطور عن هذا القصد فلما رأى أنه لا يحول عن ذلك اخذ يسلك معه مسالك التحيل والخداع ليفسد عليه هذا الغرض او يتراخى فيه حتى يتسع معه الوقت و يجمع امره فتعلل بأنه ينبغى اولا المذاكرة مع الفرق المتشاحنة فى شأن تعيين محل انعقاد المشورة وصورتها وتعيين من له الحق فى حضورها ودرجاتهم فى الآراء وبناء على ذلك اقام نائبا عن نفسه وارسله مع رسول من طرف الامبراطور الى الامير منتخب سكس لانه كان حينئذ رئيس المعتزلة فنشأ فى شأن كل من هذه الامور المذكورة منازعات ومجادلات شديدة فكان المعتزلة يريدون أن يكون انعقاد المشورة ببلاد المانيا وكان البابا يريد أن تنعقد ببلاد ايطاليا وكانوا يريدون أن يكون نص الكتاب المقدس هو الاساس فى انهاء كل قضية مختلف فيها وحل مشكلها وكان هو يريد أن يعول على كلام القسوس واحبار الكنيسة كما يعول على عبارات الكتاب المقدس وكانوا يريدون أن تكون المشورة القسيسية مطلقة فى ابداء الرأى بحيث يكون لكل من حضرها من علماء اللاهوت المبعوثين من سائر الكنائس حق فى ابداء رأيه بدون مانع

مطلب
ما حصل من المداولات فى شأن انعقاد مشورة قسيسية عامة

سنة ١٥٣٢

وكان هو يريد أن تكون تلك المشورة على صورة بحيث تكون تحت قبضته يتصرف فيها كيف يشاء وثم امر آخر كان المعتزلة يرغبون فيه اكثر من غيره وهو أنهم كانوا يدعون أن من عدم الصواب أن يلتزموا بالاذعان لاحكام المشورة القسيسية قبل أن يعرفوا مبنى هذه الاحكام ومن صدرت عنهم وكيفية العمل بها وكان البابا يقول انه لاثمرة لعقد المشورة القسيسية ان لم يلتزم المعتزلة باتباع مايصدر عنها من الاحكام لاسيما وهم الذين طلبوا انعقادها فعرضت عدة وسائط للاصلاح بين الفريقين فى هذا الغرض وطالت مدة المذاكرات والمداولات على وفق مرام كليمان حيث كان قصده بذلك كله أن يعوق انعقاد تلك المشورة من غير أن يجلب لنفسه اللوم بتصديه وحده الى المعارضة فى انعقاد هذه المشورة التى كان جميع الافرنج يرون أن فائدتها جليلة وانه لابد منها لمصلحة الكنيسة الرومانية

مطلب فى كون الايمبراطور كان له غرض آخر يستدعى المذاكرة وهو بقاء الامن والاطمئنان فى بلاد ايطاليا

وكان للايمبراطور غرض اخر أهم عنده من عقد المشورة القسيسية وهو ابقاء الامن والاطمئنان فى بلاد ايطاليا وذلك انه كان يعلم أن الملك فرنسيس كان لم يزل مترقبا الفرصة تلوح له فيستعين بها فى اخذ اراضيه التى اخذت منه فى بلاد ايطاليا وانه لم يتركها الا عن ازامنه فرأى الايمبراطور أنه يجب عليه أن يحترس كل الاحتراس ويجمع جيشا يكفى فى مقاومة عدوه عند الضرورة وحيث كانت خزائنه قد نفدت فى مصاريف الحرب الطويل الذى كان فعله قبل ذلك لم يمكنه أن يحصل المبالغ اللازمة لمصاريف هذا الجيش الذى عزم على جمعه فاراد أن يجعلها على معاهديه وحلفائه وأن يكلفهم بجلب الأمن فى دوله وبلاده فعرض على دول ايطاليا أن تعقد مع بعضها عصبة تذب عن ايطاليا من يتعدى عليها وأن تجمع لهذا الغرض جيشا تكون مصاريفه موزعة عليها ويكون سر عسكره الامير انطوان دوليوه فقبل ذلك البابا كليمان لكن كان له فيه مآرب اخرى حيث اراد بذلك انقاذ بلاد ايطاليا من العساكر الالمانية والاسبانيولية التى كانت فيها منذ زمن طويل تؤذى اهاليها وتهينهم كل الاهانة فكانت هذه البلاد

في ٢٤ من شهر اشباط

بسببهم باقية تحت حكم الايمبراطور * فاجيب الايمبراطور الى ما طلب وانعقدت العصبة ودخل فيها سائر دول ايطاليا ماعدا جمهورية البنادقة وعين المبلغ الذي يخص كلا من ارباب العصبة لمصاريف هذا الجيش وكان الايمبراطور لنفاد امواله اذ ذاك لا يمكنه أن يبقي العساكر الالمانية والاسبانيولية المذكورة لانها كانت مستخدمة عنده بالاجرة فرضي باخراجها من بلاد ايطاليا لاسيما وكان اهل هذه البلاد يبغضونها ويريدون خروجها من اراضيهم فسرّح الايمبراطور بعضها ووزع البعض الآخر في جزيرة صقلية وبلاد اسبانيا ثم ركب البحر على سفن الامير دورية ووصل الى مدينة برسلونة

في ٢٢ من شهر نيسان

مطلب
ماكان يقصده ملك فرانسا في شأن الايمبراطور

ومع هذه الوسائط التي احترس بها الايمبراطور لتاكيد الصلح في بلاد المانيا وابقاء مارتبه في شأن بلاد ايطاليا كان لم يزل موسوسا غير آمن ونفسه غير مطمئنة فكان يخشى من ملك فرانسا أن يفسد عليه مادبره بالحرب او بالفتن والدسائس وذلك لانه كان يعلم أن فرنسيس لم يرض بمشارطة كمبريه الاليأسه وشدة كربه حيث كانت تضر به وتزري بعرضه حتى انه عند اقرارها كان مصمما على عدم العمل بمقتضاها متى زالت الدواعي الملجئة له على العمل بها ومما يدل على ذلك انه اشهد سرا على انكاره لعدة بنود منها لاسيما البند المشتمل على تركه لدعواه في شأن دوقية ميلان فانه كان يرى أن هذا الامر من باب الظلم والاجحاف وأنه نقص في حق من يخلفه في التاج الملوكي فهو لاغ لا يعتد به وقد حصل حين تقييد اقرار المشارطة في برلمان مدينة باريس أن بعض علماء الاحكام صنع كما صنع فرنسيس في شأن تلك المشارطة وبالجملة فكانت احوال فرنسيس تقضي بانه قد اعتقد أنه بهذه الحيلة التي لا تليق بمقام الملوك حيث انها تؤدي الى عدم وثوق الناس ببعضهم وفسخ ما يقع بينهم من العقود تخلص مما التزم به بحيث صار لا لوم عليه في عدم الوفاء به فانه بمجرد تتميم مشارطة كمبريه جعل ينتظر فرصة تلوح له فيبادر بنقض هذه المشارطة فلهذا كان يسعى جهده في التودد الى ملك انكلترة وكان يزيد في عساكره ويحكم

سنة ١٥٣٢

مطلب
مداولة ملك فرانسا مع البابا لانضرار الايمبراطور

ضبطهم وربطهم وكان يبذل وسعه فى ايقاع الشقاق والتفاقم بين امراء المانيا والايمبراطور

وكان للملك فرنسيس رغبة تامة فى فسخ الالتئام الاكيد الذى كان بين الايمبراطور والبابا كليمان حتى حصل له غاية الفرح حين ظهر له من البابا مايدل على اشمئزاز نفسه من الايمبراطور واعتقد أن الالتئام بينهما لايدوم فقد كان البابا يحقد على الايمبراطور فى نظير كونه اعان دوق فرار ونصره عليه *فاخذ فرنسيس يحرض البابا ويوقع فى نفسه أن مافعله الايمبراطور من اعانة هذا الدوق عليه انما هو من باب الظلم الفاحش وافهمه أنه مستعد للدخول فى حزبه والمدافعة عنه ببطشه القوى بدون علة ولاغرض وكان البابا قد سئمت نفسه من الحاح الايمبراطور عليه بعقد المشورة القسيسية المتقدم ذكرها فعرف فرنسيس أن يجدد دعوى يؤخر بها انعقاد تلك المشورة وبذل جهده فى منع المتعاهدين معه من امراء المانيا عن الالحاح والتدقيق فى هذا الشان ولما كان من مقتضيات اعتبار الايمبراطور ومحبته عند البابا هو أن الايمبراطور كان قد اعلى مقام عائلته وهى عائلة ميديسيس ورفع شأنها سلك الملك فرنسيس هذا المسلك وعرض على البابا أنه يريد تزويج ابنه الثانى وهو الامير هنرى دوق اورليان بالاميرة كاترينة بنت الامير لورنط دوميديسيس وهو ابن عم البابا كليمان فلما وقف الايمبراطور على خبر هذا الزواج لم يصدق ان هذا الكلام صادر من فرنسيس على سبيل الجد والحقيقة حيث ان هذا الزواج فيه تدنيس عائلة فرانسا الملوكية لان كاترينة المذكورة كان اباؤها قبل ذلك بقليل من جملة آحاد الاهالى وكانوا من تجار فلورنسة بل اعتقد أن قصده بذلك انما هو مجرد مداهنة البابا ومخادعته ولكن رأى أنه يلزم تدارك هذا الامر لانه يغر البابا ويقع منه موقعا عظيما فوعد البابا بانه يفسخ النكاح المنعقد لدوق ميلان على بنت اخته من ملك دانيرقة ويعقد لهذا الدوق النكاح على الاميرة كاترينة المذكورة ولكن اظهر رسل ملك فرانسا أن سيدهم قد فوض لهم عقد النكاح على هذه الاميرة

لابنه

سنة ١٥٣٣

لابنه الامير هنرى دوق اورليان نخاب ماديره الامبراطور *واما البابا كليمان ففرح كل الفرح من هذه المصاهرة التى تتشرف بها عائلة ميديسيس ويزداد رونقها ويعلو شأنها حتى انه وعد أن يعطى كاترينة فى صداقها عدة اراض واسعة من بلاد ايطاليا بل ظهر منه الميل الى تعضيد ملك فرانسا فى دعواه فى شأن عدة ايالات من تلك البلاد ورضى أن يتقابل مع هذا الملك كما تقابل مع الامبراطور

مطلب مقابلة البابا مع الملك فرنسيس

وقد بذل الامبراطور شرلكان جهده فى منع هذه المقابلة حيث كانت مقتضيات الاحوال اذ ذاك تدل على أن عاقبتها تضر به وكان قبل ذلك قد ذهب بنفسه الى البابا مرتين فلحقه غم شديد حين رأى من البابا امرا غريبا وهو سفره بحرا فى فصل كثير المشاق يصعب السفر فيه لاجل مقابلة الملك فرنسيس فى مملكته لانه كان يود أن يعجل بعقد النكاح المتقدم لاغتراره بذلك وزالت عنه دواعى التكبر التى كان يمكن أن تمنعه عن فعل مثل ذلك فى صورة اخرى وتقابلا بمدينة مرسيليا فى محفل عجيب واظهر كل منهما لصاحبه

سنة ١٥٣٤

مزيد الاحترام والتبجيل التام وانعقد النكاح للامير هنرى دوق اورليان على الاميرة كاترينة بعد مشاق كثيرة وقد اضر هذا الزواج فيما بعد بمملكة فرانسا لان هذه الاميرة كانت بمكان من السياسة والطمع كما انه من مبدء الامر دنسها وازرى بعائلة ملوكها ثم ان البابا والملك فرنسيس اتفقا على عدة امور تخص دوق اورليان فتخلى له ابوه الملك فرنسيس عن حقوقه فى بلاد ايطاليا ولكن كان ذلك كله سرا حتى لا يقف الامبراطور على جلية خبره فيترح بالغضب ولذلك حصل الاتفاق بينهما مشافهة ولم تحرر بينهما مشارطة صريحة بل سطر فى ورقة النكاح أن الاميرة كاترينة تخلت عن حقوقها ودعواها فى بلاد ايطاليا ماعدا دوقية اوربان

مطلب ماسلكه البابا فى شان تطليق ملك انكلترة لزوجته

وفى مدة ماكانت المداولة حاصلة بين البابا كليمان والملك فرنسيس وكان البابا يجدد مع هذا الملك روابط المحبة التى اوقعت الوسوسة فى صدر الامبراطور شرلكان كان هذا الامبراطور يبذل جهده فيما يكون به تطليق

سنة ١٥٣٤

ملك انكلترة لزوجته وظهر منه أنه يود تنجيز هذا الغرض لملك انكلترة حتى كأنه من اعز احبابه واصدق اصحابه ولا حرم فى ذلك حيث ان المداهنة والمخادعة من طبع الايمبراطور * وكان الملك هنرى قبل ذلك بنحو ست سنوات يجد فى طلب هذا الطلاق والبابا يماطله ويداهنه بالمواعيد الباطلة ولا يبت له شيأ وربما يتعجب من كون هذا الملك مع حمية طبعه وسرعة غيظه مكث تلك المدة الطويلة وهو يتحمل مطل البابا وافعاله التى توجب السآمة ولكن لا داعى لهذا التعجب متى عرفت انه قد عيل صبره وضاق صدره حتى خاطب فى هذا الشان محكمة اخرى غير ديوان رومة فحكم المطران قرانمير بفسخ النكاح الواقع بينه وبين الملكة كارينة وأن البنت التى ولدت منه لا تلحق به شرعا بناء على حكمه بذلك على ما استوثق به من العلماء والاحبار والربانيين الذين عرضت عليهم هذه المسئلة واقترن نكاحه للاميرة اندوبولان التى كان يحبها ومن وقتئذ صار الملك هنرى لا يتملق للبابا ولا يظهر له المحبة والمودة واخذ فى اهماله وعدم الاعتناء به بل صار يهدده كل التهديد حتى انه هم بالانتصار لدين المعتزلة وان كان قبل ذلك يدافع عن الكنيسة بما فى وسعه وكان اذ ذاك قد خرج عن دين الكنيسة واتبع مذهب المعتزلة عدة اقاليم وممالك فخشى البابا أن تقتدى مملكة انكلترة بهذه الممالك وتتبع مذهب المعتزلة وكانت مصلحته تقتضى أن يحترس كل الاحتراس حتى يسلم من عاقبة هذه المصيبة فاضطر الى ارضاء خاطر الملك هنرى لكى لا يعدل عن سنن الكنيسة لاسيما وكان الملك فرنسيس يلح على هذا البابا أن يستعطف هنرى المذكور ويظهر له ما يستميل به قلبه ويترتب عليه رضاء خاطره حتى لا يخرج عن حزبه ولكن كان فى الكردينالات من يود الايمبراطور مودة صادقة فلم يدعوا البابا يفعل مع هنرى ما يسره ويرضى خاطره بل صرفوه عن هذا المشروع المبنى على الحزم والاصابة الى مشروع آخر مبنى على خلاف ذلك اضرت عواقبه بكنيسة رومة حيث الزموه بابراز فرمان ببطلان حكم قرانمير وصحة نكاح هنرى للاميرة كارينة وحرمان هذا الملك اى طرده عن

٢٣ من شهر ادار

الكنيسة

سنة ١٥٣٤

الكنيسة اذا لم يترك بعد اجل مسمى زوجته الجديدة وهى اندوبولان ويرجع الى زوجته كاترينة فغضب هنرى من هذا الفرمان ونقض ما كان بينه وبين ديوان رومة من العلائق والروابط وغضب لغضبه رعاياه وساعدوه وشدوا عضده فصدر من ديوان البرلمان الانكليزى امر بابطال احكام البابا واوامره فى مملكة انكلترة وصدر منه امر آخر بجعل الملك هنرى رئيس الكنيسة الانكليزية وتقليده بكل ما حرم منه البابا فى هذه المملكة فبمجرد ماضاع احترام البابا ودين الكنيسة من قلوب الاهالى انهدم فى اسرع وقت جميع ما تفنن فى تشييده القسوس حتى كان يظهر أنه على اساس متين ولكن لحق هنرى واوهامه الباطلة استمر على حماية دين الكنيسة الرومانية وبذل فى ذلك من الجهد ما كان يبذله فى ازالة شوكة البابا من مملكته وابطال احكامه المدنية منها فكان تارة يؤذى القاثوليقيين واخرى يؤذى المعتزلة فاما المعتزلة فكان يؤذيهم لكونهم رفضوا مذهب الكنيسة الرومانية واما القاثوليقيون فكان يؤذيهم لانهم كانوا يتبعون احكامها المدنية الغير الدينية ولكن بمجرد ماساغ للرعايا سلوك طريق جديد بادروا اليه وتوغلوا فيه ولم يستحسنوا أن يقفوا عند الحد الذى يعينه لهم الملك هنرى وذلك انهم لما تأسوا به فى الخروج عن بعض شعائر تلك الكنيسة صاروا يترقبون مع القلق فرصة ينتهزونها فى التخلص بالكلية من ربقة اسر الكنيسة الرومانية حتى ان بلاد انكلترة انفصلت فيما بعد بمجرد ظهور الفرصة عن كنيسة رومة فى امور الدين كما انفصلت عن احكامها المدنية والسياسية

مطلب
ابطال حكم البابا من مملكة انكلترة

ولو لم يعجل البابا كليمان بابراز الفرمان المتقدم فى شأن ملك انكلترة لكان من الجائز أن تسلم كنيسة رومة من تلك العواقب الشنيعة * وبعد صدور هذا الفرمان بمدة قليلة اصيب كليمان بداء السل فاخذت بنيته فى الضعف شيأ فشيأ حتى مات وانقضت حكومته الطويلة التى كانت لكثرة المصائب التى حلت بالكنيسة فى مدتها اقبح حكومة بين حكومات البابات الذين تولوا على ديوان رومة منذ عدة قرون * وبعد موته انعقدت مشورة

مطلب
موت البابا كليمان السابع

٢٥ من شهر ايلول

بسنة ١٥٣٤
مطلب
انتخاب البابا بولص الثالث
١٣ من تشرين الاول

الكردينالات لانتخاب بابا جديد فلم يحصل توقف فى هذا الشان بل اجمعوا فى اول يوم من اجتماعهم على تولية الكردينال اسكندر فرنيز رئيس الديوان المقدس اى ديوان الكردينالات وكان اقدم الكردينالات وعند تقليده بهذا المنصب سموه بولص الثالث فحصل للامة الرومانية كل الفرح بتولية هذا الكردينال لانه كان من ابنا وطنهم ففرحوا برجوع تاج البابا الى رجل من الامة الرومانية بعد أن مكث اكثر من قرن يتداوله الاجانب وتفاءل العارفون من توليته بحسن الادارة لانه كان بمكان من التجاريب حيث شهد حكومة اربعة من البابات واظهر فى منصب الكردينالية مايدل على كثرة حزمه وقناعته مع أن ذلك الوقت كان وقت فتن واضطراب يستدعى السياسة والمداهنة

وربما كان موت كليمان سببا فى بقاء الصلح ببلاد اوروبا فانه وان لم ينص التاريخ على أنه تعصب مع الملك فرنسيس على الامبراطور الا انه لاشك انه لو هجمت الجيوش الفرنساوية على اراضى الامبراطور فى بلاد ايطاليا لكان هذا البابا يساعدها اتم المساعدة لانه لطمعه كان يفرح حين يرى أنه قد خرج من عائلته ملكان احدهما يحكم فلورنسة والثانى يحكم دوقية ميلان فلما تولى بعده بولص الثالث وكان من حزب الامبراطور وانصاره اضطر الملك فرنسيس الى ابقاء الحرب لوقت آخر ورجع عما كان عزم عليه من الشروع فى قتال الامبراطور

مطلب
عصيان طائفة الاناباتيست فى بلاد المانيا

الاناباتيست طائفة من المعتزلة ترى ان التعميد لا يكون الا فى سن التمييز بالغمس دون الرش

وبينما كان الملك فرنسيس يترقب فرصة ينتهزها فى الحرب مع الامبراطور وان كان قد انهزم فى الحروب المتقدمة ولحقه منها الضرر هو ورعاياه اذ حصل فى بلاد المانيا حادثة غريبة وذلك أن الدين الجديد كما نشأ عنه كثير من الفوائد الجليلة نشأ عنه امور اخرى مضرة ومثل هذا الازم لزوما ذاتيا الافعال البشر فمتى اشتغل العقل البشرى بمقاصد جسيمة ربما ترتب مهمة خرج عادة عن اطواره وتجاوزت حميته الحدود فيضل عن الصراط المستقيم ويقع فى سبل الزيغ ويضيع رشده ومثل تلك الآفات تتراكم عادة على عقول البشر متى جالت فى بحور

سنة ١٥٣٤

الدين وغاصت فى لجه الطامة لاسيما فى مثل ذلك العصر الذى كان قد خرج فيه
الناس عن الدين القديم ولم يتمكنوا من اصول الدين الجديد الذى تمسكوا به
حتى يدركوا حقيقة ما اوجبه عليهم فبناء على ذلك كانت جسارتهم فى الاقدام
على الدين الجديد دائما فى النمو والازدياد ولم تنقص حميتهم عما كانت عليه
عند رفض الدين القديم وحيث ان العقل اذ ذاك لم يكن تمكن من اصول
الدين الجديد حتى يتخذها دليلا يهتدى به الى الصواب كان لا يستطيع مافيه
من التضييق عليه فوردت عليه واردات غير جيدة ومن ثم كان فساد الاصول
المحمودة والاخلاق الممدوحة وشاهد ذلك ما حصل فى مبدأ نشر الدين
النصرانى فكنت ترى كثيرا من الناس يتركون دينهم القديم و يتمسكون بدين
النصرانية قبل أن يتمكنوا من معرفة اصوله فيحدث فيهم اعتقادات باطلة
واوهام عاطلة مخالفة لدعائم التقوى وشعار الفضيلة ثم اضمحلت هذه البدع
شيأ فشيأ حتى صارت فى زوايا النسيان وصارت تحجل ضبابا تهابا تنشار اضواء
شموس الاصول الدينية الصحيحة فى آفاق العقول البشرية ※ وقد حصل
مثل ذلك فى دين لوتير حيث انه بعد ظهوره بقليل نشر بعض اصحابه لجهلهم
او لجسارتهم اصولا مضرة ليست الامن قبيل الاوهام الكاسدة والبدع
الفاسدة وجعلوا أنها من الدين وكان الناس اذ ذاك مع جهلهم لهم رغبة تامة
فى الدين الجديد وكان هذا الدين مطمح نظرهم فذلك هو السبب فى حدوث
الاوهام الفاسدة التى نشرها المعتزلى مونستير فى سنة ١٥٢٥ وحظيت
بالقبول بين الفلاحين نعم ان هذه الفتنة التى آثارها لم تطل مدتها ولكن اختفى
عدة من اصحابه فى بعض البلاد وبذلوا جهدهم فى نشر آرائهم واذاعة اوهامهم
وبدعهم

مطلب
منشأ هذه الطائفة
وبيان آرائها وعقائدها

وكانت الاقاليم العليا من المانيا قد تخربت وساء حالها بسبب حماقة
هؤلاء الجهلة وما ارتكبوه من الفعال القبيحة فشدد عليهم الحكام واساؤا
معاملتهم فعاقبوا منهم البعض ونفوا البعض والجأوا بالايذاء جما غفيرا الى
المهاجرة الى بلاد اخرى فامكنهم بذلك أن يزيلوا ما كان قد نشره هؤلاء الجهال

سنة ١٥٣٤

من الاوهام الباطلة ولما لم يحصل مثل هذا التشديد عليهم فى مملكة البلاد الواطية وفى اقليم وستفاليا لانه لم يكن هنالك من يدرك مضار عواقب مذاهبهم دخلوا عدة مدائن ونشروا فيها اصولهم وقواعد مذاهبهم وكان اعظم هذه الاصول هو التعميد على وجه مخصوص وهو أن لا تعمد الاولاد الا فى سن التمييز وأن لا يكون التعميد بالرش بل بالغمس وبناء على ذلك حكموا ببطلان ماسبق من التعميد قبل سن التمييز وصاروا يعمدون كل من دخل فى حزبهم ومن ثم سميت طائفتهم بطائفة ألانابابتيست اى المعمدين بالغمس فى ماء المعمودية والظاهر أنهم بنوا ذلك على ماكان يفعل فى التعميد على عهد الحواريين ومثل هذا الامر لا يؤثر فى انتظام العالم شيأ لكن كانت لهم عقائد اخرى خطرة مضرة فكانوا يقولون ان وظيفة الحكام لا يحتاج اليها النصارى الذين يأخذون بصريح عبارات الانجيل ويعملون بما يستنبطونه منها من الاحكام وانما هى وظيفة ممنوعة شرعا لما فيها من الظلم وتضييق دائرة العقل ومنعه عن وظيفته من الجولان والنظر فى الاشياء وكانوا يرون أنه يلزم ازالة كل امتياز بين الناس من حسب ونسب ورفعة قدر وثروة لان ذلك كله مخالف لما يقتضيه الانجيل من التسوية بين افراد البشر وأنه يجب على جميع ابناء النصرانية أن يجعلوا اموالهم واملاكهم بينهم على سبيل الشيوع وأن يعيشوا مع بعضهم كعائلة واحدة لا امتياز بين اهلها وكانوا يرون تعدد الزوجات قائلين انه حيث لم يبين فى الناموس الطبيعى ولا فى العهد الجديد مقدار النساء اللاتى يجوز للمرء نكاحهن فله أن يتزوج بمن شاء منهن واحدة او متعددة واسوته فى ذلك الانبياء المتقدمون والامم الماضون فان الله عز وجل قد اباح لهم ذلك

مطلب استيطانهم فى مدينة مونستير

ثم انهم نشروا هذه الاصول وجعلوا يعضدونها مع الحمية الجاهلية فنشأ عنها امور قبيحة اضرت بالعباد والبلاد * وادعى اثنان منهم النبوة وهما حنا متى وكان خبازا من مدينة هرليم و حنا بوكولد او بوكولس وكان خياطا بمدينة ليدة فاستوطنا بمدينة مونستير وهى من اعظم مدائن الامبراطورية وهى وان كان لها اسقف الا ان الحل والعقد فيها كان لارباب

سنة ١٥٣٤

المشورة والقناصل من اهلها وكان هذان الكاذبان جادعين لما يلزم لنجاحهما في مشروعهما من المعارف والجسارة العظيمة والظهور بمظهر الاتقياء وادعاء الوحي وفصاحة الخطاب في الاحتفالات العامة فبهذه الوسايط كلها صار لهما في اقرب وقت احزاب واتباع واشتهر امرهما وشاع فكان من اتباعهما المعلم روتمام وهو اول من وعظ بدين المعتزلة في مدينة مونستير والشهير كنيبردولنغ وكان من ذوي الحسب والنسب بين اهل هذه المدينة وكان له فيها اعتبار عظيم فلما كثرت احزابهما تقوت قلوبهما وصار لهما صولة ونفوذ كلمة فجعلا ينشران اصولهما الدينية على رؤس الاشهاد ويعلمانها الناس كافة ولم يكتفيا بذلك بل صمما على الاستيلاء على المدينة والتقلد بحكومتها ليضعا ختم الحكومة على مذهبهما ولكن لم يمكنهما في مبدأ الامر أن يظفرا بهذا المقصود فطلبا سرا جملة كبيرة من اتباعهما الذين بالبلاد المجاورة لتلك المدينة واستوليا ليلا على ترسانتها وديوان مشورتها وجعل حزبهما يطوف في الحارات والازقة والسيوف بايديهم وهم يصيحون تارة بقولهم توبوا وتعمدوا واخرى بقولهم ارتحلوا ايها الضالون الجاحدون ففزع منهم ارباب مشورة السنت والشمامسة والرهبان والاعيان وخيار السكان من معتزلة وقاثوليقية وتركوا المدينة لهؤلاء المجانين الذين كان اغلبهم اجنبيا عنها وخرجوا منها في اسوء حالة فلم يبق في المدينة من يستطيع معارضتهم فانشأوا فيها حكومة جديدة تلايم عقولهم المختلة نعم ان اظهروا في مبدء امرهم احترام الرسوم القديمة فانتخبوا ارباب مشورة السنت من بينهم وقلدوا كنيبردولنغ ورجلا آخر من حزبهم بوظيفة القنصلية الا ان ذلك كان ظاهريا فقط وقام متى بادارة المصالح وسلك في احواله واطواره مسلكا يوهم به انه نبي حق وصار يأمر وينهى ويقتل فورا من خالف امره وجعل يحرض العامة على نهب الكنائس وتجريدها عن زينتها ثم امرهم أن يحرقوا من الكتب ما عدا كتاب العهد القديم والجديد لخلوها عن الفائدة مع اشتمالها على اكاذيب الملحدين وضلالات الجاحدين وضبط على اموال من

مطلب
استيلائهم عليها

مطلب
حكومتهم الجديدة التي احدثوها بتلك المدينة

سنة ١٥٣٤

هاجم من المدينة وباعها لسكان البلاد التي بجواره وامر كل انسان من سكان المدينة أن يأتي اليه بذهبه وفضته وسائر ما عنده من الامتعة النفيسة الثمينة ووضع ذلك في خزينة عامة ورتب شمامسة واناطهم بصرف ما يلزم لكل فرد من افراد الاهالي (وهذا معنى ما سبق من جعل الاموال على سبيل الشيوع بين الناس) وبعد أن رتب التساوي بين اهل جمهوريته على هذا الوجه أمرهم أن يأكلوا مع بعضهم على اخونة ينصبونها على رؤس الاشهاد في الساحات العمومية بل عين لهم ما يأكلونه كل يوم من الاطعمة وبعد أن تم هذه التغييرات على هذا الوجه التفت الى ما يكون به تحصين المدينة لتكون آمنة من سطوة العدو وسلك في هذا الغرض مسلك الحزم والتبصر فجدد مخازن واسعة واصلح الحصون القديمة واحدث حصونا جديدة واشتغل في ذلك جميع السكان بالتناوب ورتب من اتباعه جنودا منتظمة احكم ضبطهم وربطهم وجمع في ذلك بين الحزم والحمية وبعث الى اتباعه بمملكة البلاد الواطية يدعوهم الى الحضور الى مدينة مونستير التي كان يسميها جبل صهيون (اشارة الى جبل بفلسطين عليه قلعة بيت المقدس ولا يخفى ما في ذلك من الاشارة) ليجتمعوا فيها ثم يخرجوا جميعا لتسخير سائر الملل وادخالهم تحت طاعتهم وكان لا يذوق طعم الراحة ابدا ولا يهمل في شئ مما يكون به حفظ مذهبه وتوسيع دائرته وكان يسلك مسلك التقشف والزهد ولا يستنكف عن الاشتغال بأي شئ ليقتدى به في ذلك اصحابه وقد ازدادت حميتهم وتقوى عزمهم بتحريضه لهم وادعائه النبوة ونزول الوحي عليه فصاروا يستسهلون كل صعب لاجل تأييد مذهبهم وتعضيده ولكن كان اسقف مونستير قد جمع جيشا عظيما وقدم به الى المدينة ليضع عليها الحصار فلما دنا منها خرج عليه متى من المدينة مع بعض عساكر فكبسهم وحمل على معسكره وقتل منه كثيرا ثم كر راجعا الى المدينة يرفل في ثياب الفخار ومعه اسلاب القتلى واغتر بهذه النصرة فخرج في اليوم الثاني يقدم اهل المدينة وبيده رمح وهو يقسم أنه لابد أن يذهب مع افراد قليلة لمحق جيش الجاحدين ولو كثروا كما فعل كذعون بن يوآش الاسرائيلي فانه مع ثلثمائة

مطلب
اغارة اسقف مونستير عليهم

رجل

(سنة ١٥٣٤)
(شهرايار

مطلب
ازدياد شوكة حنا د وليد بن طائفة الانابابتيست

رجل ظفر باهل مدين وكانوا امائة واربعين الفا) *فانتخب ثلاثين رجلا وانقض بهم على معسكر الاعداء مع الحمية الشديدة فقتلوا عن آخرهم وقتل معهم نبيهم وبموته وقع الرعب والفزع فى قلوب اتباعه الا أن حنا بوكولد الخياط الذى تقدم ذكره سلك مسلك متى فى الحيلة والخداع واظهار دعوى النبوة فاحيى قلوبهم حتى اقاموه مقام متى وجعلوه مطلق التصرف بينهم ولما لم يكن فى الجسارة مثل متى اقتصر على المدافعة عن مدينته ولم يخاطر بنفسه ويهجم على الاعداء بل جعل ينتظر الامداد الذى كان متى قبل موته قد بعث بطلبه من مملكة البلاد الواطية *ومع أن هذا الكاذب لم يكن جسورا مثل متى كان اكثر منه اوهاما وبدعا واعظم منه حمية جاهلية وكان يفوقه ايضا فى الحرص والطمع وذلك أنه بعد هلاك متى صار يضل الناس ويغرهم بدعوى الالهام والوحى وانذرهم بوقوع حادثة غريبة وبعد أن مهد عقولهم بهذه الكيفية خلع ملبوسه وصار يجرى فى الحارات والازقة ويقول باعلى صوته ان مملكة صهيون قد قرب اوانها وان كل ماشيد على الارض سيحط وكل ماانحط سيشيد وبناء على هذا النبأ الذى يزعم أنه بالالهام والوحى امر بهدم الكنائس لانها كانت اعلى مبانى المدينة وعزل ارباب مشورة السنت الذين كان ولاهم متى قبله وخلع كنيبر دولنغ عن منصب القنصلية الذى هو اعظم مناصب الجمهورية وحكم عليه بادنى الوظائف واخسها حيث جعله جلادا فلم يتوقف كنيبر دولنغ فى قبول هذه الوظيفة بل اظهر الفرح والمسرة بها وبالجملة فكانت قسوة هذا الرجل خارجة عن الحد حتى ان كنيبر دولنغ كان يدعى كل يوم لاجراء وظيفته الشنيعة واقام بوكولد محل ارباب مشورة السنت الذين عزلهم اثنى عشر قاضيا ليقوموا بادارة المصالح تأسيا باسباط بنى اسرائيل وكان له فى قومه من نفوذ الكلمة ما كان لموسى عليه السلام فى قومه

مطلب
توليته ملكا بطريق الانتخاب

ولكن لم يكتف بوكولد بهذه الشوكة العظيمة ولا بتلك الالقاب الفاخرة بل اراد أن يكون ملكا مطلق التصرف بين قومه وظفر بهذا المرام حيث استمال

(سنة ١٥٣٤)

٢٤ من شهر حزيران

رجلا وعلمه حتى اعتقدوا نبوته ثم جمع هذا الرجل الاهالى وأبدى لهم أن الله سبحانه وتعالى قد تعلقت ارادته بجعل حنا بوكولد ملكا في صهيون وأنه يجلس على كرسى داود عليه السلام فعند ذلك خر حنا ساجدا امتثالا لارادة الله عز وجل وحقق للناس أنه قد اوحى اليه بذلك فبادروا الى مبايعته وصار من وقتئذ يظهر بمظهر الملوك فاتخذ تاجا من الذهب وصار يلبس افخر الملابس وكان دائما على احد جانبيه رجل يحمل الانجيل وعلى الآخر رجل شاهر سيفه وكان لا يظهر بين الملا الا ومعه جم غفير من الناس لخفره وحراسته وضرب النقود ورسم عليها صورته وجدد ضباطا لقصره وللمملكة وكان من جملتهم كنيبردولنغ حيث جعله محافظا على المدينة مكافأة له على امتثاله حين قلد بوظيفة الجلاد وعلى توفيته بها بدون اشمئزاز ولا قلق

مطلب فساد سلوكه

فلما بلغ بوكولد هذا المبلغ من الصولة واتسعت دائرة شوكته اخذ يرتكب امورا كان لا يرتكبها قبل ذلك او كان يفعلها سرا * وقد شوهد فى سائر الاعصار أن الحمية المفرطة يصحبها العشق عادة وأن منشأ الامرين واحد فأمر بوكولد عدة من علمائه أن يعظوا الاهالى ويرغبوهم فى التزوج باكثر من واحدة بل ويفهموهم أن هذا الامر لا بد منه وزعموا أن ذلك من المزايا التى خصها الله سبحانه وتعالى بمن اصطفاهم واجتباهم من خلقه فلما تعود الناس على سماع ذلك وفرحوا به لملايمته للطباع البشرية كان هو اول من بدأ بذلك فتزوج ثلاث نسوة فى ان واحد منهن ارملة متى وكانت بهية الحسن والجمال ثم بلغ منه العشق وحب التنقل حتى صار عدد نسائه اربع عشرة امرأة ولكن كان الملقب منهن بلقب الملكة هى ارملة متى وحدها فكانت تقتسم معه تشريفات المنصب الملوكى ثم تاسى به الناس فى ذلك وجاوزوا الحد فى الفساد حتى لم يبق رجل الا وعنده اكثر من واحدة وصاروا يعدون الاقتصار على الواحدة من اكبر الكبائر لانه مخالف لما شرعه لهم نبيهم من الحرية النصرانية بل كان ثم اناس منوطون بالبحث فى البيوت عن الابكار ويلزمونهن بالتزوج * وحيث ان

الطلاق

(سنة ١٥٣٤)

الطلاق لازم لزوما ذاتيا لتعدد الزوجات صار مشروعا بينهم وصار من جملة دواعي الفساد عندهم وافضت بهم الشهوات الى ارتكاب الفواحش حيث لم تحدها شريعتهم بحد ولم يكن عندهم حياء يمنعهم من الافراط فيها وبالجملة فقد شوهد يومئذ أن الفساد عضدته اصول الدين وأنه قد جمع بين الفواحش والزهد في تلك المدينة التي كانت موطنا للاوهام والضلالات والبدع والترهات

مطلب العصبة التي تعصبت على طائفة الانابابتيست

ولما رأى امراء المانيا أن هذا المبتدع الضال الخسيس الاصل قد دنس مناصبهم باقتيانه على حقوق المنصب الملوكي حيث اقام نفسه ملكا في مدينة من دولهم اشتد غيظهم منه وصمموا على اهلاكه لاسيما وكانت فواحش اتباعه تدنس دين النصرانية فنفر منها جميع الناس في سائر الدول وضاقت صدورهم وكان لوتير من مبدء الامر لايستحسن حمية هذه الطائفة فتأسف حين رأى تقدمها اسفا عظيما وحرر في القدح في اوهامهم والتشنيع على عقائدهم عبارات فظيعة مؤلمة لاتقبل نقضا ولاردا وحرض فيها جميع امراء المانيا على منع جنة هذه الطائفة المشؤمة على الناس الخطرة على الدين وكان الامبراطور اذ ذاك مشغولا بامور جمة ومقاصد مهمة فلم يمكنه أن يلتفت الى هذا الغرض لاسيما وكان بارض بعيدة عن محل اقامته ولكن جمع ملك الرومانيين سائر امراء الامبراطورية واتفقت كلمتهم على امداد اسقف مونستير بالرجال

مطلب حصار مدينة مونستير

والاموال لانه لاقدرة له على القيام بمصاريف العساكر اللازمة لحصار المدينة على ما ينبغي وانما كان مقتصرا على قطع الوارد عنها من بعيد ولما صمم امراء المانيا على ذلك جمعوا العساكر واناطوا برياستهم ضابطا من الضباط اولى الدراية والتجاريب فوصل بهم هذا الرئيس الى مدينة مونستير في فصل الربيع سنة ١٥٣٥ واراد أن يعجل بانهاء المحاصرة والهجوم على المدينة الا أنه

(سنة ١٥٣٥)

رآها حصينة منيعة ووجد اهلها معتنين بحفظها غاية الاعتناء فلم يتجاسر على الهجوم عليها ليأخذها عنوة وكان قد مضى على اتباع طائفة الانابابتيست اكثر من خمسة عشر شهرا وهم في اشد التعب بتلك المدينة من الاشتغال

(سنة ١٥٣٥)

في التحصينات والاستحكامات والخدمة العسكرية وكان بوكولد لا يألو جهدا في تحصيل ما يلزم لمؤنة اصحابه وقت محاصرة المدينة وكان يقتر عليهم في صرف مرتباتهم ومع ذلك قل من عندهم الزاد حتى ايقنوا انه سيقع بهم القحط والمجاعة عن قريب واتى اليهم في اثناء ذلك عدة سريات من اخوانهم بمملكة البلاد الواطية بقصد اعانتهم فنهبوا وابيدوا عن آخرهم فلم تبق لهم وسيلة يرجون بها النجاة لا سيما وكانت بلاد المانيا مستعدة لان تجتمع مع بعضها لتقطع دابرهم ولكن كان للضال بوكولد موقع عظيم عند اصحابه وكانت حميتهم قد تجاوزت الحد حتى انهم لم تفتر لهم همة ولم يعدلوا عن عقائدهم واوهامهم وكانوا امنة يأخذون الاشياء قضية مسلمة وكان بوكولد واضرابه يحدثونهم بنزول الوحي عليهم ويقولون لهم ان الله القادر على كل شئ سينقذ مدينتهم عن قريب وينجيهم من كيد اعدائهم ولكن اشتد بهم الكرب والضنك حتى اخذ بعضهم يشك في نبوة هؤلاء المبتدعين وصحة اخبارهم وجعل يتردد في التسليم الى العدو فبمجرد ما ظهرت سريرتهم واتضح امرهم عوقبوا بالقتل على كفرهم وعدم اعتمادهم وتوكلهم على الله عز وجل واتفق أن امرأة من نساء بوكولد تكلمت بكلمات تؤذن بشكها في نبوته فجمع هذا الكذاب الاشر سائر نسائه وامر زوجته الكافرة أن تجثو على ركبتيها ثم ضرب عنقها بيده ولم تفزع النسوة من هذا الفعل الحشني بل امسكن بيده وجعلن يرقصن على شكل دائرة حول جثة تربهن ويظهرن الفرح والمسرة

مطلب
قحط المحصورين وحميتهم

وكان القحط لم يزل يشتد بين المحصورين حتى عظم كربهم وساء حالهم ولكن كانوا يؤثرون مثل هذه المصائب التي يفزع الانسان من مجرد حكايتها على كونهم يقبلون قول الاسقف الذي كان يعرض عليهم التسليم في جميع الاوقات الأ أن رجلا منهم هرب من المدينة اما لكونه افاق من نشوة الحمية الجاهلية او لكونه لم يستطع تحمل مشاق المجاعة والقحط وانضم الى جيش المحاصرين للمدينة ودل رئيسهم على جهة واهية التحصين واخبره أن المحصورين لما لحقهم من التعب والنصب والمجاعة وغيرها من المشاق غير معتنين بحفظ هذه الجهة

مطلب
اخذ المدينة في اول يوم من شهر تموز

وعرض له أن يبعث معه سرية ليلا ليدلها على تلك الجهة فقبل قوله وبعث معه طائفة من اجود العساكر فنجعوا فى مرامهم كما اخبر فانهم تسلقوا على الاسوار من غير أن يشعر بهم احد واستولوا على باب من ابواب المدينة وادخلوا منه بقية جيشهم وكان ذلك على حين غفلة من اهلها فوجدوا الانابابتيست غير متحفظين ومع ذلك ثبتوا فى ميدان السوق ودافعوا عن انفسهم مع الحمية التى تقوم عادة بمن يقع فى اليأس والقنوط ولكن كان الاعداء اكثر منهم عددا فأحاطوا بهم من سائر الجهات وقتلوا معظمهم واسروا الباقى وكان من جملة الاسرى كنيبردولنغ واما بوكولد فكبلوه بالسلاسل والاغلال وصاروا ينقلونه من مدينة الى اخرى لينظره الخاص والعام حتى ذاق العذاب الاليم ومع ذلك لم يظهر عليه فتور همة ولا تذلل نفس ولم يتحوّل عن مذهبه بل مازال يعضده مع الحمية والثبات التام ثم اعادوه الى مدينة مونستير التى هى منشأ استعلائه ومحل ضلالاته وقتلوه بعد أن اذاقوه من العذاب مالامزيد عليه وتجلد لذلك كل التجلد واظهر صبر الرجال وعزم الابطال وهذا الرجل العجيب الذى اوقع الهيبة فى قلوب اتباعه واحدث فتنة كان يخشى منها على النوع البشرى لم يكن له من العمر الاست وعشرون سنة اودون ذلك

وزالت مملكة الانابابتيست بزوال ملكهم الا أن اصولهم كانت قد تمكنت فى مملكة البلاد الواطية فلم يزل بها مذهبهم الى الآن وهو المسمى بمذهب المانونيت ومن الغريب أن هذا المذهب بعد أن كان فى مبدء امره مهولا وتولدت منه فتن واضطرابات حسنت اخلاق المتمسكين به وصاروا يميلون الى الصلح والراحة وينفرون من سفك الدماء فهم الآن يرون الحرب والتصدى للخدم المدنية من المآثم الكبيرة ويفعلون ما يجب على كل انسان لمصلحة اخوانه ووطنه فكأنهم باجتهادهم فى الصنائع واعمال البرّ والرأفة بعباد الله التى هم عليها الآن يريدون جبر مافرط من اسلافهم الانابابتيست مما يغضر بالجمعية ومنهم من استوطن بانكلترة وحافظ فيها على رسوم آبائه وعوائد اسلافه فى شأن التعميد من غير أن يكون ذلك مشوبا بما يخل براحة الجمعية من

سنة ١٥٣٥

٢٤ من شهر حزيران

مطلب
عقاب الملك واتباعه

مطلب
حال مذهب الانابابتيست بعد ذلك

سنة ١٥٣٥

الحمية الجاهلية والغيرة الدينية

مطلب
اعمال عصبة سمالكالد
وبيان شوكتها

ومع أن عصيان الاناباتيست كان مطمح نظر الناس كافة لم يشتغل به امراء المانيا حق الاشتغال حتى يمنعهم عن الالتفات الى مصالحهم السياسية فقد ظهر فى اثناء ذلك نتائج المعاهدة المنعقدة سرا بمدينة سمالكالد بينهم وبين ملك فرنسا وذلك أن الدوق اولريق حاكم دوقية ويرتمبرغ كان قد طرده رعيته سنة ١٥١٩ بعد أن خرجوا عن طاعته لاجحافه بهم فتغلبت عائلة الاوستريا على هذه الدوقية ثم لما طالت مدة نفيه نسيت ذنوبه لانها انما كانت ناشئة عن عدم التجربة لا أنه كان ظالما بالطبع فرق جميع الناس لحاله لاسيما امير هيسة لانه كان من اقرب الناس اليه فاعانه اتم الاعانة وبذل وسعه فى رده الى تلك الدوقية التى ورثها عن آبائه وكان ملك الرومانيين يأبى ذلك ولا يسلم فى هذا الاقليم العظيم الذى اكتسبته عائلته بدون مشقة ولا تعب وكان امير هيسة ضعيف الشوكة لا يمكنه اخذ الدوقية المذكورة بطريق القهر والغلبة فخاطب فى شأنه ملك فرنسا وكان هذا الملك يترقب فرصة تعينه على توريط عائلة الاوستريا ففرح حين عرضت عليه هذه القضية حيث ان الغرض منها تجريد تلك العائلة عن ارض كانت تكسبها الشوكة فى جزء من المانيا بعيد عن بقية دولها فقوى قلب امير هيسة وألح عليه أن يشهر السلاح وأمده سرا بمبلغ عظيم من الاموال فجمع هذا الامير جنودا وسار بهم فورا الى دوقية ويرتمبرغ وهجم على طائفة عظيمة من عساكر الاوستريا كانت مأمورة بحراسة هذه الدوقية فابادها وشتت شملها وبادر جميع الرعايا بقبول الدوق اولريق لانه الاحق بها وفرحوا به كل الفرح وسلموه زمام بلادهم ولم يزل حكمها فى ذريته الى الآن ومن يومئذ دخل دين المعتزلة فى تلك البلاد

فلحق فرديننند ملك الرومانيين من ذلك غيظ عظيم الا أنه لم يتجاسر على الاغارة على امير كانت بلاد المعتزلة من المانيا مستعدة لتأييده وتعضيده فاستصوب أن يعقد مشارطة فى محفل عام يعترف فيها بحقوق اولريق فى دوقية

سنة ١٥٣٥

وبرغبرغ ولما رآى نجاح امير هيسة فى اعانته لهذا الدوق رآى أنه يلزمه أن يتجنب ما يوجب الشقاق بينه وبين عصبة سمالكالد فاخذ يتداول مع الامير منتخب سكس وكان رئيس هذه العصبة ورخص للمعتزلة فى بعض امور دينية فامكنه بذلك أن يستميل هذا الامير وغيره من الامراء المتعاهدين حتى اقروه على تملكه على الرومانيين ولكن لاجل منع مثل هذا الانتخاب المخالف للاصول فيما بعد وقع الاتفاق على انه من الآن فصاعدا لا يقلد احد منصب الملوكية على الرومانيين الا باجماع المنتخبين ورضائهم واقر الامبراطور هذا الاتفاق بعد ذلك بمدة قليلة

مطلب
تعيين بولص الثالث مدينة مانتوه لعقد الجمعية القسيسية العامة

ولما رآى ديوان رومة أن ملك الرومانيين يراعى حزب المعتزلة ويرخص لهم فى اشياء دينية ليستميل بذلك قلوبهم اغتاظ غيظا شديدا وكان البابا بولص الثالث غير مصمم كسلفه البابا كليمان على عدم الرضاء بعقد مشورة قسيسية عامة بل وعد فى اول مجلس انعقد بعد توليته منصب البابا أن يجمع تلك المشورة القسيسية التى كان جميع النصارى يودون انعقادها ولكن كان مغتاظا مثل كليمان من الفسخ الواقع فى الدين ببلاد المانيا فكان لا يقبل شيأ مما يعرض عليه فى شأن تحسين مذهب الكنيسة وازالة مفاسد ديوان رومة ومظالمه وانما كان يرى أن البابا كليمان انما استوجب لوم الناس بعدم رضائه بعقد المشورة القسيسية العامة فامل هو أن يسلم من هذا اللوم اذا طلب انعقادها بنفسه خصوصا وكان يرى أنه لا بد أن يحصل توقف فى تعيين زمان هذه الجمعية ومكانها وفى الذوات الذين يكون لهم الحق فى حضورها وفى كيفية المذاكرة فيها وهذا كاف فى خيبة آمال من كانوا يطلبون انعقادها وفى عدم توجه اللوم اليه اذا هو لم يرض بعقدها فبعث رسلا الى سائر دواوين اوربا ليخبرهم بمرامه ويفهمهم أنه قد عين مدينة مانتوه لعقد الجمعية القسيسية فحصل ما كان يرامه من التوقف من عدة وجوه وذلك أن ملك فرنسا لم يستحسن عقدها بهذه المدينة متعللا بأن كلا من البابا والامبراطور تكون كلمته اشد نفوذا من كلمة غيرهما لان هذه المدينة فى بلادهما ووافقه على ذلك ملك

سنة ١٥٣٥
١٢ شهر كانون الاول

انكلترة وزاد أنه لا يقر تلك الجمعية اذا هي انعقدت باسم البابا وامره واما معتزلة المانيا فاجتمعوا ثانيا بمدينة سمالكالد وألحوا في طلب ما كانوا طلبوه اولا واستدعوا أن تعقد الجمعية ببلاد المانيا معتمدين على وعد الايمبراطور اياهم بذلك وعلى ما اخذ عليه من الميثاق في مشورة الدييتة التي انعقدت بمدينة راتسبونة وأبدوا انها اذا انعقدت بمدينة مانتوه تكون ملغاة لا يعمل بها ولا تكون نائبة عن الكنيسة حق النيابة فترتب على هذا الاختلاف فتح ابواب الدسائس والمداولات حتى حق للبابا أن يفتخر بنجاح حيلته حيث انه بينما كان يظهر الرغبة في عقد تلك الجمعية كان يبذل جهده في منع انعقادها ولذا وقعت الريبة منه في قلوب المعتزلة وضربوا اجلا لعصبة سمالكالد يبلغ عشر سنوات وكانت هذه العصبة قوية من قبل وانضم اليها ناس كثيرون فازدادت قوتها وعظمت شوكتها

مطلب
اغارة الايمبراطور على بلاد افريقة وحالة تلك البلاد

وفي ذلك الزمن شرع الايمبراطور في اغارته الشهيرة على افريقة لقتال اهلها الذين كانوا ارباب صيال يقطعون طرق البحار ويعطلون مصالح التجارة ومن المعلوم أن البلاد الافريقية القارة التي على سواحل بحر سفيد وكان بها سابقا جمهورية قرطاجة ومملكة موريتانيا ومملكة ماسيلي (الجزائر وتونس ومراكش) تعرف الآن ببلاد البربر وقد حصل لها عدة تغيرات فتغلب عليها الرومانيون وجعلوها اقليما من جملة اقاليم ايمبراطوريتهم وبعد ذلك فتحها الوندال وجعلوها مملكة مخصوصة ثم هدمها بليزير فبقيت تحت حكم ايمبراطرة اليونان الى اخر القرن السابع ثم فتحها العرب الذين لم يكن لاحد قدرة على مقاومة جيوشهم ومكثت مدة وهي تحت حكم الخلفاء الا أنها كانت بعيدة عن دار اقامتهم فقوى بذلك عزم المغاربة وهم اهلها المتأصلون وهموا بالاستقلال والخروج عن طاعة الخلفاء ومن المعلوم أن احترام الناس للخلفاء والسلاطين انما منشأه امتثال الاوامر الدينية وهذا يعين على الفتوح لا على حفظ ما فتح فلما قام عليهم اهل المغرب اضطروا الى التغاضي عنهم حيث لم يكن لهم اقتدار على قمعهم وادخالهم تحت الطاعة ومن يومئذ انقسمت بلاد البربر

الى

سنة ١٥٣٥

الى عدة ممالك كان اعظمها مراكش والجزائر وتونس وكان سكان هذه المالك اخلاطا من العرب والزنج الذين كانوا يأتون من الاقاليم الجنوبية ومن المغاربة المتأصلين بافريقة اوالمطرودين من اسبانيا وكانوا جميعا متمسكين بدين الاسلام ويبغضون النصارى بغضا شديدا لخشونة اخلاقهم وفرط حميتهم

مطلب
منشاء دول بلاد البربر

واذا وثقنا بكلام مؤرخي الرومانيين رأينا أن هذه الامة الجاسرة الخائنة لم تدم على حالة واحدة بل وقع بينها فتن كثيرة وحصل فى حكومتها تغيرات جمة غير أن هذه التغيرات لما كانت محصورة فى داخل بلاد متبربرة خيمت عليها عناكب النسيان فقل من يعرفها وليست جديرة بالتذكار والاشتهار ولكن حصل فى اثناء القرن السادس عشر تغيير عظيم صارت به دول بلاد البربر مخوفة على الافرنج وصار تاريخها حريا بالالتفات اليه والاطلاع عليه

مطلب
مشروع هورروق واخيه خير الدين الملقب كل منهما بذى اللحية الشقرآ

وقد احدث هذا التغيير العظيم جماعة من رعاع الناس لا يتوهم فيهم فعل مثل هذا الامر الجسيم وذلك أن رجلين كان ابوهما يصنع الفخار يقال لاحدهما هورروق وللثانى خير الدين وكانا بمكان من الجسارة والمخاطرة فجرهما ذلك الى أن تركا صنعة ابيهما واتخذا صنعة الملاحة وانضما الى طائفة من ارباب الصيال قطاع البحر فعما قليل صار لهما صيت وشهرة بالشجاعة والمهارة وذلك انهما اغتصبا سفينة صغيرة وصارا يجوبان بها البحر وينهبان ما يصادفهما وحصل لهما نجاح عظيم حتى جمعا دونانما مركبة من اثنى عشر غرابا وعدة سفن اخرى اصغر منها وكان اكبرهما هورروق وكان لقبه بربروس اى ذا اللحية الشقراء لان لحيته كانت كذلك وكان قبودان باشا على هذه الدونانما وكان اخوه خير الدين هو القبودان الثانى ولكن كان مثل اخيه فى نفوذ الكلمة تقريبا فلقبا انفسهما باحباب البحر واعداء من يسافر على ظهره وعما قليل اشتهرا وصار يخشى من ذكر اسميهما من بوغاز الدردانيل الى بوغاز جبل الطارق وكان كلما قويت شوكتهما وعظمت شهرتهما ازداد طمعهما واتسعت دائرة مقاصدهما حتى محيا ما لحقهما من معرة الصيال بما ابدياه من المعارف الجسيمة

سنة ١٥٣٥

والمقاصد الجليلة العظيمة التي لو كانت في فاتح لرقي بها ذرى الشرف والفخار وكانا في الغالب يذهبان الى مينات بلاد البربر بما ينهبانه من الاموال والامتعة من سواحل ايطاليا واسبانيا فحصل لاهل بلاد البربر ثروة عظيمة من ذلك حيث كانوا يشترونه منهما ومن ملاحيهما بثمن بخس فلذا كان لهما عندهم حظوة وقبول اينما توجها وكانت هذه المينات لطيفة الوضع لقربها من دول النصارى الكبيرة التي كانت يومئذ مشغولة بالتجارة فخطر ببال هذين الاخوين أن يجددا دائرة في تلك الاقطار وعما قليل لاحت لهما فرصة تعينهما على تنجيز هذا الغرض فانتهزاها ولم يضيعا ثمرتها وذلك أن اوتمي ملك الجزائر كان قدهم عدة مرات بالتغلب على قلعة كان بناها الاسبانيول حكام اوران قريبا من مدينة اوران وكانت دارا قامتهم فلم ينجح فيما هم به ولم يمكنه التغلب على تلك القلعة فلعدم تبصره استعان بذي اللحية الشقراء لانه كان عند اهل افريقة

سنة ١٥١٦

معدودا من الابطال فلبي هوروق دعوته واقام اخاه خير الدين مقامه على الدونما وتوجه بخمسة آلاف من الرجال الى بلاد الجزائر فتلقاه اهلها وبالغوا في اكرامه كأنه منقذ بلادهم وتغلب على مدينة اوران وذلك أنه لما رأى أن المغاربة لا يظنون به سوء اورأى أن عساكرهم قليلة الاسلحة فلا يقدرون على مقاومة عساكره الذين تمرنوا على الحرب منذ مدة مستطيلة ذبح سرا الملك الذي استعان به وتولى على بلاده ثم اخذ يبحث عما يكون به تأييده وتمكينه فيها فسلك مسلكا يلايم طباع اهلها وعوايدهم فكان يكافي احزابه وانصاره الذين كانوا يعينونه على التمكن من الملوكية بالعطايا الجزيلة التي ربما عدت من باب الاسراف والتبذير وكان قاسيا جبارا على من كان يخشى منهم ولم يكتف بهذه المملكة بل هجم على ملك تلمسان وكان بجواره فاخذ منه مملكته وضمها الى مملكة الجزائر ولم يزل ينهب سواحل ايطاليا واسبانيا ومعه دونما عظيمة كان من رآها يظن أنها دونما ملك من عظماء الملوك لا سفن بعض ارباب الصيال وبالجملة فكان نهب هؤلاء الناس قد تجاوز الحدود حتى ان شرلكان بمجرد تقلده منصب الامبراطورية بعث الى ملتزم قوماريس محافظ اوران

مطلب
تغلب هوروق بربروس على بلاد الجزائر

سنة ١٥٣٥

طائفة كافية من العساكر وامره بالهجوم على هوروق فبادر بالامتثال واعانه على ذلك ملك تلمسان وكان قد طرده هوروق من مملكته وقد أبدى هذا الضابط العجب العجاب حيث هزم جند هوروق فى عدة وقائع وحصر هوروق نفسه فى مدينة تلمسان فدافع عن نفسه حق المدافعة ثم فاجأه الاعداء وانقضوا عليه وكان يريد الفرار من تلك المدينة فتلقاهم بقوة قلب وثبات جنان ومازال يدافعهم بشجاعة غريبة جديرة بالشهرة والوقائع العجيبة حتى قتل

مطلب
تقدم خير الدين ونجاحه

وبعد موته تولى اخوه خير الدين حكومة بلاد الجزائر وكان ايضا يلقب بربروس ولما تولى على هذه المملكة سلك مسلك اخيه فى الطمع والمعارف الا أنه كان اوفر حظا منه فلم يقع فى ايامه ما وقع فى ايام اخيه من الاضطراب والتعكير بحرب الاسبانيول لانهم كانوا وقتئذ مشغولين بقتال الفرنج فامكنه بذلك أن يرتب امر السياسة والضبط والربط فى داخل بلاده ترتيبا غريبا واستمر على الاغارة والصيال فى البحر مع العزم الزائد والقوة التامة ووسع فتوحاته فى الاراضى القارة من افريقة لكن كان يرى أن المغاربة والعرب يبغضون حكمه ولا ينقادون اليه الا قهرا عنهم وكان يخشى أن صياله يفضى به الى الحرب مع النصارى فادخل دولته تحت حماية سلطان العثمانية فامده هذا السلطان بطائفة عظيمة من العساكر حتى يكون بها فى أمن من قيام رعيته وهجوم الاجانب عليه وصارت شهرته فيما بعد آخذة فى الزيادة كل يوم حتى طلبه السلطان سليمان ليجعله قبودانا على الدونانما العثمانية لانه لشجاعته وكثرة تجاربه كان جديرا بأن يعد لمقاومة الامير اندره دورية الذى كان اعظم اهل عصره فى الملاحة والصناعة البحرية ففرح بربروس بهذا الامتياز وسافر الى القسطنطينية وكان لين العريكة فعرف أن يجمع بين مداهنة ارباب الدواوين وجسارة ارباب الصيال فخادع السلطان وصافى وزيره حتى استمال قلوبهما وصارت له الحظوة العظمى لديهما فركنا اليه ووثقا به واخبرهما بأمر كان عازما عليه وهو أن يتغلب على بلاد تونس وكانت يومئذ اهى بلاد ساحل

سنة ١٥٣٥

افريقة واكثرها بهجة ورونقا فاستحسن ذلك كل من الوزير والسلطان واعطياه جميع ماطلب لاجل تجهيز هذا الغرض

مطلب شروعه فى فتح بلاد تونس

وكان خير الدين يؤمل النجاح فى هذا المشروع لما كان حاصلا وقتئذ من الفتن والحروب الداخلية ببلاد تونس وذلك أنه كان بها حينئذ ملك يسمى محمدا وكان له عدة نساء فرزق منهن بأربعة وثلاثين ولدا وجعل احد اولاده المسمى بمولاى حسن ولى عهده وكان من اصغرهم ولم يخصه بذلك لكونه اكثر اخوته معرفة بل لانه كان لامه موقع عند ابيه لاسيما وكان قد طعن فى السن فبدأ حسن المذكور بسم ابيه حتى لايعدل عنه الى غيره من اخوته ثم قتل من وقع تحت يده من اخوته وهذه عادة جارية فى جميع البلدان التى يجوز فيها تعدد الزوجات اذا لم تكن الخلافة معينة بالتسلسل فى عصبة من العصبات وكان من كبار اولاده امير يسمى بارشيد فساعدته المقادير على النجاة من اخيه مولاى حسن والتجأ عند عرب البادية فاعانه بعض مشايخهم وهجم عدة مرات ليستولى على كرسى ابيه لانه حقه حيث كان من اكبر اولاده ولكن لم ينجح فى ذلك وحيث ان عرب البادية لايثبتون على حال واحد تخلوا عنه بل وصمموا على تسليمه لاخيه ليفعل فيه كيف يشاء لكنه فر الى بلاد الجزائر وطلب حماية الملك بربروس فلما رأى هذا الملك أنه يمكنه أن يجلب لنفسه فوائد جليلة باعانة هذا الامير واثبات حقوقه تلقاه مع الترحيب والاكرام التام واظهر له المحبة الصادقة والاحترام وكان بربروس اذ ذاك عازما على السفر الى القسطنطينية فاستمال الرشيد الى الذهاب معه بعد أن وصف له السلطان سليمان بأنه اكرم ملوك الارض واقواهم شوكة وصولة ووعده بأنه يحصل له من طرف هذا السلطان امدادا عظيما يقمع به اعداءه وينتصر به وكان الرشيد يصدق كل مايقال له ويسهل عليه أن يشرع فى كل شئ ليأخذ تاج ابيه ولكن بمجرد وصولهما الى القسطنطينية اشار الخائن بربروس على السلطان سليمان أن يفتح مملكة تونس ويضمها الى سلطنته ولكن يكون ذلك باسم الرشيد حتى يسهل عليه اخذها ويعينه انصار الرشيد واحزابه الذين

سنة ١٥٣٥

بمملكة تونس فرضي السلطان سليمان بهذه الخيانة الملائمة لطبع من اخترعها وان كانت لاتليق بمقام هذا السلطان العظيم فجمع السلطان فى اقرب وقت جيشا كبيرا وجهز دونمنا عظيمة فلما رأى الرشيد ذلك ظن أنه قد ظفر بأعدائه وانه عما قليل يدخل مملكته محفوفا بالنصر والظفر الا أنه عند السفر قبض عليه بأمر السلطان وسجن فى السراية ولم يقف له احد الى ذلك الوقت على جلية خبر واقلع بربروس الى افريقة بالدونمنا وكانت تشتمل على مائتين وخمسين سفينة فبعد أن خرب سواحل ايطاليا ظهر امام تونس واخرج عساكره الى البر واظهر أنه جاء لاثبات حقوق الرشيد وانه قد تركه مريضا فى البحر وسيحضر عن قريب و بعد أن اشاع ذلك بدأ بالهجوم والاغارة وعما قليل تغلب على قلعة غوليطة التى كانت حصنا للجون ولم يكن تغلبه عليها بمحض مهارته وسياسته بل اعانه على ذلك خيانة حاكمها وموالسته معه وكان اهل تونس قد سئمت نفوسهم من حكم المولى حسن فخرجوا عن طاعته وانضموا الى حزب اخيه الرشيد مع الحمية التامة حتى اضطر حسن الى القرار ولم يمكنه لعجلته وما دهمه من الكرب أن يأخذ معه امواله وخزائنه ففتحت ابواب المدينة حالا أمام بربروس حتى كأنه ناصر ملكهم الرشيد ومعيد حقوقه وتاجه اليه لكن لما رأوا أن الرشيد لم يحضر وأن اسم السلطان سليمان هو الجارى على السنة العساكر ارتابوا من هذا الامر وظنوا أن ذلك حيلة وخيانة من بربروس ثم تغير الظن باليقين وظهر لهم امر بربروس وغدره فبادروا الى اخذ السلاح وقاموا عليه كأن بهم جنة واحاطوا بالقلعة وكان بربروس قد ادخل بها عساكره ولكن لتبصره فى العواقب احترس قبل ذلك بما يسلم به من مثل هذه النكبة فوجه اليهم نار المدافع والقربانات وشتت شملهم مع كثرتهم اذ لم يكن فيهم رئيس ولا ضبط ولا ربط فالزمهم بالدخول تحت الطاعة واذعنوا بالملوكية للسلطان سليمان واقروا البربروس بالنيابة عن هذا السلطان

مطلب
نجاح بربروس

مطلب
ازدياد شوكته

فبدأ بربروس بتحصين مملكة تونس لتدافع عن نفسها عند الحاجة

سنة ١٥٣٥

فصرف اموال الاجة فى انشاء تحصينات منتظمة بقلعة غوليطة وجعلها حصنا للسفنه وترسانته الكبرى البحرية والحربية و بعد أن صار ملكا على هذه الاقطار الواسعة استمر على نهب دول النصارى وازدادت قسوته واشتد ظلمه وصار لا يقدر احد على معارضته لازدياد شوكته وصولته فكان يأتى الى الامبراطور كل يوم من رعاياه الاسبانيولية والايطالية شكاوى عديدة من نهبه وظلمه وكان شرلكان اذ ذاك مطمح نظر النصارى كافة لانه كان اقوى ملوك ذلك العصر واوفرهم حظا فكان الاحرى بمنع هذا الظلم الذى لم يسبق مثله وكان المولى حسن بعد طرده من تونس لم يجد مغيثا فى ملوك الاسلام الذين ببلاد افريقة فاستعان بالامبراطور شرلكان ليخلص له حقه ممن تعدى عليه وكان الامبراطور يود أن ينقذ دوله من ظلم بربروس وتعديه ويخلص له حقه فعزم على التصدى لهذا الغرض ليفوز بفخر انقاذ العباد من قسوة هذا الظالم واجحافه بهم فعما قليل عقد مشارطة مع المولى حسن وتأهب لشن الغارة على بلاد تونس وكانت قيادته للعساكر فى حرب الجبار قد اورثته شدة الطمع فى كسب الشهرة والفخار بالحرب والقتال فصمم على الذهاب بنفسه مع الجيش المتوجه الى تونس فجمع سائر العساكر الموجودين بحكومته ليبرزبهم فى هذا الحرب الكبير الذى كان مطمح نظر الافرنج كافة واتى اليه دونما فلمنكية من مملكة البلاد الواطية وفيها طائفة كبيرة من مشاة المانيا واماسفن نابلى وسيسليا فنزل بها عساكر ايطاليا واسبانيا وكان قد طال عهدهم فى العسكرية وانتصروا على الفرنساوية فى عدة وقائع واما الامبراطور فركب البحر من مينا برسلونة ومعه نخبة امراء اسبانيا و بيكزاداتها وسرية عظيمة من العساكر جاءت اليه من بلاد البورتغال وكان رئيسها اخوه الامير لويز واقلع ايضا الامير اندره دوريه بسفنه وكانت احسن سفن اوروبا نظاما وتسليحا كما انه كان امهر الضباط واكثرهم نشاطا ودراية ولقد ساعد البابا على قدر جهده فى نجاح هذا المشروع الحميد وكانت طائفة مالطة تبغض المسلمين بغضة شديدة فاخرجت

مطلب
استعانة المولى حسن بعد طرده من مملكته بالامبراطور شرلكان فى ٢١ من شهر نيسان سنة ١٥٣٥

مطلب
تجهيزات الامبراطور لهذه الغزوة

سنة ١٥٣٥

من عندها دونما اخرى نعم وان كانت هذه الدونما صغيرة الا انها كانت فى المعنى كبيرة نظرا لشجاعة عساكرها الشوالرية وكانت مينا كاغلياري التى فى سردينيا هى الملتقى لجميع هؤلاء العساكر البرية والبحرية وجعل الامير دوريه قبودان باشا على الدونما والملتزم دغواست سرعسكر المشاة

مطلب
نزول الامبراطور فى افريقة

وكانت الدونما تشتمل على خمسمائة سفينة وكان بها من العساكر المنتظمة ما ينيف على ثلاثين الفا وسافرت من مينا كاغلياري فى السادس عشر من شهر تموز ولم يحصل لها ما يعطل سيرها حتى رست أمام تونس وكان بربروس قد بلغه خبر التجهيزات الجسيمة التى جهزها الامبراطور فادرك الغرض منها واستعد مع الحزم والعزم للمدافعة عن فتوحاته الجديدة واحضر رجاله الذين كانوا منتشرين فى البحر واحضر ايضا من مدينة الجزائر جميع العساكر الذين امكنه احضارهم من غير أن يضر بحفظ المدينة وبعث رسلا الى سائر ملوك افريقة من مغاربة وعرب ووصف لهم المولى حسنا بأنه كافر حيث انه لمجرد الطمع وقصد الانتقام التجأ الى ملك من ملوك النصارى وتحزب معه على دمار دين الاسلام فعرف بمثل هذه الحيل أن يثير نفوس هؤلاء الملوك الذين كانت حميتهم الدينية بالغة الغاية فاخذوا السلاح جميعا واستعدوا لقتال الكفار ودفعهم عن بلاد الاسلام واجتمع فى تونس عشرون الفا من الخيالة وطائفة كبيرة من المشاة وفرق عليهم بربروس هدايا عظيمة حتى لا تفتر همتهم بالتأنى والامهال ومع ذلك كان لا يؤمل نجاحا لان عساكره كانت خفيفة بخلاف عساكر الامبراطور من قرابة وخيالة فانها كانت شاكية السلاح فلا يمكن لعساكره مقاومتها فكان تعويله على قلعة غوليطة وعلى العساكر العثمانية الذين كانوا معه لانهم كانوا فى التسليح والضبط والربط على نسق عساكر الافرنج فادخل فيها ستة آلاف من العساكر العثمانية وامر عليهم رجلا يقال له سنان وكان يهودى الاصل وكان اشجع رجال بربروس واعظمهم فى التجاريب واكثرهم دراية بالوقائع والحوادث ومع ذلك حاصر الامبراطور

مطلب
حصار قلعة غوليطة

سنة ١٥٣٥م

تلك القلعة واحاط بها من سائر جهاتها وحيث كان اذذاك متملكا على البحر كان لا ينقص من معسكره شئ من الامور اللازمة بل كان عساكره يجدون مايشتهون حتى ان المولى حسنا لعدم تعوده على رؤية مثل ذلك فى الحرب تعجب من شوكة الايمبراطور وصولته وبحضور شرلكان قوى عزم عساكره وصاروا يفخرون بسفك دمهم فى هذا الحرب المحمود و يتسابقون الى مافيه الخطر من المحطات لما فى ذلك من مزيد الشرف والفخر وقد قسم جيشه الى ثلاث فرق الفرقة الاولى عساكر المانيا والثانية عساكر اسبانيا والثالثة عساكر ايطاليا واقام كل فرقة فى جهة من جهات القلعة وامرهم بالهجوم عليها فهجموا جميعا دفعة واحدة مع الحمية التى تنشأ عن الغيرة الملية لدى المسابقة هذا وقد ابدى سنان من العزم والشجاعة ما ظهر به أنه جدير بتعويل بربروس عليه وتجلد المحافظون ايضا على المشاق العظيمة والتعب والنصب الذى لحقهم مدة الحصار فكانوا يخرجون غالبا من القلعة و يهجمون على المحاصرين ويبطلون ماصنعوه وكان العرب والمغاربة يكثرون الهجوم على معسكر الايمبراطور و يفجعون عساكره ومع ذلك اتسعت شروم اسوار القلعة من جهة البر وكانت السفن ايضا تضرب ضربا شديدا على التحصينات المبنية من جهة البحر حتى اخذت القلعة عنوة مرة واحدة من سائر جهاتها و بعد أن قاوم سنان الاعداء حق المقاومة فر الى المدينة مع من بقى من المحافظين الذين كانوا معه فى القلعة وبعد اخذ هذه القلعة استولى الايمبراطور على دونانمة بربروس وكانت تبلغ سبعا وثمانين سفينة كبيرة وصغيرة واستولى ايضا على الترسانة وعلى ثلثمائة مدفع اغلبها من التوج وكانت مصفوفة على اسوار القلعة وهذا القدر من المدافع كان عجيبا بالنظر لذلك الوقت فيدل على اهمية تلك القلعة وعظم شوكة بربروس وقد دخل الايمبراطور فى قلعة غوليطة من الشرم والتفت الى المولى حسن قائلا ها هو باب مفتوح تدخل منه الى بلادك

مطلب
اخذ القلعة عنوة فى ٢٥ من شهر تموز

فحصل لبربروس فزع ورعب مما فقده لكن لم تفتر همته بل صمم على أن يبذل غاية

سنة ١٥٣٥

جهده فى محاولة انقاذ مدينة تونس من ايدى اعدائه وكان دائر هذه المدينة واسعا جدا واسوارها غير حصينة فكان لا يتحقق النجاح فى المدافعة عنها لاسيما وكان لا يثق بسكانها ولا يعتمد عليهم بل ولا يؤمل من العرب والمغاربة التجلد على مكابدة مشاق الحصار فعزم على الهجوم بجيشه على معسكر العدو وكان يبلغ خمسين الفا فاصدا بت الامر له اوعليه بهذه الوقعة وعرض ذلك على كبار ضباطه وكان فى القلعة عشرة آلاف من اسرى النصارى فاخبر ضباطه أن بقاء هؤلاء الاسرى فى القلعة يفضى بها الى الخطر لانهم ربما عصوا مدة غيبة العساكر وسلموا القلعة لاهل ملتهم فمن الاحتراس اللازم عدم الرأفة بهم وقتلهم قبل سفر العساكر وخروجهم من المدينة فاستحسن منه الضباط امر الهجوم على العدو الا انهم مع قوة قلوبهم وشدة قسوتهم لتعودهم على القتل والذبح بالصيال وقطع الطرق داخلهم الفزع والرعب حين عرض عليهم بربروس ذبح عشرة آلاف نفس دفعة واحدة فلم يوافقوه على هذا الرأى فرضى بربروس بالاستبقاء عليهم خوفا من غضب الضباط لا لمروءة بشرية اورأفة انسانية قامت به

مطلب
هزم الامبراطور
جيش بربروس

وكان الامبراطور فى اثناء ذلك متوجها بجيشه الى مدينة تونس ولحق عساكره من النصب والتعب ما لامزيد عليه حيث كانوا يمشون على رمال محرقة والشمس تبطح رؤسهم ولا يجدون ماء يبلون به صداهم ومع ذلك وصلوا الى اعدائهم فى مدة قليلة فلما رأى العرب والمغاربة أن جيشهم اكثر عددا من جيش النصارى قوى عزمهم وحملوا عليهم حملة واحدة وهم يرفعون اصواتهم بالتهليل لكن لعدم درايتهم بالعسكرية وقلة ضبطهم وربطهم لم يمكنهم أن يثبتوا أمام عساكر الامبراطور لحسن انتظامهم وترتيبهم *ومع حزم بربروس وما بذله من الجهد فى جمع جيشه والتئام صفوفه والقائه بنفسه الى الاخطار والاهوال حتى يقوى عزمهم ويتأسوا به تبدد شملهم وانهزموا شر هزيمة حتى ان بربروس فرمعهم الى المدينة من غير أن يشعر بذلك فلما وصل اليها وجدها فى اسوء حال حيث رأى بعض سكانها خارجا مع عائلاته وامتعته

سنة ١٥٣٥

و بعضهم مائلا الى التسليم للنصارى ووجد العساكر العثمانية متاهبة للفرار ورأى النصارى المأسورين فى القلعة قد تغلبوا عليها مع أنه فى مثل ذلك الزمن كان يمكنه أن يلتجى اليها و يتحصن بها وذلك أن هؤلاء الاسرى لقنوطهم و يأسهم انتهزوا الفرصة بغيبة بربروس كما كان يتوقعه فبمجرد مابلغهم أن جيشه صار بعيدا عن المدينة رشوا اثنين من الحرس وكسروا السلاسل والاغلال والسجن وطردوا عساكر الترك الذين كانوا محافظين فى القلعة ووجهوا مدافعها نحو اعداء النصارى فلما شاهد بربروس المدينة على هذه الحالة استولى عليه اليأس والقنوط وفر هاربا الى مدينة بونة (عنابة) وهو يلوم ضباطه حيث كانت رأفتهم فى غير محلها وندم كل الندم حيث قبل قولهم ولم يقطع دابر هؤلاء الاسرى قبل خروجه من المدينة

مطلب
تسليم مدينة تونس

لم يزل الامبراطور شرلكان يتقدم جهة تونس وهو فى فرح وسرور من تلك النصرة التى لم يفقد منه فيها كثير من الرجال ولكن كان سيره مع البطئ والتأنى والاحتراس اللازم لمن حل ببلاد اعدائه وكان لم يبلغه ماحصل فى المدينة حتى اتاه رسول من طرف النصارى الذين كانوا مأسورين فى القلعة واخبره بأنهم قاموا وتغلبوا على القلعة وطردوا منها الاعداء واتاه ايضا رسل من طرف المدينة معهم مفاتيحها وتضرعوا اليه أن يحميهم من عساكره حتى لايضروا بسكانها ولا يفعلوا معهم امرا منكرا و بينما كان الامبراطور مشغولا بما يحترس به من وقوع النهب والسلب فى المدينة اذ انقض عساكره عليها على حين غفلة خوفا من أن يمنعهم من الغنيمة وصاروا ينهبون و يسلبون و يقتلون اهلها ولا يحترمون احدا منهم فلم يمكن الامبراطور حينئذ أن يمنعهم و يردهم عن قسوتهم واجحافهم بالاهالى وصارت مدينة تونس غنيمة للعساكر واشتدت بهم الحمية حتى صاروا الايرأفون باهلها العدة اسباب كبا ينتهم لهم فى الاخلاق والدين وقتل فى هذا اليوم المشؤوم اكثر من ثلاثين الف نفس لاذنب لهم فكانوا فريسة للقسوة النصرانية واسر عشرة آلاف وجلس المولى حسن على كرسى مملكته والارض كالدهان من الدماء ورمم القتلى

سنة ١٥٣٥

سائرة لها ورعاياه يلعنونه لعنة الكفار لما انه كان السبب فى حلول تلك المصائب ببلادهم واشتد بغض الناس له حتى رثى لحاله من كانوا سببا فى تلك المصائب وتأسف الايمبراطور على ما حصل من عساكره اذ كان سببا فى تدنيس فخره واطفاء بهجته ولكنه رأى فى اثناء ذلك ما يسليه فى الجملة وهو أن عشرة الآلاف من النصارى الذين كانوا مأسورين بالمدينة وكان فيهم عدة اشخاص من ارباب الاعتبار والامتياز قابلوه عند دخوله المدينة وقبلوا الارض بين يديه ودعوا له بالنصر والظفر حيث فكهم من الاسر وانقذهم من ايدى اعدائهم الجبابرة

مطلب
تولية الايمبراطور للمولى حسن على كرسى مملكته

وكما وفى الايمبراطور شرلكان بوعده للمولى حسن حيث ولاه ثانيا على كرسى مملكته لم يغفل عما فيه مصلحة نفسه وامن رعاياه باذلال ارباب الصيال من اهالى افريقة وذلك أنه عقد مشارطة مع المولى حسن تتضمن هذه الشروط وهى أن مملكة تونس تكون من التزامات ملك اسبانيا وتكون تحت تبعية الايمبراطور وأن كل من كان اسيرا وقتئذ فى دولة المولى حسن من النصارى من اى ملة كانت يخلى سبيله من غير فداء وأن رعايا الايمبراطور يرخص لهم فى التجارة فى بلاد تونس وأن لا يكون عليهم حرج فى التعبد بدين النصرانية وأن تبقى قلعة غوليطة ملكا للايمبراطور وتسلم اليه كل المينات المحصنة فى المملكة وأن يدفع له المولى حسن كل سنة اثنى عشر الف ايكو لمصاريف العساكر الاسبانيولية التى تقوم بحفظ قلعة غوليطة وأنه لا يجدد مشارطة ولا معاهدة بينه وبين اعداء الايمبراطور وأن يهدى اليه كل سنة بوصف كونه من اتباعه ست افراس مغربية وستة من طير البازى

١٧ من شهر اب

*وبعد أن تم مصالح افريقة على هذا الوجه وعاقب ارباب الصيال واعدم من الاماكن ما تلتجئ اليه عساكره عند الضرورة واخذ لسفنه مرسى لطيفا على السواحل التى كان يأتى منها ارباب الصيال لنهب دوله ركب البحر ليعود الى اوروبا وكان ذلك فى فصل يكثر به عواصف الرياح وحلت الامراض بعساكره فلم يمكنه أن يقتفى اثر بربروس ويتتبعه حتى

سنة ١٥٣٥

مطلب
الفخر الذى حازه الايمبراطور بسبب هذا الحرب

يقبض عليه
والظاهر أن معاصرى هذه الواقعة جعلوا افضالها فى حسن القصد منها بحسب الظاهر وفيما اسلكه الايمبراطور فى تتميمها من الابهة والبهجة وفى نجاحه فيها ولم يلتفتوا الى عواقبها المهمة وفوائدها الجمة حيث رقى بها الايمبراطور الى ذوى الفخار والشرف وكانت ابهج الحروب التى شرع فيها الى ذلك الوقت فقد فك من الاسرى عشرين الف نفس من النصارى بعضهم بالقوة وبعضهم بالمشارطة المنعقدة بينه وبين المولى حسن واعطاهم جميعا ما يلزم لهم من الملابس والدراهم ليرجعوا الى اوطانهم فاطنبوا بعد رجوعهم الى اوروبا فى مدح الايمبراطور والثناء عليه وبالغوا فى وصفه بالحلم والكرم حتى صار له موقع عظيم فى قلوب الافرنج واشرقت شمس فخاره فى الآفاق حتى خفيت بها نجوم فخر غيره من الملوك لانهم بينما كانوا مشغولين بمصالح انفسهم كان هو مشغولا بالمدافعة عن النصارى كافة وبتحصيل ما فيه راحة اوروبا وامنها فصار جديرا بأن تكون درجته اعلى الدرجات بين ملوك الافرنج

انتهت المقالة الخامسة

(المقالة السادسة)

من اتحاف ملوك الزمان * بتاريخ الايمبراطور شرلكان

مطلب
اسباب حرب جديد وقع بين الايمبراطور والملك فرنسيس

واما الملك فرنسيس فمن سوء حظه سلك مسلكا مباينا لما سلكه الايمبراطور فساءت شهرته بين اهل عصره وذلك أنه انتهز الفرصة بغيبة الايمبراطور لاجل قتال اعداء النصارى وجدد طلب حقوق فى بلاد ايطاليا فاوقع بلاد اوروبا فى حرب جديد وقد اسلفنا أن مشارطة كبريه لم تمح ما كان بين الايمبراطور وفرنسيس من العداوة والبغضاء ولم تطف نيران التفاقم والشقاق من بينهما وانما استرت ظواهرها فقط لاسيما وكان الملك فرنسيس يترقب فرصة يعيد بها الى نفسه الشهرة والاراضى التى فقدها فكان دائما لا يغفل عن المداولة فى هذا الشان مع ملوك اوروبا وكان يبذل جهده فى تقوية الغيرة التى قامت بنفس بعض ملوك الافرنج من ازدياد شوكة الايمبراطور وشدة

سنة ١٥٣٥

طمعه وكان يجتهد فى أن يودع فى قلب البعض الآخر الوسواس والرعب الذى كان قائما بنفسه من الايمبراطور وكان يخاطب فى هذا الشان كثيرا من الامراء لاسيما الامير فرنسيس سفورس نعم وان كان الايمبراطور هو الذى ولى هذا الامير على دوقية ميلان الا انه كان قد شرط عليه شروطا صعبة جدا فلم يقتصر على جعله من اتباع الايمبراطورية الالمانية بل الزمه بدفع الخراج حتى كأنه من اتباع الايمبراطور نفسه ولم ينسه تشريفه بتزوجه بنت اخت الايمبراطور الذى كان اعظم ملوك الافرنج ما لحقه من مذلة التبعية بل كانت نفسه لا تطيق ذلك حتى انه مع ضعف شوكته وخوفه من الايمبراطور بادر الى قبول كلام فرنسيس حين عرض عليه أنه يريد فكه من قيد التبعية وكان فرنسيس قد بعث اليه بصدد هذا الامر بيكزادة من دوقية ميلان يقال له مرويل كان مقيما اذ ذاك بمدينة باريس فسافر هذا الامير الى دوقية ميلان متعللا بأنه يريد زيارة عائلته واقاربه والواقع أن فرنسيس هو الذى ارسله الى سفورس وكانت معه بذلك مكاتبات من طرف الملك المذكور فتلقاه سفورس على سبيل أنه رسول من طرف فرنسيس ووقع مزيد الاهتمام بكتمان هذا السر وعدم افشائه ومع ذلك ادركه شرلكان ولا يدرى هل اخبره به احد او اخذه بطريق الحدس والتخمين وعلى كل بادر الى تحذير سفورس وتهديده كل التهديد حتى حصل له ولوزرائه رعب شديد حط بمقامهم بين الافرنج حيث ظهر أنهم يخشون بأس الايمبراطور وبطشه حتى عد ذلك منهم من باب الجبن الذى يزرى بالمروءة ويدنس العرض فبذلوا جهدهم فى ارضاء خاطر الايمبراطور واوقعوا المشاجرة بين مرويل واحد ضباط الدوق سفورس وكان مرويل غير جامع لما تستدعيه وظيفة الايلجية التى قلدها من الحزم والتبصر فقتل الضابط الذى تشاجر معه فقبض عليه حالا واقيمت دعواه وحكم عليه بالقتل وقتل فى شهر كانون الاول سنة ١٥٣٣ فاغتاظ فرنسيس من قتل ايلجيه لان الايلجى محترم عند سائر الامم بل والملل المتبربرة الخشنية وغضب لذلك غضبا شديدا اذ أن هذا الامر

سنة ١٥٣٥

منقصة فى حقه وتذليل لشأنه فهدد سفورس ورفع شكواه الى الايمبراطور الذى هو الفاعل فى الحقيقة لهذه الفعلة لما فى ذلك من هتك حرمة حقوق الدول والملل فلم ينصفه الايمبراطور ولا الامير سفورس فرفع شكواه الى سائر ملوك الافرنج وابدى أن له الحق فى الانتقام لنفسه فى نظير هذا الفعل المخالف للقوانين وانه ان لم يبادر بذلك لحقته المعرة بين الملوك وانحط قدره

مطلب عدم وجود نصير لفرنسيس

وبعد أن تعلل فرنسيس بهذه العلة فى اشهار الحرب الذى كان مصمما عليه من قبل جعل يبذل جهده فى ادخال غيره من الملوك فى حزبه ولكن طرأت اذ ذاك عوارض افسدت عليه ما كان يدبره وذلك انه بعد أن دنس عائلته الملوكية بزواج ابنه لكاترينة المديسيسية قاصدا بذلك ادخال البابا كليمان فى حزبه مات هذا البابا ويئس الملك فرنسيس مما كان يؤمله من هذا الزواج وكان البابا بولص الثالث الذى خلف كليمان يميل الى حزب الايمبراطور ولكن ظهر منه أنه مصمم على التخلى عن الحزبين اذ لا يليق به اعانة احدهما على الاخر وهو بموجب منصبه ابو النصارى كافة فيجب عليه الاصلاح وازالة اسباب التناقم والشقاق من بينهم وكان ملك انكلترة مشغولا اذ ذاك بمصالح دوله فتجنب فى هذه المرة الدخول فى المشاجرات وابى أن يعين فرنسيس الا اذا تأسى به فى الخروج عن طاعة البابات

مطلب مداولته مع معتزلة المانيا

وكان فرنسيس لا يؤمل مثل ذلك من ملك انكلترة فلما رآه ممتنعا من اعانته اضطر الى الاستعانة بامراء المعتزلة الذين كانوا من ارباب عصبة سمالكالد فصار يستميل قلوبهم اليه بتملقه لهم ومدحه لغيرتهم على عقائدهم التى ذهبوا اليها ومدافعتهم عنها بما فى وسعهم واظهر أنه يستصوب اراءهم فى المسائل الخلافية التى وقع فيها النزاع بينهم وبين ديوان رومة وأذن لرسوله بيلى الذى بعثه الى بلاد المانيا أن يعرض على هؤلاء الامراء عن لسانه رأيه فى المسائل المهمة الصعبة وأن يعبر فيها بالفاظ قريبة من الالفاظ التى عبر بها المعتزلة وتغالى فرنسيس فى المخادعة والمداهنة حتى دعا ميلنختون الذى كان ممتازا بينهم بحسن الاخلاق ولين العريكة الى الحضور بمدينة باريس

لينذاكر

سنة ١٥٣٥

ليتذاكر معه فى شان ما يكون به الاصلاح بين الحزبين ويزيل اسباب الشقاق الحاصل بين الكنيسة وحزب المعتزلة وكل ذلك منه محض خداع وسياسة وليس ناشئا عن اعتقاد واذعان باطنى لان المذاهب الجديدة وان كانت قد اثرت تأثيرا قويا فى عقل اختيه ملكة نوار ودوقة فرارة لكنها لم تؤثر فيه لانه كان مشغولا باللعب واللهو ومضيعا اوقاته فى اللذات والشهوات كما هو دأبه فلم يكن فى اوقاته فسحة حتى يقف على حقيقة المسائل التيولوجيكية التى كان واقعا فيها النزاع وقتئذ

مطلب سلوكه فيما يغضب امراء المانيا

ولكنه عما قليل ظهر أن ذلك منه حيلة وخداع فلم يورثه الا المعرة والفضيحة لانه سلك مسلكا مخالفا لما اظهره لامراء المانيا ولكن لا يخفى أن سلوكه هذا المسلك كان قهرا عنه اذ لم يحمله عليه الا بدع عصره واوهام رعاياه الفاسدة وذلك انه كان بينه وبين ملك انكلترة المحكوم بكفره وطرده عن الكنيسة التمام كلى وكانت مداولاته لا تنقطع مع معتزلة المانيا وكان قد قبل رسولا بعثه اليه السلطان سليمان فتوهم الناس فيه الضلال وقوى هذا الشك عندهم حين صمم على الحرب مع الامبراطور الذى كان كلما لاحت له فرصة يبذل غاية جهده فى المدافعة عن الدين لاسيما وكان تصميمه على هذا الحرب حين كان الامبراطور يستعد لقتال بربروس الذى كان معدودا من الحروب المقدسة لما أن بربروس المذكور كان ينهب دول النصارى ويضر بهم ويسد عليهم الطرق والمسالك فلاجل ازالة هذا الشك من قلوب الناس رأى فرنسيس أنه يجب عليه ابداء براهين جلية على صحة عقيدته وتمسكه بدين الكنيسة وكان بعض رعاياه قد تمسك بمذاهب المعتزلة وعقائدهم فانتهز تلك الفرصة واستعان بها على تنجيز مرامه من ازالة ما قام باذهان الناس من زيغ عقيدته وكان من اعتزل من رعاياه وضع على ابواب القصر الملوكى المسمى لوفر وفى جميع الميادين والمحال السلطانية بطاقات مكتوبا فيها عبارات مشتملة على هجو دين الكنيسة الرومانية وذم اصوله واحكامه فقبض على ستة ممن كتب هذه البطاقات اوكان لهم دخل فيها وقتلوا بهذه الكيفية

سنة ١٥٣٥

وهو انه لاجل منع المصائب التى كان يتوقع حلولها بالناس لكفرهم بالقدح فى الكنيسة امر فرنسيس بعمل موكب واحتفال عام وحمل القربان المقدس وطيف به فى الحارات والازقة الكبيرة من المدينة وكان فرنسيس فى اول الموكب مكشوف الرأس وبيده شعلة نار وامراء عائلته حاملون مظللة لهذا القربان وجميع الامراء والبيكزادات خلفهم صفا صفا ثم صاح الملك فى هذا الموكب الحافل مع الحمية والحماس كما هو عادته عند التكلم قائلا ان كانت احدى يدى تنجست باعتزال الكنيسة قطعتها بالاخرى تطهيرا لها ولا اراعى من خرج عن دينها ولو كان من اولادى هذا ولاجل البرهنة على صحة ما قاله حكم بحرق الستة المقبوض عليهم فحرقوا على رؤوس الاشهاد قبل انتهاء الموكب واذيقوا قبل الحرق عذابا شديدا تنفر منه نفوس اهل المروءة ولا يستطيع النظر اليه من به ادنى شفقة

مطلب
امتناع ارباب عصبة سمالكالد عن الانضمام الى حزبه

فلما بلغ ارباب عصبة سمالكالد ما صنعه الملك فرنسيس مع من اعتزل من رعاياه غضبوا كل الغضب وعرفوا انه كاذب فيما اظهره لهم وانه كيف يدافع فى بلاد المانيا عن مذاهب المعتزلة ويمنعها فى بلاده ويعاقب من تمسك بها من رعيته اشد العقاب فمن ثم لم تؤثر فيهم فصاحة بيلى ولا ما سلكه معهم من الخديعة والمكر فى استمالتهم الى حزب سيده فرنسيس لاسيما وكان الايمبراطور والى ذلك الوقت لم يفعل شيأ منكرا مع المعتزلة ولم يتعرض لمنع تقدم مذاهبهم واتساع دائرتها بل التزم فى مشورة الدييته المنعقدة بمدينة راتسبونة انه لا يؤذى من اتبع دين المعتزلة فكان من حزم هؤلاء الامراء الالمانية وسداد رأيهم انهم رأوا تعويلهم على الايمبراطور ومواعيده المحققة اقرب الى الصواب من تعويلهم على مواعيد فرنسيس المظنونة البعيدة التى كان يخادعهم بها لاسيما وكان تخليه عن معاهديه وحلفائه فى صلح كمبريه راسخا فى الاذهان فلم يستطع أحد أن يثق بمحبته وكرمه ويعتمد عليه فى شئ فلتلك الاسباب العديدة أبى امراء المانيا أن يسعفوا فرنسيس بامداد يستعين به على الايمبراطور شرلكان فلم يأذن رئيسهم الامير منتخب

سكس

سنة ١٥٣٥

سكس للعالم ميلختون أن يسافر الى مملكة فرانسا خوفا من غضب الايمبراطور ومنعا للريبة والشك وان كان ميلختون فرح للسفر فرحا شديدا اما لكونه دعاه الى ذلك ملك عظيم الشوكة جليل القدر اولانه كان يرى أن حضوره بديوان فرانسا الملوكى يعود بالنفع على حزب المعتزلة

مطلب توجه جيش الفرنساويه الى ايطاليا

ومع أن ملوك الافرنج وامراءهم كانوا اذذاك مابين خائف وغائر من ازدياد شوكة الايمبراطور وبطشه لم يرض احدهم أن يعين فرنسيس على ما كان يقصده من منع ازدياد هذه الشوكة ونموها ولكن مع ذلك لم يزل فرنسيس مصمما على قصده ووجه جيشه الى ضواحى ايطاليا وحيث انه لم يشرع فى الحرب الاستعلاء معاقبة دوق ميلان فى نظير قتله لرسوله لما فى ذلك من هتك حرمة حقوق الدول والملل كان يظهر أن غرضه اخذ دول هذا الدوق بهذه الحجة ولكنه حوّل جيشه الى دول اخرى وذلك أن الامير كرلوس دوق ساووة كان قد تزوج بامبرة البورتغال وهى الاميرة بياتريكسة اخت الايمبراطور شرلكان وكان هذا الدوق اقل امراء عائلته نشاطا ومهارة وكانت الاميرة المذكورة التى تزوج بها ذات معارف وعوارف فاخذت بعقل زوجها وصارت تتصرّف فيه كيف شاءت ولشممها بكونها اخت الايمبراطور اولاغترارها بالامور المزخرفة التى كان يعدها بها اخوها جعلت بين الديوان الايمبراطورى وزوجها علائق وروابط بعد أن كان زوجها الى ذلك الوقت لم يتعرّض لمعاهدة الايمبراطور او فرنسيس لاسباب سياسية حيث كان يرى بالنظر الى وضع دوله أن تخليه عن كل منهما هو الصواب وغير ذلك يضر به وكان ملك فرانسا يعلم انه يخاطر بنفسه اذا هو دخل بلاد ايطاليا قبل أن يتغلب على دول هذا الامير الذى كان يميل كل الميل الى مصالح الايمبراطور حتى انه ارسل ابنه البكرى الى ديوان مدريد ليتربى هنالك و يكون رهينة عند الايمبراطور على امانة ابيه وعدم عدوله عن الحزب الايمبراطورى وكان البابا كليمان السابع حين تقابل مع الملك فرنسيس بمدينة مرسيليا افهمه شدّة هذا الخطر واشار عليه أن يبدأ قبل اغارته على دوقية ميلان

سنة ١٥٣٥

مطلب تغلب فرنسيس على دول الاميردوق ساوة

بأخذ اقليم ساوة واقليم بيمون وافهمه انه اذا تغلب على هذين الاقليمين لا يبقى هنالك حاجز يفصل بينه وبين مملكته مادام بيلاد ايطاليا فيسهل عليه تنجيز مقاصده وما ربه وبدون ذلك لا يتم له مرام وكان ثم عدة اسباب توجب كراهة فرنسيس لدوق ساوة منها انه كان اعطى الاميردى بوربون جميع الاموال التى جمع بها بعد عصيانه العساكر الذين هزموا عساكر الفرنساوية فى واقعة باويا المشؤومة فلما لاحت هذه الفرصة لفرنسيس اخذ يظهر غمه مما سبق من دوق ساوة وأنه ينتقم من اساءه ولو بعد حين وكان ثم عدة اسباب بها يتراأى أن ظلمه الذى عزم عليه ليس الامن باب العدل والانصاف وذلك أن دول مملكة فرانسا واقليم ساوة كانت متصلة بعضها بل ومتداخلة فى بعضها من عدة جهات فكان ينشأ عن ذلك مشاجرات دائمة ومنازعات مستمرة فى شأن حدود اراضى كل من فرنسيس ودوق ساوة وزيادة على ذلك كان لفرنسيس بواسطة امه لويزة اميرة ساوة حق فيما كان ينبغى لها اقتسامه مع اخيها دوق ساوة المذكور من املاك ابيها ولكن اراد فرنسيس أن يبنى حربه مع دوق ساوة على اسباب اخرى خالية عن الشبهة ليست كهذه الاسباب مضى عليها احقاب انست ذكرها فالتمس من الدوق المذكور أن يأذن له بالمرور من اقليم بيمون ليدخل دوقية ميلان وكان جازما بأن الدوق لميله الى الامبراطور لا يرضى بمروره من هذا الاقليم فيتخذ ذلك علة فى الاغارة على بلاده وتنجيز ما كان مصمما عليه ولكن لم يتوقف هذا الدوق فى قبول هذا الامر حسبما ذكره مؤرخو ساوة الذين هم اعلم بهذه الواقعة من مؤرخى فرانسا لانه لم يكن له قدرة على الامتناع من قبوله بدون أن يخاطر بنفسه فوعد أنه يترك جيش الفرنساوية يمر ببلاده الى حيث شاء وبناء على ذلك لم يبق للملك فرنسيس فى الاغارة على بلاده سوى كونه يلزمه بتوفية ما يطلبه تاج فرانسا من عائلة ساوة بناء على حقوق الاميرة لويزة فلم يأته فى هذا الشان الاجواب مبهم قليل الجدوى حسبما كان قائما بنفسه فتوجه جيش الفرنساوية حالا الى بلاد الدوق

وكان

سنة ١٥٣٥

وكان رئيس هذا الجيش الامير دو بريون فهجم على دول الدوق من عدة جهات وتغلب فى اسرع وقت على اقليم بريسة واقليم بوجى وكانا حينئذ مضافين الى دوقية سابوة وفتحت اغلب مدائن هذه الدوقية ابوابها عند دنو جيش الفرنساوية منها والبعض الذى لم يسلم واراد المقاومة اخذ عنوة فى اقرب وقت وقبل انتهاء الحرب صار الدوق مجردا عن دوله ماعدا اقليم بيمون فانه بقى له فيه بعض مدائن حصينة تدافع عن نفسها

مطلب عود مدينة جنيورة الى حريتها

ولاجل اتمام المصيبة على هذا الدوق خرجت مدينة جنيورة عن طاعته وكان يزعم انها له حتى كان له سلاطة عليها من بعض الوجوه فجر عصيانها الى عصيان سائر الاراضى المجاورة لها وكانت جنيورة وقتئذ من المدائن الامبراطورية وكان يحكمها مباشرة اساقفة من اهلها تحت تبعية دوقات سابوة ومع ذلك كانت قوانينها الداخلية جمهورية محضة فكانت محكومة بوكلاء ومشورة مخصوصة اربابها ينتخبهم الاهالى فمن ثم حصل الشقاق فيها وافترق اهلها فرقتين مكتتازمتا طويلا يتنازعان فى شأن هذه المدينة الجمهورية فكانت احداهما تدافع عن مزايا الجمهورية وكانت تسمى اينوترة اى حزب المتعاهدين للمدافعة عن الحرية العامة وكانت الثانية تعضد مزايا دوق سابوة وتدافع عن مزايا الاساقفة فسموها باسم ماملوس اى الارقاء احتقارا لهم

سنة ١٥٣٢

فلما دخل دين المعتزلة فى هذه المدينة اودع فى قلوب من تمسك به الجسارة الكبيرة والجراءة التامة التى تنشأ عادة فى كل قلب تعلق بهذا الدين وكان كل من الاسقف ودوق سابوة عدوا مبينا للدين المعتزلة لعدة اسباب من مصالح خصوصية واوهام كاسدة ومقاصد سياسية فضيقا على الناس كل التضييق فى شأن هذا الدين فغضب الاهالى من هذا التضييق وصار المعتزلة كلهم ينضمون الى حزب الاينوترة فانضمت بذلك الحمية الدينية الى حب الحرية فازداد عزم الناس وعظمت قوتهم وكبر الشقاق والتفاقم بين الحزبين وتكاثرت الفتن وكان الغالب فى الاكثر حزب الحرية فكان يتغلب كل يوم على اراض جديدة

فابطل دوق سابوة والاسقف ما كان بينهما من المشاجرات والنزاع فى شأن

سنة ١٥٣٥ شوكتهما ومزاياهما واجتمعا معا لقتال حزب الاينوزنة الذى كان عدوا لهما فقاتله كل منهما بسلاحه اما الاسقف فحكم بكفر اهالى مدينة جنيورة لاتباعهم لدين المعتزلة وخروجهم عن دين النصرانية مع تعديهم على حقوق الاسقف واما الدوق فهجم عليهم لخروجهم عن طاعته وله حق التملك عليهم
سنة ١٥٣٤ وعزم على انه يتغلب على المدينة اولا بالحيلة والخديعة فاذا لم ينجح اخذها عنوة وتغلب عليها بمحض القوة ولكن احتقر اهلها حكم الاسقف عليهم بالكفر ودافعوه عن انفسهم حق المدافعة ليأخذوا حريتهم ويستقلوا بانفسهم وكانوا مع شجاعتهم قد اتاهم مدد عظيم من قطر برنة لانه كان متعاهدا معهم واعانهم ايضا ملك فرانسا حيث ارسل اليهم سرا اموالا ورجالا فخابت آمال دوق ساوة ولم يظفر بمرامه من التغلب على المدينة ولم يقتصروا على دفعه عن انفسهم وطرده بل انتهزوا فرصة عجزه عن مقاومتهم وبينما كان جيش الفرنساوية يشن الغارة على بلاده تغلبوا على عدة قلاع وحصون كانت له بجوار مدينتهم فاراحوا بذلك انفسهم من رؤية تلك الآثار التى كانت تذكرهم تبعيتهم لغيرهم وامنوا على حريتهم حيث ان تلك القلاع تعينهم عند الضرورة على اعدائهم وفى اثناء ذلك حصل أن قطر برنة اغار على بلاد وودة وتغلب عليها بناء على ما كان يزعمه من أن له الحق فيها واما قطر فريبورغ فمع تمسكه بالدين القاثوليقى وعدم وجود مقتض للشقاق بينه وبين دوق ساوة اراد أن يقتسم مع غيره سلب هذا الدوق فتغلب على بعض اراضيه وبالجملة فقد تغلب كل من هذين القطرين على جزء عظيم من اراضى دوق ساوة باق معه الى الآن فازدادت بذلك شوكته وصولته وقد صارت هذه الاراضى الآن الطف بلاده ومع ما فعله فيما بعد دوقات ساوة ليعيدوا حكومتهم على مدينة جنيورة لم تزل تلك المدينة مستقلة برأسها باقية على حريتها وبذلك صارت معتبرة كل الاعتبار بين الدول وعظمت ثروتها حتى وصلت الى درجة جليلة كان لا يمكنها الوصول اليها ولم تكن حرة مستقلة بنفسها

وبينما

سنة ١٥٣٥

وبينما دوق سابوة قد نزلت به تلك المصائب المتتابعة ولم ير من يستغيث به الا الايمبراطور اذ رجع شرلكان منصورا من بلاد تونس فاستصرخ به هذا الدوق استصراخ المستغيث المكروب وكان له الحق فى كونه يؤمل الاغاثة منه لان ميله الى الايمبراطور ومراعاة مصالحه هو الذى اوجب له تلك المصائب ولكن كان الايمبراطور لا يمكنه أن يسعفه بالاغاثة حسبما كانت تقتضيه حالته اذ ذاك لان معظم العساكر الذين غزوا معه فى بلاد افريقة كانوا مستأجرين لهذه الواقعة بخصوصها فبمجرد فراغها سرحوا وخلى سبيلهم واما العساكر الذين كانوا مع الامير انتوان دوليوه فلم يكن فيهم كفاية للمدافعة عن دوقية ميلان فلم يمكنه أن يفصل منهم فرقة ويرسلها لاعانة الدوق المذكور وايضا كانت خزائن الايمبراطور قد نفدت فى المصاريف الجسيمة التى صرفها فى حرب افريقة

٢٤ شهر تشرين الاول

مطلب
موت الامير سفورس دوق ميلان

ولكن مات فى اثناء ذلك الامير فرنسيس سفورس وكان سبب موته على ماذكره بعض المؤرخين انه داخله الخوف والرعب من اغارة الفرنساوية لان اغارتهم فى المرتين السابقتين كانت قد انضرت بعائلته كل الضرر فلما مات اتسع الوقت مع الايمبراطور وامكنه أن يستعد للحرب بجميع لوازمه لان موت هذا الامير كان على حين غفلة فغير موضوع المشاجرات والحرب حيث كان الملك فرنسيس يظهر أن قصده من الحرب هو معاقبة الدوق سفورس فى نظير كونه هتك حرمة فرانسا بقتله لرسولها فبموت هذا الدوق زالت تلك العلة وكان الملك فرنسيس قد تخلى عن حقه فى هذه الدوقية للدوق سفورس وذريته وحيث ان سفورس مات ولم يعقب ذرية كان مرجع هذا الحق الى صاحبه وهو ملك فرانسا الذى كان غرضه الاصلى من الحرب هو التغلب على دوقية ميلان فلذا طلبها بمجرد موت سفورس ولو كان حين طلب حقه ابد ذلك بتوجيه جيشه الجرار الذى كان مقيما فى سابوة الى دوقية ميلان لتغلب عليها مع السهولة وفاز بمرامه الا أنه كان كلما طعن فى السن قل عزمه وفترت همته لان ما حل به سابقا من المصائب كان مرسوما فى ذهنه

سنة ١٥٣٥

مطلب
دعوى الملك فرنسيس في شأن دوقية ميلان

لا يبرح عن فكره فكان تذكار ذلك يفضي به احيانا الى الرعب والخمول فعوضا عن اثبات حقه في دوقية ميلان بطريق القهر والغلبة اقتصر على المداولات ومكثت المكاتبات بينه وبين الايمبراطور مدة طويلة فنشأ عن هذا الخمول الذي يتولد عادة من الخوف ويضر بصاحبه في المصالح الجسيمة أن فرنسيس غفل عن انتهاز تلك الفرصة التي كانت تعينه حق الاعانة على اخذ دوقية ميلان فوضع الايمبراطور شرلكان يده على هذه الدوقية بوصف كونه سيدا عليها وهي تابعة له كبقية الالتزامات التابعة للايمبراطورية حيث ان له الحق في وضع يده عليها متى خلت عن المالك وبينما كان فرنسيس يضيع اوقاته في تأييد حقوقه بالبراهين والادلة ويبذل جهده في استمالة الدول الايطالية اليه حتى لا تفزع منه اذا احكم ثانيا في ايطاليا كان الايمبراطور شرلكان يحترس سرا بكل ما يلزم ليفسد عليه آماله ويخيب سعيه واهتم باخفاء مقاصده حتى لا يعلم اعداؤه ما في ضميره من مبدأ الامر فكان يظهر أنه يقر ويعترف بصحة ما يقوله ملك فرانسا وانما هو متحير في كيفية رد دوقية ميلان اليه بدون تعكير على بلاد اوروبا وعدم اخلال بميزان التعادل الموجود بين دول ايطاليا لاسيما وكان ارباب السياسة في هذه الدول يحافظون على ابقاء هذا التعادل بين دولهم فبهذه الحيل خدع الملك فرنسيس وسائر ملوك الافرنج حتى اتسع معه الوقت وامكنه أن يحدث مشكلات جديدة شغلت اعداءه والهتهم عنه من غير أن يظهر عليه ادنى شئ يوجب الوسوسة في صدور الناس فكان تارة يعرض أن تعطى دوقية ميلان للامير دوق دورليان ثاني اولاد الملك فرنسيس واخرى يعرض أن تعطى للامير دوق دانغوليم ثالث ابناء الملك المذكور وحيث كان في ديوان فرانسا خلاف فيمن يتولى حكم الدوقية المذكورة من هذين الاميرين صار الايمبراطور تارة يختار الاول وتارة يختار الثاني وكان ذلك مع المخادعة التامة والمكر في اخفاء ما يضمره حتى ظهر أن الملك فرنسيس ووزراءه لم يدركوا مقاصده الحقيقية وظهر بايقاف الحرب من ملك فرانسا انه خطر بباله أن لا شئ يمنعه من وضع يده

سنة ١٥٣٦

مطلب
تأهب الامبراطور للحرب

على الدوقية المذكورة

وكان الامبراطور فى اثناء هذا الزمن الذى شاغل فيه اعداءه يستعد للحرب ويجهز موادّه ومهماته ولم يزل يتحيل على دول سيسليا ونابلى حتى امدته بامدادات عظيمة لم يسبق مثلها الى ذالك العصر وذلك أنه لما شرّفهم بحلول ركابه السامى ببلادهم بعد رجوعه من بلاد تونس منصورا مؤيدا ارادوا أن يظهروا امامه بالكرم والسخاء فمنحوه هذه الامدادات الجسيمة التى امكنه بها ان يجمع عساكره القديمة وأن يجمع من بلاد المانيا طائفة اخرى ويستعد بكل ما يلزم لتنجيز اغراضه التى كان مصمما عليها *وكان الامير بيلى المبعوث من مملكة فرانسا حاضرا اذ ذاك ببلاد المانيا فعرف القصد من جمع العساكر ولم يخدعه ما اظهره اهل المانيا من الحيل فى ابهام الامر عليه فكتب لسيده فرنسيس صورة الواقعة واخبره أن ذلك يدل على عدم صدق الامبراطور فيما يقول ومثل هذه النصيحة كان حقها أن تنبه الملك فرنسيس من غفلته لكنه كان اذ ذاك مولعا بالمداولات والمكاتبات وكان خصمه امهر منه فى هذا المجال فعوضا عن أن يشرع فى الحرب مع عزمه المعتاد ويتغلب على دوقية ميلان قبل اجتماع الجيش الامبراطورى اكتفى بعرض امور جديدة على الامبراطور ليعطيه هذه الدوقية بمحض ارادته وكانت فائدة تلك الامور عائدة على الامبراطور وكانت عظيمة الجدوى بحيث لو كانت طوية الامبراطور خالصة لما امتنع من قبولها الا أنه لما كان مضمرا خلاف ما يظهر وكانت له مآرب اخرى حاول فى قبول هذه الامور قائلا انه لا يمكنه أن يبت شيأ فى هذا الشأن الا اذا تذاكر فيه مع البابا حيث ان ذلك يتوقف عليه أمن بلاد ايطاليا واطمئنانها وبهذه الحيلة اتسع معه الوقت بالكلية حتى امعن النظر وتمكن من تنجيز اغراضه التى كان مصمما عليها وعرف عواقبها وسببياتها وما يترتب عليها

٦ من شهر نيسان

وبعد ذلك توجه الامبراطور الى مدينة رومة فدخلها فى موكب عظيم واحتفال عام وحصلت حينئذ حادثة واهية ذكرها بعض المؤرخين وجعلوها

سنة ١٥٣٦

لغفلتهم علامة على ماوقع بعدها من الحرب المهول وهى أن الازقة كانت ضيقة لا يمكن أن يمر منها موكب الايمبراطور وكان هنالك هيكل مهدوم يقال له هيكل الصلح فلاجل توسيع الازقة لمرور الموكب لزم رفع اطلال هذا الهيكل وانقاضه هذا والواقع أن الايمبراطور كان قد رفض علائق الصلح فلما جمع امره اظهر ما كان يضمره مدة طويلة فى شأن ديوان فرانسا وبين حقيقة ما ربه على وجه واضح لا يقبل الريب وذلك أن رسل فرانسا طلبوا منه جوابا بتيا عما عرضه عليه سيدهم الملك فرنسيس لينال منه حكومة دوقية ميلان فوعدهم الايمبراطور بالاجابة الى غد بحضور البابا والكردينالات فاجتمع فى اليوم الثانى البابا والكردينالات فى الديوان ودعيت رسل الملل الاجنبية الى الحضور ثم قام الايمبراطور ووجه خطابه للبابا واطال الكلام المؤذن بميله الى ابقاء الصلح والراحة بين الملل النصرانية وبغضه للحرب ومايترتب عليه من الاهوال والمصائب وحكى فى هذا الشأن كلاما طويلا كان قد استحضره من قبل واعتنى بحفظه فذكر أن مساعيه فى شأن الصلح وابقاء الراحة فى اوروبا قد افسدها عليه الآن طمع ملك فرانسا وظهور تعديه وانه قبل أن يبلغ سن الرشد قد فعل هذا الملك معه مايدل على بغضه له ويشعر بمقاصده المضرة به حتى انه فيما بعد قد ظهرت هذه المقاصد حق الظهور حيث سعى فى حرمانه من التاج الايمبراطورى مع انه حقه وحق آبائه من قبله وانه منذ قليل اغار على مملكة نوار ولم يكتف بهذه المظالم بل هجم على اراضيه واراضى حلفائه التى ببلاد ايطاليا ومملكة البلاد الواطية وبعد أن حصل التأييد من القدير العلى عز وجل وانتصرت عساكره على جيش الفرنساوية واسر الملك فرنسيس فى واقعة شهيرة لم يرجع هذا الملك عن تلك المقاصد المنابذة لشعائر العدل والانصاف بل لما عجز ورأى قواه قد ضعفت وبادت جعل يسلك مسلك الخداع والغش ولم يلتفت الى شئ من البنود المقررة فى مشارطة مدريد التى كانت مبنى خلاصه من الاسر وتخلية سبيله فانه بمجرد دخوله فى مملكته جعل يستعد للحرب مع أن هذه المشارطة

مطلب انتقاده على فرنسيس

سنة ١٥٢٦

انما انعقدت لابطال الحرب والنزاع فهزمت عساكره ايضا واضطر الى طلب
الصلح وانعقدت مشارطة اخرى بمدينة كبريه لكن لخبث طويته لم يعقدها
الا وهو مصمم على نقضها وعدم العمل بمقتضاها حيث انه بعد انعقادها بقليل
تعاهد مع المعتزلة من امراء المانيا وحرضهم على القيام والعصيان ليضيعوا
راحة الامبراطورية ويوقعوها في الاختلال والفتن والاهوال والمحن وعما قليل
اغار على دوق سافوة وطرده من معظم بلاده مع أنه كان متعاهدا
مع الامبراطور ومتزوجا باخته فبينهما علاقة المصاهرة والمعاهدة فمثل هذه
المظالم العديدة والاسباب الاكيدة الموجبة للشقاق والتشاقق لا يمكن معها
حصول الالتئام والتوافق وزاد الامبراطور على ذلك انه وان كان يميل الى اعطاء
دوقية ميلان للملك فرنسيس الا ان الظاهر انه كان لا يمكنه ذلك
لان فرنسيس لا يرضى بقبول الشروط اللازمة حتى لا يضر ذلك براحة
بلاد اوروبا ولان الامبراطور لا يرى من الصواب أن يعطيه هذه الدوقية
من غير أن يلزمه بالشروط والاحتراسات اللازمة حتى لا ينشأ عن استيلائه
عليها ما يضر بالملة النصرانية ومع ذلك لا ينبغي لنا أن نسفك دماء رعايانا
وانما نتمم خصومتنا بقتال خصوصي بيني وبينه في ميدان حرب وله أن يختار
ما شاء من انواع الاسلحة ويقضي الله ما يريد ويكون قتالنا في جزيرة
او على قنطرة او سفينة مربوطة على نهر او غير ذلك وتبقى دوقية بورغونيا
مرهونة عندي من طرفه ويرهن عنده من طرفي دوقية ميلان ومن غلب
منا ثبت له الرهن الذي تحت يده وبعد ذلك نجمع عساكر المانيا واسبانيا
وفرانسا لنرغم انف الدولة العثمانية ونمحق الاعتزال ونمحو آثاره من بين الملل
النصرانية فان امتنع فرنسيس من تتميم الخصومة على هذا الوجه وابى
الا الحرب فلا شئ يمنعني حينئذ عن التغالي فيه حتى يصير احدنا افقر اكابر
مملكته ولا اخشى أن اكون انا المغلوب بل ادخل في الحرب بقلب سليم لا ينزع
وآمل النصر والنجاح بل واجزم به واتيقنه كيف لا والحق معي ولي ما يؤيدني
وهو التئام رعيتي وكثرة جنودي وشجاعتهم وامانة رؤساء عساكري وكثرة

مطلب
دعاء الامبراطور الملك
فرنسيس الى مقاتلة
خصوصية

سنة ١٥٣٦

تجاريبهم واما ملك فرانسا فليس له شئ من ذلك فلو لم تكن وسائلي اكثر من وسائله ولم يكن رجائي في النصر مؤسسا على اسباب اقوى وآكد من اسبابه لذهبت اليه حالا مغلول اليدين والعنق ووقعت على اقدامه وطلبت منه العفو والسماح

وقد خطب الايمبراطور هذه الخطبة الطويلة بعلو صوته مع الحمية والحماسة على وجه يؤذن بالامارة والشمم وكان الرسل الفرنساوية لا يفهمون جميع معاني ما احتوت عليه هذه الخطبة لانه قالها باللغة الاسبانيولية فتحيروا كل التحير حيث كانوا لا يعرفون ما يجيبون به عن هذه المسبة الظاهرة التي لم تكن تخطر لهم ببال واراد احدهم أن يتكلم ليبرئ سيده من ذلك فاسكته الايمبراطور باغلاظه عليه ولم يأذن له بالكلام واما البابا فلم يتعرض له بشئ وانما اوصى بالصلح واوجز في العبارة مع الحمية والحماسة قائلا سابذل جميع وسعي في ايقاع الصلح بين الملل النصرانية حتى لا يقل نظامهم ويختل حالهم ثم انقضى المجلس وقام اربابه وهم في غاية العجب من قول الايمبراطور* ولا شك أن الايمبرطور في هذه المرة قد تجاوز عادته وعدل عن سنن طباعه حيث كانت عادته أن يتفكر في العواقب ويسلك سبيل الحزم والتبصر ويراعي مكارم الاخلاق وشعار الادب فيخفي مآربه ومقاصده حتى لا يدركها احد وطالما تعجب الناس من وجود هذه الخصال فيه في غير هذه المرة واما في هذا المجلس فسلك مسلك الجراءة والسفه حيث مدح نفسه وافتخر في ديوان الكردينالات بغزواته وحروبه وظفره باعدائه وسب خصمه كل المسبة ودعاه الى القتال الخصوصي على وجه يليق بابطال الحكايات الباطلة والخرافات التي لا تليق بمن كان اذ ذاك اعظم ملوك النصرانية ولكن يسهل توجيه ذلك عندي اذا التفت الانسان الى ما وقع له غير مرة من الظفر باعدائه ومدح المملقين فان ذلك له تأثير قوي ولو في النفوس العلية وكيف انه صد السلطان سليمان مع شدة بطشه وقوة شوكته اذ ذاك واخذ مملكة بربروس مع عظم صولته وهيبته في سائر السواحل ولا يرى نفسه أنه غضنفر اوانه وضرغام زمانه وكان من حين

مطلب
اسباب تفاخره وتظاهره بمدح نفسه

سنة ١٥٣٦

رجوعه من افريقة منصوراً والاعياد والمواسم العامة مستمرة لا تنقطع وكان بها اشهار نصره وتفخيم مقامه وقدره فكأن لسان حالها يحدثه برفعة شأنه وعلو مكانه وقد انفق الشعراء والادباء من مملكة ايطاليا كنوز قرائحهم في مدحه وجادوا بينات افكارهم في بث مآثره وفضله وكانت هذه المملكة ازهى ممالك الافرنج وابهجها في الآداب والفنون المستظرفة وزيادة على ذلك كان المنجمون يخبرونه أن مستقبله يكون اعظم من ذلك فاخذته النشوة حين ارتشف من تلك الاقداح * التي هي من دواعي الفرح والانشراح * وغفل عن عادته من الاحتراس والسكينة فعربد * وارغى بالتفاخر في هذا المحفل العام وازبد * حيث اوسع في الخطاب * وابدى للحاضرين العجب العجاب والظاهر أن الامبراطور قد احس بخطأه حالا فانه لما حضر بين يديه رسل فرنسيس في اليوم الثاني والتمسوا منه توضيح ما قاله في شأن الحرب الخصوصي اجابهم بانه لا يلزم الالتفات الى ذلك وانما قلته حقنا لدماء الرعايا وبذل جهده في تلطيف عبارات أخرى كان قد قالها في خطبته وتكلم معهم في شأن سيدهم بعبارات مؤذنة بالادب والاحترام * ولا يخفى أن مثل ذلك لا يكفي في جبر ما وقع منه من المسبة في حق الملك فرنسيس ومع ذلك لم يزل هذا الملك يتداول مع الامبراطور طامعا في انهاء المشاجرات بالتي هي احسن فلما رأى الامبراطور أنه قد عمي بصره وبصيرته حيث لا يبصر حبائل الخداع والمكيدة اخذ يداهنه فاظهر له انه يريد قبول ما عرضه عليه وكان في اثناء ذلك يدبر اموره ويستعد بما يلزم لتنجيز اغراضه ومآربه

مطلب دخوله في مملكة فرانسا

وبعد أن جهز الامبراطور جميع المواد والمهمات اللازمة جمع في ضواحي دوقية ميلان جيشا جرارا يبلغ اربعين الفا من المشاة وعشرة آلاف من الخيالة واما جيش الفرنساوية فكان دون ذلك في العدد وكان قد عسكر قريبا من مدينة ورسيلي في اقليم بيمون وتخلت عنه طائفة من عساكر السويسة فنقص جدا وصار اقل من الجيش الامبراطوري بكثير وسبب تخليها أن الامبراطور بمداهنته وتحيله حمل الاقطار الكاثوليقية على طلب هذه

سنة ١٥٣٦

الطائفة متعللا بانه لا ينبغي للسويسة أن يقاتلوا دوق سابوة لانه حليفهم من قديم * وبناء على ذلك كان سرعسكر الفرنساوية يخشى من القتال فكان يبعد كلما قرب منه جيش الايمبراطور وكان الايمبراطور مع جيشه وكان الرؤساء معه الملتزم دوغواست والدوق دالبه والامير فردينندد وغونزاغ وكان سرعسكره الامير أنطوان دوليوة وكان جديرا بهذا المنصب لغزارة معارفه وادمانه على التجاريب ووقائع الاحوال * فعما قليل اظهر الايمبراطور أنه ليس قصده الاقتصار على فتح اقليم پيمون ودوقية سابوة بل مرامه الاغارة على الاقاليم الجنوبية من مملكة فرانسا وكان يدبر امر هذا المشروع منذ زمن طويل ويبذل جهده في جمع المواد والمهمات اللازمة لتنجيزه مع العزم التام حتى ينجح فيه ويظفر بمقصوده وكان قد بعث الى اخته اموالا كثيرة وكانت حاكمة في مملكة البلاد الواطية وكذلك الى اخيه فردينند ملك الرومانيين وامرهما أن يجمعا ما يمكنهما جمعه من العساكر ليجعل منهم فرقتين احداهما تدخل مملكة فرانسا من جهة پيكارديا والاخرى من جهة اقليم شمپانيا وهو يدخل بجيشه الجرار من الجهات المقابلة لهاتين الجهتين من المملكة المذكورة

ولكن لم يوافقه وزراؤه ورؤساء عساكره على هذا المشروع واخبروه انه يصير عرضة لاخطار عظيمة اذا ذهب بعساكره الى تلك الاقطار الفرنساوية وبعد عن مخازنه خصوصا وهذه الاقطار لا يوجد فيها ما يكفي مؤونة اهلها وترجوه أن يلتفت من جهة الى كون مملكة فرانسا لا تعجز ابدا عن الحرب مادامت تدافع عن نفسها ومن جهة اخرى الى بطش اشراف الفرنساوية اذا انطلقوا بالشهامة وتدرعوا بالحمية للذب عن ملك يحبونه حبا جما واجلاء العدو عن وطنهم * وذكروه بما حصل من الخذلان للدوق دي بوربون والامير پسكير حين شرعا في مثل هذا الغرض مع أن مقتضيات الاحوال اذ ذاك لم تكن دون مقتضيات هذا الوقت في المساعدة * وكان اكثرهم الحاحا عليه في هذا المعنى هو الملتزم دوغواست حيث خر على اقدامه وترجاه أن يعدل

عن هذا

سنة ١٥٣٦

عن هذا المشروع الخطر ولكن الاسباب العديدة التى حملت الامبراطور على قصد هذا المشروع لم تسوغ له أن يسمع اهم قولا ولا أن يقبل منهم صرفا ولا عدلا وكان عادة ينذر عدوله عما عزم عليه لاسيما فى هذه المرة فانه كان يريد رغم انف خصمه الملك فرنسيس وكان ثم بواعث تحمله على ازدرائه واحتقار معارفه وانكار فضله وفى الحقيقة كان هنالك بون بعيد بين معارف هذا ومعارف ذاك وكان الامبراطور مغرورا بظفره وحظه بل ربما كان معولا على قول من اخبره من المنجمين بانه سيكون مستقبله سعيدا وانه لا يزال يرقى الى اوج المعالى فابى الا تنجيز هذا المشروع بل عزم على التوجه الى بلاد فرنسا قبل التغلب على اقليم بيمونت وانما اخذ منه بعض قلاع لازمة جدا لتكون وصلة بين جيشه ودوقية ميلان

مطلب
تغلب الامبراطور على جزء من دول دوق ساووة

وكان الملك فرنسيس قد اقام الملتزم دوسالوسة على طائفة صغيرة من العساكر معدة لحماية بيمونت فاهمل الملتزم المذكور فى هذا الثغر حتى استولى عليه الامبراطور مع السهولة وكان هذا الملتزم قد تربى بديوان فرانسا وكان الملك فرنسيس يغدق عليه بالخيرات الجزيلة فشرفه بائتمانه له واقامته بهذا الثغر العظيم الا انه ترك سيده على حين غفلة وخانه بدون سبب ولا علة تغضبه وتوجب ذلك بل كانت اسباب خيانته واهية باطلة كما كان فعله من باب الجبن وذلك انه كان من اهل البدع والاوهام فكان يصدق باخبار المنجمين فجزم بان المملكة الفرنساوية قد حان اوان انقراضها وأن الامبراطور سيضع اساس دولته على آثارها فبناء على ذلك رأى من الحزم والصواب أن ينضم الى حزب الامبراطور حيث ان الدهر يساعده ويسالمه ورأى انه لا يستوجب لنفسه لوما ولا يلحقه عار اذا تخلى عن حزب يريد الله سبحانه وتعالى دماره * وكان غدره كبيرا وخيانته فاحشة حيث انه لاجل أن يفتح للاعداء ثغور فرانسا استعان بالشوكة والصولة التى كان قلده بها الملك فرنسيس وجميع ما عرضه عليه الضباط الذين كانوا تحت حكمه اوهموا بفعله لاجل دفع الاعداء وطردهم انكره عليهم او اضاع ثمرته

سنة ١٥٣٦

فاهمل بالكلية فيما يجب عليه من المدافعة من حيث كونه رئيس المحافظين وبهذا السلوك القبيح الذى اكسبه الخزى والمعرة جعل القلاع والحصون غير صالحة للمقاومة حيث جردها عن الزاد والادوات والاسلحة والمهمات فكان لا يلحق جيش الايمبراطور تعب ولا مكابرة فى التغلب على اقليم پيمون لولم يكن الامير مونبيزات محافظ مدينة فوسانو قد ابدى العجب العجاب من الشجاعة والمهارة حتى اوقف جيش الايمبراطور شهرا كاملا أمام هذه المدينة الصغيرة

مطلب
صورة مادبره الملك فرنسيس للمدافعة عن مملكته

ولما حصل هذا العائق للجيش الايمبراطورى اتسع الوقت مع الملك فرنسيس وامكنه أن يجمع قواه وعساكره ويدبر امر المدافعة عن بلاده وينقذها من تلك الاخطار والاهوال واقتصر على ما يمكنه أن يقاوم به عدوه وينجو من صولته وشدة بطشه وما اظهره من الحزم والاصابة فى انتخاب الوسائط التى احترس بها ومن العزم والمواظبة فى اجراء تلك الوسائط جدير بالمدح وحسن الثناء حيث كان مخالفا لحميته الطبيعية كما كان مباينا للطباع الملة الفرنساوية فالزم نفسه بالاقتصار على المدافعة وعدم المخاطرة بعساكره فى القتال الا اذا جزم بالنصرة له وعزم على أن يحيط معسكره بتحصينات منتظمة وأن لا يضع المحافظين الا فى اعظم القلاع والمدائن الحصينة وأن يخرب البلاد التى يدخل منها العدو حتى يهلك جوعا ولا نضرر فى خراب اقليم يترتب عليه نجاة المملكة بتمامها وفوض امر ذلك للمارشال دوموتمورانسى وكان هو المبتدع لهذا الامر وما كأنه الا جعله الله سبحانه وتعالى لتنجيز هذا المشروع المهم فكان ذا شمم وانفة وكان صعبا جبارا يعجب بنفسه وبمعارفه ويزدرى معارف من عداه وكان لا يعشق ولا يشفق فكان اذا عزم على شئ لا يعدل عنه حتى ينفذ امره

مطلب
تفويضه اجراء هذا الامر الى المارشال موتمورانسى

فانشأ المارشال معسكرا حصينا تحت اسوار مدينة اوينون على ملتقى نهر الرون ونهر دورنسة فكان احد هذين النهرين يجلب الى عساكره من داخل المملكة جميع ما يلزم لهم وكان النهر الآخر يحصن معسكره من الجهة

مطلب
وضع معسكره بقرب مدينة اوينون

التى

سنة ١٥٣٦

التي يظن أن العدو يأتي منها واشتغل من غير اهمال بتحصين هذا المعسكر حتى جعله حصنا منيعا وجمع فيه جيشا عظيما وان كان دون جيش الامبراطور عددا واما الملك فرنسيس فاخذ طائفة اخرى من العساكر ونصب معسكره بقرب مدينة والنسه على شاطئ نهر الرون فوق معسكر المارشال ورأى انه لا يلزمه الا تحصين مدينتين وهما مدينة مرسيليا ومدينة ارلس اما الاولى فليكون متمكنا من البحر واما الثانية فوجه لزوم تحصينها أن تكون حصنا لاقليم لنغدوق فوضع في هاتين المدينتين طائفة عظيمة من المحافظين والخفر وانتخبهم من اعظم جنوده وجعل عليهم ضباطا لا يعهد فيهم الا الامانة والشجاعة وحمل اهل المدائن الاخرى وسكان الغيطان والفلوات على ترك بيوتهم ووزعهم فجعل بعضهم في الجبال وادخل بعضهم في المعسكر وارسل الباقي الى داخل المملكة وهدمت سائر الحصون والقلاع التي يمكن أن ياوى اليها العدو ويدافع بها عن نفسه ونقلت الحبوب وانواع المطعومات والذخائر والعلوفات من تلك الاماكن وخربت الطواحين والافران وردمت الآبار وغيرها حتى صار لا ينتفع منها بشئ فكنت ترى الارض مقفرة كالصحراء من جبال الپ الى مدينة مرسيليا ومن شاطئ البحر الى دوقية دوفينة ولا يرى في التاريخ أن ملة متمدنة فعلت مثل ذلك الامر الشنيع المنكر لتدافع عن بلادها

مطلب دخول الامبراطور في اقليم بروونسة

وقد وصل الامبراطور مع طليعة جيشه الى ضواحي اقليم پروونسة وكانت نشوته لم تزل متسلطنة عليه وآماله متعلقة بالنجاح حتى انه لما نزل بعساكره واضطر لانتظار بقية جيشه ومضت عليه عدة ايام في هذه المحطة صار يقسم على ضباطه البلاد التي كان يؤمل فتحها ويعدهم بمناصب مملكة فرانسا واراضيها ويبين لكل منهم سهمه ليشتد عزمهم وتقوى قلوبهم لكنه لما جال في البلاد ورأى الاراضي خربة مقفرة كالصحارى داخله اليأس وزال من نفسه ما كانت تسوله له آماله وادرك أن الملك الذي يخرب اقليما من اغنى اقاليمه وابهاها لابد وأن يكون مصمما كل التصميم على المدافعة عن الاقاليم

الاخرى واما الدونغا التى كان يعتمد عليها فى تحصيل قوت جيشه فعطلتها الرياح وحصلت لها عوائق اخرى فمكثت زمنا طويلا لا يمكنها الدنو من سواحل فرانسا فلما رست بعد معاناة وتعب رأى الايمبراطور أن ما فيها من الذخائر والمؤنة لا يكفى جيشه الجرار وكان لا يطمع فى شئ من اقليم پرونسة ولا من بلاد دوق ساووة لانهما مكثت مدة طويلة وهى تصرف على جيشين عظيمين فتحير فى امره وصار لا يدرى ما يصنع بجيشه فى تلك البلاد ولا من اين يطعمه لانه وان كان حينئذ مستوليا على هذا الاقليم العظيم ماعدا بعض بلاد منه الا انه كان لا يعد نفسه مستوليا عليه حقيقة حيث لم يجد فيه الامدائن غير حصينة بخلاف الفرنساوية فكانوا متحصنين فى معسكرهم بقرب اوينون وكان بايديهم مدينتا مرسيليا وأرلس ولم يكن ثم مدينة محصنة سواهما فاراد الايمبراطور أن يبدأ بالهجوم على معسكر الفرنساوية وينهى بذلك أمر الحرب الا أن الضباط الماهرين الذين بعثهم ليكشفوا له عن كيفية وضعه اخبروه بعد اطلاعهم عليه بانه لا يتمكن منه باى وجه كان فامر بوضع الحصار على مدينة أرلس ومدينة مرسيليا مؤملا أن الفرنساوية يبادرون الى اعانة هاتين المدينتين ويتركون المعسكر المحكم الوضع الذى كانوا به لكن لما كان المارشال مونتمورانسى لا يعدل عما صمم عليه لم يتحول عن معسكره وتلقى محافظوا المدينتين عساكر الايمبراطور بقلب ثابت وعزم عجيب حتى الجأهم الى رفع الحصار بعد أن هلك مقدار منهم وباؤا بالخزى والمعرة* فخاطر الايمبراطور ودنا من مدينة اوينون الا أن العساكر الخفيفة كانت تخرج عليه من المعسكر وتطرد عساكره حتى سئموا واشتد بهم النصب والتعب ونزلت بهم الامراض ويئسوا كل اليأس من امكان ازالة تلك العوائق الكبيرة والموانع الكثيرة التى كانوا لا يترقبونها

مطلب
محاصرته لمدينة مرسيليا

وفى مدة الحرب كان مونتمورانسى يكابد المشاق من جهة عساكره اكثر مما اهمه من جهة العدو وذلك أن حمية عساكره الفرنساوية ومحبتهم لوطنهم اخرجتهم عن طور العقل والحزم وافضت بهم الى ترك سبل السياسة والتبصر

مطلب
ثبات مونتمورانسى فى تجهيز مادبره للمدافعة عن مملكة فرانسا

فى العواقب حتى ان مملكة فرانسا لهذا السبب كانت قد اشرفت على الوقوع فى الاهوال والمصائب التى كان مونتمورانسى بسياسته وحزمه يحاول اجتنابها وابعادها عنها فلم يستطع الفرنساوية المكث بدون حرب والعدو نصب اعينهم يخرب وطنهم و بلادهم وداخلهم القلق والجزع من طول المدة التى مضت عليهم وهم محجوزون عن الحرب ولم يدركوا الفوائد الجليلة التى كانت نصب عين المارشال مونتمورانسى من المنهج الذى سلكه للمدافعة عن المملكة فطلبوا الحرب والقتال مع الالحاح والابرام وعدوا ما سلكه المارشال مما يزرى بالملة الفرنساوية و يكسبها الخزى والعار وكانوا يرون أن حزمه وتبصره فى العواقب ليس الامن باب الخمول وأن احتراسه عجز وتثبته فى اتباع هذا المنهج الذى اختاره للمدافعة ليس الامن قبيل العناد والكبر وفشا ذلك اولا بين العساكر واصاغر الضباط ثم سرى الى عقول اكابرهم وكان اغلبهم يغار من حظوة المارشال مونتمورانسى عند الملك وسئم البعض الآخر من كبره وشممه فعما قليل عم الغم سائر المعسكر وجعل العساكر والضباط يتضجرون سرا بل و يظهرون التشكى من سلوك المارشال المذكور ولم يكن لذلك كله تأثير عنده كما أن ما صنعه العدو كذلك بل لم يزل مصمما على قصده مقيما بالمعسكر لكنه لاجل تسكين ما داخل العساكر من الغضب الذى لحقهم من سكونه المباين لحميتهم الطبيعية سلك مسلك الرفق واللين على خلاف عادته فكان فى الغالب يراعى خواطرهم مهما امكن و يفصح للضباط عن الاسباب التى الجأته الى عدم التعرض للعدو و يوضح لهم ما يترتب على ذلك من الفوائد وما يعقبه من النجاح العظيم و بعد ذلك حضر الملك فرنسيس الى المعسكر بقرب اوينون وانضم الى الجيش الذى كان بالمعسكر عدة طوائف كبيرة من العساكر فرأى فرنسيس حينئذ أن جيشه قد تقوى وصار قابلا لمصادمة جيش الامبراطور ومقاومته *وكان فرنسيس قد غلب على نفسه حتى رضى بمكث عساكره تلك المدة الطويلة وهى مقتصرة على المدافعة وكان يميل الى المشروعات الجسيمة التى تستلزم الجسارة والجراءة وربما كان تحريض

(سنة ١٥٣٦)

عساكره وضباطه له واظهارهم القلق والجزع من اقتصارهم على المدافعة والعدو ويخرب اوطانهم يحمله على العدول عما سلكه مو تمورانسى من الرأى المبنى على الحزم والاصابة فيغير على جيش العدو ويضيع الثمرة الجليلة التى كان يترقبها مو تمورانسى من هذا التدبير الصائب المبنى على مزيد الاحتراس والتبصر فى العواقب

مطلب التجاء جيش الايمبراطور وما آل اليه من الحالة السيئة

ولكن لحظ مملكة فرانسا وسعدها سار الايمبراطور بجيشه فكان ذلك سببا فى نجاة هذه المملكة من الاخطار التى كان من الجائز أن تقع بها لو حصلت المجازفة من الفرنساويه وهجموا على جيش الايمبراطور وذلك أن الايمبراطور مكث شهرين فى اقليم پرونسه وهذه المدة تعد كثيرة بالنسبة لشهرته ومقامه ومع ذلك فلم يمكنه تحصيل مرامه واضطر الى الخروج من هذا الاقليم ولم يفعل ما يكون جديرا بالتجهيزات الجسيمة التى جهزها قبل شروعه فى الحرب ولا ما يؤيد افتخاره فى ديوان البابا أمام الكردينالات ورسل الممالك الافرنجية وغيرهم حيث بالغ فى وصف بطشه وشدة بأسه * وهلك من اصحابه الشهير انطوان دوليوة وعدة أخرى من ضباطه الماهرين الممتازين ومات نصف جيشه من المرض والمجاعة وصار الباقى لا يمكنه أن يصبر على مكابدة الاهوال والمصائب بعد أن عاينوا اخوانهم يهلكون أمامهم على اسوء حال فألجأته الضرورة الى الارتحال فامر بذلك ولم يدرك الفرنساوية غرضه من السير بعساكره فلم يتبعوه والاهلك جيشه عن آخره فان طائفة من العساكر الخفيفة قد تبعته مع عدة جماعات من الفلاحين الذين حنقوا من العساكر الايمبراطورية وكانوا ينتظرون فرصة تساعدهم على الانتقام من هؤلاء العساكر الذين خربوا بلادهم ونشروا فيها عتوهم وفسادهم فادركت تلك الطائفة ساقة الجيش الايمبراطورى وصارت تهجم عليها مرة بعد أخرى حتى اوقعت فيها الاختلال والارتباك بحيث صار الاولى أن يقال فى سيرهم انه ادبار وفرار وحركات هروبية لا سير رجوع على اصول الحركات العسكرية فكنت ترى الطريق مشحونة بالاسلحة والامتعة والمهمات ومستورة بالرمم والمرضى والجرحى وبالجملة فقد شاهد المؤرخ

مارطن

(سنة ١٥٣٦)

مارطين دو بيلى بعينى رأسه الجيش الايمبراطورى وهو فى هذه الحالة السيئة المحزنة فلم يرا وفق به من تشبيهه ببنى اسرائيل حين استولى عليهم الرومان واذاقوهم بقسوتهم من انواع العذاب ماتقصر عنه العبارة* فلو تقدم المارشال مونتمورانسى مع جيشه وادرك الجيش الايمبراطورى بهذه الحالة لاباده عن آخره لكنه لطول المدة التى مكثها مقتصرا على المدافعة كان قد ارتكن من الحرص والاستخوان فلفرط حرصه وتؤدته لم يعدل عن منهجه الاول ولم يغير حاله سريعا كما تغيرت الاحوال والمقتضيات بل كان يلهج دائما بقوله ترك الاسد عند فراره اولى من اقتفاء آثاره وكان يقول ايضا ينبغى انشاء قنطرة من ذهب للعدو اذا ذهب

ولما وصل الايمبراطور بما كان متفرقا من بقايا جيشه الى ثغور دوقية ميلان ولى الملتزم دغواست على هذه الدوقية بدلا عن الامير انطوان دوليوه ثم سافر الى جنيورة لكن لم يمكنه أن يمر بالمدائن التى مر بها اولا فى بلاد ايطاليا مع الابهة العظيمة قاصدا فتح بلاد جديدة بل صمم على الرحيل الى بلاد اسبانيا خشية أن يزدرى به الايطاليون ويحتقروه لما لحقه من النكبة والمذلة فى رجوعه حيث خابت آماله وهلكت رجاله

شهر تشرين الثانى
مطلب
الحرب فى اقليم بيكارديا

واما جيوشه التى شنت الغارة على مملكة فرانسا من الجهات الاخرى فلم يحصل لها نجاح عظيم بحيث تجبر ما خسره فى اقليم پرونسه وذلك أن دو بيلى بسلوكه مسلك الخداع وايقاع الفتن والدسائس حمل كثيرا من امراء المانيا على استرجاع جميع العساكر التى كانوا امدوا بها ملك الرومانيين فاضطر هذا الملك الى العدول عما كان عزم عليه من الاغارة على اقليم شمبانيا واما الجيش الكبير الذى خرج من مملكة البلاد الواطية فانه لما دخل اقليم بيكارديا وجده خاليا عن الحرس لكون جميع عساكر المملكة كانوا قد انتقلوا الى جهة الجنوب ولكن تسلح الامراء والاشراف ومنعوا بشجاعتهم وشهامتهم أن يحل بالمملكة من المصائب ما كانت عرضة له بسبب اهمال ملكها فى تحصينها من تلك الجهة فدافعوا عن مدينة پيرون وغيرها من المدائن

(سنة ١٥٣٦)

مع قوة العزم وفرط الشجاعة حتى ارتحل عساكر الايمبراطور ولم يمكنهم فتح مدينة او بلدة مهمة

فانظر الى خيبة آمال الايمبراطور ودمار عساكره مع مابذله من الجهد الغريب وكان سبب ذلك حسن التدبير من الملك فرنسيس والتئام رعاياه وشجاعتهم ولم يحصل للايمبراطور فى حروبه الطويلة مع فرنسيس مثل هذه الوقعة التى خسر فيها خسارة كانت اضر عليه من غيرها حيث اورثته الهوان والمذلة فضعفت بذلك شوكته وانحطت قوته ولكن حصلت حادثة اخرى مشؤومة ضيعت على فرنسيس ماداخله من سرور الظفر والنجاح فى هذا الحرب وهى موت اكبر اولاده وولى عهده وكان يلوح على هذا الامير تباشير الفلاح وكان الاهالى يحبونه كثيرا لانه كان يقفو اثر والده وكان موته فجأة فلذا قيل انه مات بالسم ولم تكن تلك الاشاعة مقصورة على العامة الذين من دأبهم نسبة موت اعيان الناس الى اسباب غريبة بل قال بذلك ايضا فرنسيس ووزراؤه واتهم به القونتة دومونتكوكولى وكان من بيكزادات ايطاليا لانه كان ساقيا لهذا الامير فقبض عليه وعذب لاجل الاقرار فادعى أن الجنرال ليوة والجنرال غونزاغ هما اللذان حملاه على ذلك بل افاد أن الايمبراطور له دخل فى هذا الامر لكن لم يكن ذلك منه بطريق المباشرة وكان الفرنساوية اذذاك يبغضون الايمبراطور بغضا شديدا فجزموا بانه هو السبب فى ذلك ولم يلتفتوا الى ما ابداه هو وضباطه من تبرئة انفسهم من هذا الامر المنكر ولا الى غضبهم من نسبة هذه الفعلة الشنيعة اليهم * وفى الحقيقة لم يكن هناك مايدعو الايمبراطور الى ارتكاب هذه الخطيئة فان الملك فرنسيس كان له ولدان غير الدوفين المتوفى وكان كل منهما قد بلغ رشده بحيث يمكنه أن يخلف اباه فى المملكة وكان والدهما ايضا قوى البنية سليم الصحة فلو قطعنا النظر عن طبع الايمبراطور ولم نلتفت الى كونه لم يرتكب مدة حياته من المنكرات ما هو من هذا القبيل صح أن نحكم من هذه الحيثية اعنى وجود عقب لفرنسيس مع قوة بنيته وصحة

مطلب
موت الدوفين اى ولى العهد

مطلب
نسبة موته الى السم

(سنة ١٥٣٦)

بدنه ببراءة الايمبراطور من تلك التهمة ويكون ذلك موازيا لما ادعاه عليه القونتة دومنتكوكولى من نسبة ذلك اليه بسبب ما لحقه من الاكراه وشدة العذاب ولو لم يكن لفرنسيس اولاد صالحون لخلفه وكان ضعيف البنية لامكن تسليم هذه الدعوى وقبولها هذا والذى ذهب اليه المؤرخون أن سبب موته هو أنه اكثر من شرب الماء البارد بعد أن لعب الكورة واشتدت به السخونة والحرارة وهذا اقرب الى الصواب من الاول وعلى فرض أنه مات بالسم فلا مانع مما ادعاه الايمبراطور من أن السم انما اعطى له بامر الاميرة كاترينه دوميديسيس ليبقى التاج الملوكى لزوجها دوق دورليان وهو الثانى من اولاد الملك فرنسيس اذ لا شك أن لها مصلحة عظيمة فى موت الدوفين اى ولى العهد ومن المعلوم انها كانت شديدة الطمع فلا يبعد عليها أن ترتكب مثل هذا الامر المنكر حيث تعين طريقا الى بلوغ مرامها

(سنة ١٥٣٧)

مطلب

الفرمان الصادر من ديوان برلمان باريس فى شأن الايمبراطور

وقد افتتحت السنة الجديدة بحادثة غريبة وان لم تكن بالنظر لذاتها مهمة ولا جديرة بالذكر الا أنها تدل اتم الدلالة على ما كان بين الايمبراطور وفرنسيس من شدة البغضاء والعداوة حيث فعل كل منهما فى حق صاحبه من الامور القبيحة ما يزرى بعرضهما وذلك أن فرنسيس ذهب بارباب ديوان البير (ديوان امراء الدولة) وامراء عائلته الملوكية الى برلمان باريس (مجلس وكلاء الملة) وجلس به على حسب الرسوم الجارية ثم قام الخطيب الاعظم وقال فى شأن الايمبراطور معنونا عنه باسم كرلوس امير الاوستريسيا انه قد نقض مشارطة كمبريه التى خرج بموجبها من تبعية تاج فرانسا الملوكى التى كانت تقتضيها قونتية الفلمنك وقونتية ارتواس ثم برهن على أنه بنقض هذه المشارطة يجب أن ترد الاشياء الى اصولها ويبقى الايمبراطور كما كان من اتباع تاج فرنسا الملوكى وحيث ان الايمبراطور قد ارتكب ذنبا عظيما بعصيانه على ملكه يجب عليه أن يحضر بنفسه او يرسل وكيله الى مجلس البرلمان فى باريس لتحقيق دعواه ويحكم فيها بما تقتضيه الاصول فلما سمع ارباب الديوان هذه القضية الغريبة استحسنوها وقبلوها وبعثوا رسولا الى ضواحى

(سنة ١٥٣٧)

بيكارديا فلما وصل الى الايمبراطور طلب منه على حسب الرسوم المقررة أن يحضر الى مجلس البرلمان فى باريس بعد مدة معلومة فانقضت تلك المدة ولم يحضر الايمبراطور ولا وكيله فصدر من ديوان البرلمان فرمان يتضمن الحكم على كرلوس امير الاوسترسيا (يعنى الايمبراطور) بأنه قد خان وغدر واستحق أن ينزع ما بيده من الالتزامات لكونه خرج عن طاعة سيده وخالف القوانين بامتناعه عن الحضور الى الديوان فى الاجل المعين فنزع منه اقليم الفلمنك واقليم ارتواس وردا الى تاج فرنسا وامر الديوان المذكور باشهار هذا الفرمان واذاعته بصوت البوق على ضواحى هذين الاقليمين

مطلب
افتتاح الحرب فى مملكة البلاد الواطية فى شهر ادار

وبعد أن نشر فرنسيس هذا الامر الدال على حقده لا على بطشه توجه فورا الى مملكة البلاد الواطية قاصدا اجراء ما تضمنه الفرمان الصادر من برلمان مملكته والاستيلاء على الاراضى التى صدر الحكم بردها اليه وكان الايمبراطور قد سلم لاخته ملكة المجار حكومة البلاد الواطيه الآن فرنسيس اغار على تلك البلاد بغتة وكانت تلك الملكة لم تتأهب للمدافعة فلذا كانت النصرة فى مبدأ الامر لفرنسيس فاستولى على بعض مدائن حصينة ولكنه لما ترك جيشه وذهب الى جهة اخرى كانت ايضا تحتاج به وكان حضوره فيها ضرورا ياجمع اهل الفلمنك جيشا عظيما وفتكوا بجيشه واخذوا ثانيا أغلب المدائن التى كانت اخذت منهم وجعلوا يهجمون و يتغلبون على بلاد الفرنساوية حتى اخذوا بعض مدائن وحاصروا مدينة تروانه وكان الدوق دورليان قد انتقل اليه لقب الدوفين اى ولى العهد بعد موت اخيه البكرى وكان المارشال مونتورانسى قد كافأه الملك فرنسيس على ما بذله من الخدم الجسيمة فى مدة الحرب السابق بتقليده منصب الكونيتابل اى رياسة الجيوش فعزم كل منهما على المخاطرة والهجوم على العدو ليجبراه بذلك على رفع الحصار فبينما هما يسيران بالعساكر لهذا الغرض حتى لم يبق بينهما وبين العدو الا بعض اميال اذ اتاهما رسول من طرف ملكة المجار واخبرهما انه قد انعقدت مهادنة بين الايمبراطور والملك فرنسيس

وكان

(سنة ١٥٣٧)

مطلب
المهادنة المنعقدة في مملكة البلاد الواطية

وكان سبب هذه المهادنة التي انعقدت على حين غفلة سعى الاختين فيها وهي ملكة فرانسا وملكة المجار وذلك لان هاتين الاميرتين كانتا لا تغفلان ابدا عن الاصلاح بين الدولتين وكان الحرب الذي وقع في البلاد الواطية قد خرب ضواحي هاتين الدولتين من غير أن يعود منه نفع حقيقي على احد من الحزبين وكان كل من الفرنساوية واهل الفلمنك يتأسف على تعطيل التجارة وانقطاعها من بينهم لانهم كانوا ينتفعون منها انتفاعا عظيما وكان كل من الملك فرنسيس والامبراطور قد اهلك رعيته واوقعهم في الفاقة والفقر بما وقع بينهم ما قبل ذلك من الحروب والمقاتلات فرأيا أن تجهيز عساكر البيادة لاجل الحرب في البلاد الواطية لا يتأتى بدون اضرار للحرب في اقليم پيمون بل ذلك يجر الى ضعفه واضمحلاله مع أن هذا الاقليم كان مطمح نظرهما فهذه الاسباب كلها اعانت الاميرتين المذكورتين على مقصدهما من ايقاع الصلح بينهما وحملت الملكين على الرضا بالمهادنة فانعقدت الهدنة بينهما على عشرة اشهر لكن لمجرد ابطال الحرب من مملكة البلاد الواطية دون غيرها

٣٠ من شهر تموز

مطلب
المهادنة المنعقدة في اقليم پيمون

وكان الحرب في اقليم پيمون اشد من غيره نعم وان كان كل من الامبراطور والملك فرنسيس ليس له اقتدار على عمل الحرب بقوى تلايم بعضهما لبعضهما الا انهما كانا مستمرين على الحرب كخصمين تنعشهما البغضاء عند فتور قواهما وتحدث فيهما قوة جديدة فكانت المدائن التي يأخذها احدهما من صاحبه يأخذها الآخر منه ايضا وكان لا يمضي يوم الا ويقع فيه قتال بين الفريقين ولو هينا فكم سفكت بينهما دماء من غير أن يغلب احدهما صاحبه فارادت الملكتان أن يتمما ما ابدأتاه في شأن الاصلاح بينهما فالحت احداهما على زوجها والاخرى على اخيها حتى حملتاهما على الرضاء بعقد الهدنة ثلاثة اشهر في اقليم پيمون ووقع الاتفاق على أن كلا من الملكين يبقى مستوليا على البلاد التي تحت يده ويخرج جيشه من هذا الاقليم ولا يبقى فيه من العساكر الا المحافظين في المدائن ويعين كل منهما وكلاء من طرفه يفوض لهم امر انهاء تلك المشاجرات وبموجب حكمهم واقرارهم تنعقد مشارطة بتية بها

(سنة ١٥٣٧)

مطلب
اسباب هذه المهادنة

ينقطع الحرب وتزول اسبابه
ثم ان الاسباب التى دعت الملكين الى هذا الاتفاق هى عين الاسباب التى اسلفناها غير مرة وهى أن مصاريف الحرب كانت تزيد بكثير على ايرادهما وكان لا يمكنهما أن يشرعا فى ضرب مغارم جديدة على رعاياهما زيادة على المغارم القديمة لان الرعايا اذ ذاك لم يكونوا استعودين على تحمل مثل هذه المبالغ الجسيمة التى كانت مضروبة عليهم وقتئذ لاسيما الامبراطور فانه مع ما اقترضه من المبالغ الجسيمة كان لا يمكنه أن يصرف الماهيات الجمة التى كانت قد تراكمت عليه لعساكره حيث مكث زمنا طويلا لا يصرف لهم استحقاقهم وكان لا يطمع كالمدة السابقة فى الاعانة بالمدد والعساكر من طرف البابا او اهل البنادقة ومع ذلك كان يسلك معهم تارة مسلك الوعد والترغيب واخرى مسلك الايعاد والترهيب ولم يمكنه تحصيل مرامه منهم *أما البابا فكان لا يتحول عما صمم عليه من أنه يكون خلى الغرض بحيث لا ينتصر لاحدهما على الآخر فاظهر للامبراطور أنه من حيث كونه ابا النصارى كافة لا يليق به الا البحث عما يكون به الاصلاح بين الفريقين واما اهل البنادقة فكانوا لم يزالوا على رأيهم الاول من أنه يلزم ابقاء التعادل بين الخصمين وذلك لا يوجد عند اعانة احدهما على الاخر

مطلب
كون السبب الاقوى هو معاهدة الملك فرنسيس مع سلطان الدولة العثمانية

ولكن كان ثم امر اثر فى الامبراطور شرلكان تأثيرا اقوى من تاثير هذه الاسباب وهو خوفه من الدولة العثمانية وكان فرنسيس قد حرضها عليه وعقد المعاهدة مع السلطان سليمان وذلك أنه مكث مدة طويلة يتردد فى عقد المعاهدة مع هذه الدولة لان دول النصارى اذ ذاك كانوا يبغضون اهل الاسلام اشد البغضاء ويكرهون معاملتهم ويرون موالفتهم ومودتهم مما يوجب الفضيحة والمعرة او من قبيل الكفر مع أنه كان اضعف شوكة من الامبراطور وتحارب معه من غير أن يستعين باحد عليه ولكن غلبت الضرورة على خوف الملامة فانست فرنسيس ما يلحقه من اللوم والمذمة بمعاهدته مع اهل الاسلام وكان له سر اوكيل فى الدولة العثمانية يسمى لافوريت فعقد هذا

الوكيل

(سنة ١٥٣٧)

الوكيل فى اواخر السنة الماضية مشارطة مع السلطان سليمان تتضمن أن السلطان فى الحرب الآتى يهجم على مملكة نابلى وعلى ملك الرومانيين فى بلاد المجار وأن فرنسيس يهجم على دوقية ميلان مع طائفة من العساكر تكفى فى التغلب عليها وقد وفى السلطان من تلقاء نفسه بما وعد فان بربروس قدم الى سواحل مملكة نابلى بدونمة كبيرة وأوقع فى قلوب اهلها الفزع والرعب وكانت العساكر الايمبراطورية قد خرجت منها قاصدة اقليم بيمون فاخرج بربروس عساكره من السفن بدون مانع قريبا من ترنتة وجبر مدينة كسترة على التسليم وكانت حصينة منيعة وخرب ماجاورها من الاراضى والبلاد وجعل يحصن مافتحه من البلدان و يفتح بلاد النصارى حتى وصل اليه الامير دورية على حين غفلة وكان معه سفن البابا وعدة من سفن اهل البنادقة فطرده من تلك البلاد الا أن نجاح الاتراك ببلاد المجار كان اعظم من ذلك فان سرعسكرهم هزم عساكر المانيا فى الواقعة الكبيرة التى حصلت بمدينة اسيكة على نهر دراوة

ولكن لوفور حظ النصارى لم يكن للملك فرنسيس اقتدار على أن ينجز ماالتزم به فى المشارطة المنعقدة بينه وبين السلطان سليمان حيث لم يمكنه أن يجمع جيشا كافيا يشن به الغارة على دوقية ميلان فبذلك ضاعت منه الفرصة التى كان يمكنه بها أن يتغلب ثانيا على هذه الدوقية و ينزعها من يد العدو فبعجزه وضعف شوكته نجت بلاد ايطاليا من مصائب حرب جديد ووقيت أن تكون غنيمة لجيوش الاسلام بعدما كابدته من المشاق والاهوال السابقة *وقد ادرك الايمبراطور أنه لا يمكنه أن يستمر زمنا طويلا على مقاومة جيوش الاسلام و جيوش الفرنساوية وصار لا يؤمل النجاة الا اذا طرأت عوارض مساعدة لنجاة مملكة نابلى ودوقية ميلان من الخطر وادرك ايضا أن دول ايطاليا تتهمه بشدة الطمع وربما قامت عليه وخرجت عن طاعته اذا هو صمم على استدامة الحرب لانها بذلك تكون عرضة لاخطار عظيمة فلهذه الاسباب رأى أنه لا محيص عن الرضا بقبول

(سنة ١٥٣٧)

الهدنة لتوقف فخاره وأمنه عليها* وكذلك الملك فرنسيس لم يأب الصلح لكونه رأى أن ذلك مجلبة للوم والمذمة وايضا كان يخشى اذا هو امتنع من الصلح أن يغضب عساكر السويسة وغيرهم من العساكر الاجنبية الذين كانوا فى خدمته فيتخلوا عن حزبه وينفرد فى الحرب فلا يمكنه مقاومة الايمبراطور بل وكان يخشى ايضا أن تسأم منه نفوس الرعية بمساعدته لدولة الاسلام على توسيع دائرة ملكها مع أن الواجب عليه أن يكون على سنن اسلافه من اضعاف شوكتها وازالة صولتها وكره أن ينفر منه الاهالى اذا هو سلك هذا المسلك الذى لا يليق به لانه كان بمكان من الشهرة وكان يلقب تركرتيان اى شديد التمسك بدين النصرانية فرجح جانب هذه الاسباب ايضا ورأى أن مخاطرته بنفسه فى فسخ المشارطة مع السلطان سليمان اهون عليه من الاخطار التى يكون عرضة لها اذا عمل بمقتضى هذه المشارطة

مطلب المذاكرة فى شأن الصلح بين الايمبراطور والملك فرنسيس

ومع رضاء الجانبين بالهدنة حصل التوقف الكلى بين وكلائهما حين ارادوا عقد مشارطة بتية وذلك أن كلا من الملكين اراد أن يظهر بمظهر الغالب ويملى على صاحبه ماشاء من الشروط فاستنكف كل منهما أن يتساهل فى امره ويذعن للآخر فلم يتيسر تتميم المشارطة على احسن حال فلذا مكث الوكلاء مدة مستطيلة وهم يتفاوضون فى هذا المعنى وانتهى الحال الى تفرقهم وانقضاء المذاكرة بدون أن يبتوا فيها امرا وانما عقدوا هدنة ببعض اشهر

(سنة ١٥٣٨)

مطلب توسط البابا بنفسه فى الصلح

هذا وقد ظن البابا أنه ينجح فى هذا الغرض اكثر من الوكلاء فتصدى لذلك بنفسه والتزم بيت امر الصلح وكان له فى ذلك غرضان عظيمان احدهما أن يرتب عصبة قادرة على حماية الملل النصرانية من اغارات الجيوش العثمانية وثانيهما أن يبحث عن وسائط قوية بها يزيل مذهب لوتير الذى اضر بالكنيسة الرومانية وكان يرى أن التئام الايمبراطور مع الملك فرنسيس اعظم شئ يعينه على التوصل الى هذا الغرض وايضا رأى أنه ان سعى فى الاصلاح بين هذين الملكين يظهر الفرق بينه وبين البابات الذين حكموا قبله على كنيسة رومة واوقعوا التفاقم والشقاق بينهما لتنجيز مآربهم ورعاية مصالحهم

ويكتسب

(سنة ۱۵۳۸)

ويكتسب بذلك بهجة ورونقا فى الممالك ويمدحه الناس على حسن سياسته وادارته وربما كان يطمع أنه بالسعى فى تنجيز تلك المقاصد الجيدة يمكنه نفع عائلته لانه كان يسعى جهده فيما فيه نفعها ومصلحتها وان كان لا يظهر منه طمع ولا اجتهاد فى هذا المعنى كما كان اسلافه من بابات ذلك العصر ولما كانت هذه المآرب نصب عينيه عرض أن يتقابل الايمبراطور والملك فرنسيس بمدينة نيسة وأنه يجتمع معهما فى تلك المدينة ليصلح بينهما ويزيل اسباب التفاقم والشقاق فلما رأى الايمبراطور والملك فرنسيس أن البابا مع كبر سنه وجلالة قدره قد عزم على تحمل مشاق سفر بعيد رغبة فى الصلح وصمم على الارتحال من مدينة رومة الى مدينة نيسة لم يسعهما الا الاجابة الى المقابلة فذهبا الى المحل الموعود ولكن حصل التوقف فى كيفية الملاقاة على أى وجه تكون فى طريق الرسوم والتشريفات التى يجب على كل منهما أن يفعلها فى حق الآخر فحملتهما البغضاء والمنافسة على عدم الاجتماع وانما وقعت المذاكرة بينهما بواسطة البابا فكان يتردد بينهما ومع بذل جهده وحسن سلوكه وخلوص طويته وصدقه فى سعيه لم يمكنه أن يظهر على العوائق التى كانت تمنع من حصول الالتئام الكلى بينهما الاسيما ما يتعلق بدوقية ميلان ولم يمكنه ايضا مع صولته وجلالة قدره أن يوقع بينهما الصلح والوفاق ولكن لئلا يقال انه خاب فى سعيه حملهما على عقد هدنة بعشر سنوات وكانت شروطها عين الشروط المذكورة فى الهدنة الاولى حيث ذكر فيها أن كلا منهما يبقى معه ما هو الآن تحت يده وأنهما فى مدة الهدنة يبعثان رسلهما الى رومة ليتذاكروا فى هذه القضية مع التؤدة والتأنى

فهكذا كان آخر هذا الحرب الذى لم تطل مدته وانما كانت أهميته لاهمية ما حصل فيه من الوقائع وما بذله الخصمان فيه من الجهد * ثم وان كان فرنسيس لم يظفر بمقصوده الذى كان نصب عينيه وهو التغلب على دوقية ميلان لكنه حاز لنفسه شرفا عظيما وفخارا جسيما بنجاح جيوشه واصابة رأيه فى الوسائط التى احترس بها لدفع العدو وطرده عن مملكته وزيادة على ذلك اضاف الى مملكته

(سنة ١٥٣٨)

بلادا كثيرة حيث تغلب على نصف بلاد الدوق دوسابوة وضمها الى بلاده بخلاف الايمبراطور شرلكان فانه طرد ولحقه الذل والهوان بعد أن اظهر فى المحفل العام كما سبق أنه جازم بالنصرة واضطر الى اشتراء الهدنة بتخليه عن الدوق دوسابوة وكان يثق بمحبته ويعتمد على شوكته وصولته وطالما تشكى هذا الدوق وتظلم من هذه المشارطة التى انضرت به ولكن لم يجده ذلك نفعا وكان ضعيف الشوكة لا يمكنه المقاومة فى مثل تلك الاحوال فامتثل طوعا او كرها ولم يبق له من بلاده سوى مدينة نيسة واعمالها وماعدا ذلك تقاسمه الملك فرنسيس بظلمه واقتياته والايمبراطور الذى كان متعاهدا معه وتخلى عنه مع الحاحه عليه فى طلب الاعانة والاسعاف وهذه عبرة يعتبر بها اولو الابصار حيث يعلم منها أن الامراء الضعفاء الشوكة اذا كان بجوارهم ملوك ارباب شوكة قوية وحملهم عدم الحزم والتبصر فى العواقب على الدخول فى حروبهم لابد أن تضيع حقوقهم ويلحقهم الضرر عند الاصطدام

مطلب
مقابلة الايمبراطور شرلكان مع الملك فرنسيس فى مدينة ايغومورت

وبعد عقد الهدنة بايام ركب الايمبراطور البحر وسافر الى مدينة برسلونة الا أن اختلاف الرياح قذف بسفنه الى جزيرة سنتمارغوريطة على اطراف اقليم پرونسة وكان الملك فرنسيس قريبا من تلك الجهة فلما بلغه ذلك رأى من الواجب عليه ايواء الايمبراطور فى بلاده فعرض عليه أن يتقابل معه فى مدينة ايغومورت فلم ترض نفس الايمبراطور أن يكون دون فرنسيس فى الحلم وكرم النفس فلبى دعوته واجابه الى ماطلب وتوجه الى المحل الموعود فبمجرد أن رست سفنه ذهب اليه الملك فرنسيس حتى كأنه نسى الرسوم الجارية ونزل سفينته ولم ياخذ منه حذرا فتلقاه الايمبراطور مع غاية التعظيم والتبجيل واظهر له صدق المودة والمحبة ولما كان اليوم الثانى لم يأخذ الايمبراطور ايضا حذرا من الملك فرنسيس حيث نزل بمدينة ايغومورت بدون احتراس فتلقاه فيها فرنسيس مع التبجيل واظهار المحبة الصادقة كما فعل شرلكان معه حين نزل سفينته وقضيا تلك الليلة مع بعضهما على شاطئ الماء وكانا فى مسامرتهما يتسابقان الى اظهار الاحترام والتبجيل

(سنة ١٥٣٨)

لبعضهما فكانت هذه المقابلة عجيبة بالنسبة الى ماوقع بينهما قبلها فانهما مكثا عشرين سنة وهما فى حروب ومقاتلات مع بعضهما وعداوة مستمرة وطالما نقص احدهما بالآخر وسبه ودعاه الى القتال الخصوصى والنزال فى الميدان فقد وقع من الامبراطور غير مرة القدح فى فرنسيس والتشنيع عليه فى سائر الممالك الافرنجية ووصفه بانه ملك لاعرض له ولاشرف وكان فرنسيس قبل ذلك بمدة قليلة قد اتهمه بانه سم ابنه البكرى فانظر الى هذه الامور المتناقضة ولكن لاغرو فى ذلك فان تاريخهما مشحون بمثل هذه الامور الخشنية وقد ظهر فى ظرف هذه المدة اليسيرة انهما انتقلا من اشد البغضاء والعداوة الى صدق المحبة واكيد المودة ومن عدم الوثوق ببعضهما الى الائتمان التام ومن خداع اهل السياسة ومكرهم الى حسن النية وخلوص الطوية

وبعد أن اثبت البابا لنفسه الفخار بنشره الوية الصلح والاصلاح فى بلاد اوروبا اشتغل بترقية عائلته ونجح فى مقصوده وذلك أنه لم يزل يسعى ويبذل جهده حتى خطب من الامبراطور مرغريطة اميرة الاستروسيا للامير اوكتاوة فارنيز وكانت هذه الاميرة من ماء الامبراطور بدون نكاح وكانت اولا تحت الامير اسكندر دوميديسيس فمات عنها وتأيمت بعده فاعطى الامبراطور لخاطب بنته المذكورة تشريفات واراضى عظيمة وكانت تلك الاميرة قد فقدت زوجها فى اواخر سنة ١٥٣٧ بحادثة مشؤومة محزنة حاصلها أن هذا الامير لما ساعده الامبراطور وولاه الحكم على فلورنسة بعد أن جردها عن الحرية اهمل فى ادارة الحكومة واتبع سبيل اللهو واللعب ولم يكتف قريبه الامير لورنطة دوميديسيس بمشاركته فى سلوك هذا المسلك بل كان يرشده اليه ويغريه عليه فكان هذا الوزير يبدى للامير اسكندر من المسار والحظوظ ضروبا وانواعا حتى تمكن منه وصار له موقع عظيم عنده ولكن مع تجاوز لورنطة المذكور الحد مع هذا الامير فى الانهماك على الحظوظ والشهوات والمبالغة فى الترفه والرخاوة حتى كان لا يتقلد سيفا ويجزع

مطلب
قتل اسكندر دوميديسيس

(سنة ١٥٣٨)

لرؤية الدم كان بمكان من الطمع والحرص فانه لتولعه بالحرية اولطمعه فى نيل الحكومة عزم على الفتك بهذا الامير الذى كان يحبه ويغدق عليه بالخيرات الجليلة والعطايا الجزيلة فمكث مدة طويلة وهو يشاور نفسه فى هذا المقصد المهول وكان موسوسا لا يأتمن احدا على سره فلم يخبر بذلك احدا واستمر مع اسكندر على المحبة والالفة حتى خادعه ذات ليلة واظهر له أنه يريد أن يجمعه مع امرأة من الاعيان كان اسكندر يتمنى وصالها فاستولى على عقله بهذه الحيلة وادخله فى محل من منزله بحيث لا يراه احد ثم وثب عليه فقتله بخنجر وهو نائم على فراشه مهمل فى نفسه ينتظر قدوم هذه المرأة التى وعد بها فعند ذلك ارتعدت فرائص لورنطة ولحقه الخوف من ارتكاب هذا المنكر واشتد به الحال حتى صار كالجماد لا حراك به ونسى جميع الاسباب التى حملته على هذه الفعلة فغلق ابواب المحل الذى قتله فيه وفر هاربا كالمجنون الى ارض غير ارض فلورنسة عوضا عن كونه يحرض الاهالى على استرجاع حريتهم ويخبرهم بموت اسكندر الذى كان يظلمهم اويدبر بعض طرق يتوصل بها الى حيازة منصب من قتله ولم يعلم احد بقتل اسكندر الا فى اليوم الثانى بعد مضى مدة طويلة من النهار لان اتباعه وخدمه كانوا لعدم انتظامه فى معيشته لا يدخلون اليه فى الصباح فلما شاع الخبر اجتمع اكابر الدولة واعيانها وتفاوضوا فى شأن الحكومة ومن يقوم بها وكان الكردينال سيبو يحب عائلة ميديسيس لانه كان من اقاربها فعرض أن يولى على الحكومة الامير كوم دوميديسيس وكان عمره يومئذ ثمان عشرة سنة ولم يكن هنالك من الذكور من يرث هذه العائلة سواه ووافقه على هذا الرأى فرنسيس غيشاردين حيث ذكر اهل فلورنسة ببليغ كلامه وحماسة عبارته ماحل من الفتن والتعكيرات ببلادهم حين كانت حكومتها اهلية فرضوا بتولية هذا الامير عليهم الا أنهم لمحبتهم فى الحرية رتبوا له قوانين يعمل بمقتضاها حتى لا يكون مطلق التصرف فيهم فيسوء حالهم كالاول

مطلب
تولية كوم دوميديسيس على دولة فلورنسة

(سنة ١٥٣٨)
مطلب
تصدى المنفيين من فلورنسة لمنع توليته

واما لورنطة فانه لما نزل بمحل آمن حكى ماوقع منه للامير فيليبش ستروزى وغيره من اعيان فلورنسة الذين كانوا قد نفوا منها اوخرجوا بالطوع والاختيار حين نسخت الحكومة الجمهورية وترتبت حكومة العائلة الميديسيسية فشكروه على اقتراف هذه الخطيئة وشبهوه فى الفضائل برجلين يقال لكل منهما بروطوس احدهما انتهك حرمة الحقوق الطبيعية ولم يراع لحمة النسب (حيث قتل اولاده) رغبة فى حرية الوطن والثانى نقض علائق المحبة وابدل الشكر بالكفران (حيث قتل قيصر وكان قد تبناه واغدق عليه بالنعم) * ولم يقتصر اعيان فلورنسة المذكورون على مدح لورنطة بل خرجوا من المحال التى كانوا ملتجئين بها وجمعوا عساكر وجنودا وحرضوا اتباعهم واحزابهم على حمل السلاح وانتهاز تلك الفرصة العظيمة ليردوا حرية وطنهم الى اصلها واعانهم على ذلك رسول فرانسا الذى كان وقتئذ فى ديوان رومة وكان البابا ايضا يحثهم على هذا الامر سرا لانه كان لا يحب عائلة ميديسيس فدخلوا ارض فلورنسة مع طائفة كبيرة من العساكر ولكن كان الامراء الذين انتخبوا الامير كوم وقلدوه بالحكومة مستكملين لجميع الادوات اللازمة لتأييد انتخابهم له وحائزين لسائر المعارف اللازمة لاستعمال هذه الادوات فى محالها حتى يكون نجاحهم محققا فجمعوا فى اقرب وقت جنودا كثيرة واجتهدوا فى استمالة قلوب الاعيان اليهم وفى ترغيب الاهالى فى الملك الجديد واستعانوا فى هذا الامر بالامبراطور مظهرين له أنه لا شئ يؤيد كوم ويتم امر توليته الا هو بشدة بطشه وقوة عزمه وكان شرلكان يعلم أن اهل فلورنسة لهم رغبة عظيمة فى المعاهدة مع مملكة فرنسا وأنه مبغوض عند انصار الحكومة الجمهورية واحزابها حيث كانوا يرون أنه هو الذى تعدى عليهم واضر بحريتهم فبناء على ذلك كانت له مصلحة عظيمة فى منع تجديد الحكومة القديمة اعنى الحكومة الجمهورية فلم يقتصر على اقرار كوم بالرياسة على دولة فلورنسة ولا على تشريفه بالالقاب وغيرها مما كان للامير اسكندر قبله بل التزم ايضا بتاييده

(سنة ١٥٣٨)

وتعضيده وكف من يتعرض له بسوء ولاجل تحقيق هـذا الالتزام ارسـل الى ضـباط عساكر الايمبراطورية التى كانت معسكرة على ضواحى طوسكانه أن يقوموا بنصره ويعينوه على اعدائه فبهذه الاسباب انتصر كوم بالسهولة على اعيان فلورنســة المنفيين حيث فاجأهم ليلا وقبض عـلى اغلب رؤسائهم فخابت بذلك آمال المتحزبين واستمر كوم على كرسيه منصورا مؤيدا وكان يتمنى زيادة على هـذه الانعامات التى غمره بها الايمبراطور أن يتزوج بنته التى تأيمت بموت زوجها اسكندر الاأن الايمبراطور لما أعان كوم على الوجه المذكور رأى أنه بذلك قد استماله اليه وتحققت عنده محبته وصداقته فاثر عليه البابا وزوج بنته لقريبه (اوكتاوه)

مطلب
تناقص المحبة التى كانت بـين الملك فرنسيس والملك هنرى الثانى

وفى اثناء الحروب التى كانت بين الايمبراطور والملك فرنسيس حصلت حادثة ضعف بها ماكان بين ملك انكلترة وملك فرانسا منذمدة طويلة من المودة والمحبة وذلك أن ياكس الخامس ملك ايقوسيا كان شابا ذا جراءة وجسارة فلما بلغه أن الايمبراطور قصد الاغارة على اقليم پرونسة اراد أن يظهر أنه ليس دون آبائه واسلافه فى الميل والمحبة لمملكة فرانسا لاسيما وكانت فيه حمية تحمله على حيازة الشهرة والامتياز ببعض مشروعات حربيـة فجمع فرقة عسكرية وعزم على السير بها لاعانة الفرنساوية لكن طرأت له موانع مشؤومة منعته عن التوجه بهذا الجيش الصغير الى ارض فرانسا ومع ذلك لم يزل مصمما على الذهاب اليها بنفسه فركب البحر وسار حتى خرج الى البر فقصد فورا اقليم پرونسه لكن كان قد تأخر فى الوصول اليه لانه حصل له عائق فى السفر فلم يمكنه أن يدرك الحرب ويصل الى ملك فرانسا الابعـد ارتحال عساكر الايمبراطور فبمثل هذا السعى احبه الملك فرنسيس لاسيما وكان يخاطبه فى المحادثة بخطاب عذب * ويراعى من طرق الادب ماهو مألوف مستحب * فاخذ بلبه واستولى على عقله فلم يمكنه أن يمنع عنه بنته مادلينه حين خطبها لنفســه فلما بلغ هـذا الخبر الملك هنرى حصل له غم شديد لانه كان يغار من الملك ياكس

شهر كانون الثانى سنة ١٥٣٧

(سنة ١٥٣٨)

ولا يألفه حتى انه مكث زمنا طويلا وهو يعامله ويعامل رعاياه اسوء المعاملة فهو بالضرورة يتضرر من ذلك الزواج الذى يحوز به عدوه الشهرة وقوة الشوكة ورأى أن تعرضه لمنع فرنسيس من تزويج بنته لياكس مخل بالمروءة والادب خصوصا وهو ملك من عشيرة ملوكية كان آباؤه من قبله حلفاء للمملكة الفرنساوية ولكن ماتت تلك الاميرة بعد ذلك بقليل فطلب ياكس من فرنسيس أن يزوجه بنته الاخرى وهى مارية دوغيزة فجعل الملك هنرى عند ذلك يلح على فرنسيس كل الالحاح ويحمله على عدم الرضاء بهذا الزواج وطلب هذه الاميرة لنفسه ليخيب سعى ياكس ولكن لما كانت خطبة ياكس صادرة عن طوية خالصة بخلاف خطبة هنرى فانها كانت محض خداع بقصد التعطيل رجح فرنسيس الاول ولم يصغ لقول ملك انكلترة فاغاظه ذلك كثيرا لاسيما وكان قد داخلته الريبة منه بسبب الهدنة التى انعقدت بمدينة نيسه ومقابلته للامبراطور فى مدينة ايغومورت فظن أن فرنسيس عدل عن محبته وجعل يجدد اسباب الالفة مع الامبراطور وكان الامبراطور يعرف طبع الملك هنرى حق المعرفة فادرك تأثره وتغيره من ملك فرانسا ورأى ذلك فرصة تعينه على تجديد ما كان قد انقطع من بينهما منذ زمن طويل من المفاوضات والمداولات وكان قد زال من بينهما اقوى اسباب التفاقم والشقاق بموت الملكة كاترينة زوجة هنرى وكانت هذه الملكة من عائلة الامبراطور ولما اراد هنرى أن يطلقها كما تقدم عارضه الامبراطور اذ لا يليق به عدم التعرض للمدافعة عن ملكة من عائلته فلما ماتت اراحته من النزاع مع هنرى واخذ يخادعه ويستميله ويتحبب اليه فعرض عليه عدة اميرات من عائلته ليتزوج منهن بمن شاء وكان منهن بنت اخته من ملك دانيمرقه وخطب منه بنته مارية لامير من عائلة ملوك البرتوغال ورضى بها بوصف كونها بنته من الزناء ولكن لم يعتقد من ذلك نكاح اصلا وربما كان عرضه لهنرى فى هذا المعنى ليس على سبيل الجد ومع ذلك فقد نجح فى مقصوده وترتبت بين

(سنة ١٥٣٨)

ديوانه وديوان هنرى مداولات مستمرة اضمحل بها حقد هنرى على الامبراطور وتولد بينهما محبة اضرت عاقبتها بمملكة فرانسا كل الضرر وبهذه الحروب الطويلة التى مكثت عدة سنوات وكانت ناشئة عن طمع الامبراطور وحرصه تقدم الفسخ فى بلاد المانيا واتسعت دائرة الدين الجديد وذلك انه فى مدة اغارته على بلاد افريقة وحربه مع مملكة فرانسا لم يلتفت فى بلاد المانيا الالى منع مايضر بالراحة والامن العام بسبب المشاجرات والمنازعات الدينية فلذا كان يحسن معاملة الامراء المعتزلة ويسلك معهم مسلك الحلم ولين الجانب ليستميلهم اليه او يمنعهم عن الانضمام الى حزب خصمه فاعتنى كل الاعتناء بابقاء المزايا التى حازوها بموجب مشارطة الصلح المنعقدة فى مدينة نورمبرغ سنة ١٥٣٢ من الميلاد واذا قطعنا النظر عن بعض احكام كانت تصدر من ديوان الامبراطور صح أن نقول ان الامراء المعتزلة لم يكن عليهم حرج فى التمسك بدينهم ولم يكن عندهم عائق يمنعهم عن نشره وتوسيع دائرته ولكن كان البابا لم يزل يسعى فى عقد مشورة قسيسية عامة وكان المعتزلة لم يرضوا بانعقادها فى مدينة منتو حسبما طلبه البابا ومع ذلك لم يزل البابا يشدد فى تنجيز ماسعى فيه حتى صدر منه فى الثانى من شهر حيزران سنة ١٥٣٦ من الميلاد فرمان يتضمن أن المشورة يكون انعقادها بالمدينة المذكورة فى الثالث والعشرين من شهر ايار من السنة الجديدة وعين للنيابة عنه فيها ثلاثة من الكردينالات وامر ملوك النصرانية أن يؤيدوا تلك المشورة و يعضدوها ودعا احبار جميع الملل الى حضورها ولا يخفى أن عقد مثل هذه المشورة لا يليق الا فى اوقات الصلح الخالية عن التعكير والشقاق حتى تكون عقول الناس مستعدة للتوافق وعدم الاختلاف فلذا ظهر أن عقدها فى هذا الوقت غير سديد لان الامبراطور كان يتأهب لقتال فرانسا ويستعد لانضرام نيران الحرب فى جزء عظيم من بلاد اوربا ومع ذلك اخذ الفرمان رسل وقتية غير معتادة ونشروه فى الدواوين الافرنجية ولاجل استمالة قلوب اهل المانيا كان الامبراطور مدة اقامته

مطلب
تقدم الفسخ (١)
اتساع دائرة الدين الجديد)

مطلب
المداولات والدسائس التى حصلت لاجل عقد مشورة قسيسية

(سنة ١٥٣٨)

فى رومة يلح على البابا أن ينجز انعقاد تلك المشورة الا أنه طمع فى تحويله
عما كان عليه من التخلى عن الحزبين وضمه الى حزبه فبعث مع الرسول
الذى ارسله البابا الى بلاد المانيا نائب صاحب ختامه المسمى هلدو وامره
أن يساعد البابا فى سائر مايعرضه على المعتزلة ويؤيده فى ذلك عن لسان
الايمبراطور أتم التأييد فاجتمع المعتزلة فى مدينة سمالكالد وعرض عليهم
الرسولان ماهما مبعوثان بصدده فبعد أن ابديا لهم ماعندهما من البراهين
والادلة أبوا عن لسان واحد أن يقرّوا تلك المشورة القسيسية التى يكون
انعقادها باسم البابا وامره وله الحق بمقتضى الفرمان فى الرياسة عليها لاسيما
وانعقادها بمدينة بعيدة عن بلاد المانيا فى حكومة ملك لايعرفونه
ولايعرفهم وله اتحاد والتئام كلى بديوان رومة فلا يأمن علماؤهم
التيولوجية أن يذهبوا اليها خصوصا وقد عنون عنهم فى الفرمان بالرافضة
فلا تنشرح صدورهم لمثل ذلك وانضمت هذه الموانع الى موانع اخرى كثيرة
وسطر جميعها فى دفتر طوبل نشر وفى الممالك ليزكوا انفسهم و يبرّؤها
فغضب ارباب ديوان رومة من امتناع المعتزلة وجعلوا ذلك دليلا واضحا
على عنادهم وعتوّهم ولم يزل البابا يشدّد فى عقد المشورة فى المكان والزمان
اللذين عينهما لذلك الا أنه حصل التوقف فى هذا الامر من طرف الامير
دوق دومنتو من جهة حقد فى الحكم على من يحضر هذه المشورة ومن جهة
أمن مدينة منتو التى هى تحت حكومته من هؤلاء الاجانب فلما لم يمكن
للبابا أن يجيب هذا الدوق الى ماطلبه اخر عقد المشورة بعض شهور ثم امر
بعد ذلك بعقدها فى مدينة ويسنسة بدول البنادقة وجعل يوم انعقادها
غرة شهر ايار من العام القابل ولكن كان لم يقع صلح بين فرنسيس
والايمبراطور فلم يأذن كل منهما لاحد من رعاياه بالتوجه الى تلك المشورة
فلم يحضر فى اليوم الموعود احد من احبار دين النصرانية فخشى البابا أن يعين
يوما آخر فلا يحضر فيه احد وذلك يزرى بمقامه وعلو مكانته فامر بتأخير
عقدها ولم يسم لذلك اجلا

فى ٨ من شهر تشرين الاول سنة ١٥٣٨

مطلب
ازالة البابا العدة مفاسد من ديوان رومة

وحيث كان البابا بولص لا يريد أن يعاب عليه بكونه يشدد في نسخ يتوقف حصوله على غيره ويهمل في نسخ يمكنه تنجيزه بنفسه امر جمعية من الكردينالات والاساقفة أن يبحثوا عما في ديوان رومة من المفاسد والمظالم وعن اقوى الوسايط في ازالتها ونسخها فقبل منه ذلك لكن مع التضجر والتكدر فلذا كان اجراؤه بطيئا حيث تساهلت هذه الجمعية في البحث عن هذه المفاسد بل كان مثلها في ذلك كمثل انسان ترتعد فرائصه كلما اراد أن يدخل يده في الجرح ليعرف ما به ومع انهم سلكوا في البحث عنها مسلك التحامل والتساهل عثروا منها على مفاسد كبيرة ومظالم كثيرة الا أن الطرق التي سلكوها في اصلاحها لم تكن كافية اولم يحصل الاعتناء باجرائها وكان ارباب هذا الديوان مصممين على اخفاء تقرير هذه الجمعية وما يحط عليه رأى اربابها ولكن طرأت عوارض كانت سببا في انتشار ذلك ببلاد المانيا حتى علم به الخاص والعام واستعان به المعتزلة على افساد اصول الكنيسة الرومانية وتأييد مذاهبهم فمن جهة جعلوا يبرهنون على انه لابد من النسخ في اصول الكنيسة وابدوا أن اغلب المفاسد التي اعترفت بها تلك الجمعية هي عين المفاسد التي نفر منها لوتير واصحابه وارادوا اصلاحها ومن جهة اخرى أخذوا يبرهنون على أن القسوس لا جسارة لهم على اجراء هذا النسخ بانفسهم فقال لوتير انهم اشتغلوا بمعالجة ثآليل صغيرة واهملوا القروح الكبيرة بل وصيروها مزمنة

مطلب
العصبة التي ترتبت لمعادلة عصبة المعتزلة

وكان الايمبراطور قد ألح على الامراء المعتزلة أن يرضوا بعقد المشورة القسيسية العامة ببلاد ايطاليا فافزعهم ذلك جدا حتى رأوا من الواجب عليهم أن يقووا عصبتهم فادخلوا فيها عدة اناس ذوى شوكة كانوا يطلبون الدخول فيها الاسيما ملك دانيرقة وكان هلدو رسول الايمبراطور قد شاهد مدة اقامته في المانيا أن المعتزلة لهم شوكة عظيمة بسبب عصبتهم فاراد أن يرتب عصبة تعادلها ولا تخرج عن القاثوليقيين من امراء الايمبراطورية فترتبت هذه العصبة وسميت باسم العصبة المقدسة ولكن لم تكن الا لمجرد المدافعة عن دين الكنيسة وتأييده لا لنقض دين المعتزلة ونسخه وكان هلدو

لم يرتب تلك العصبة الابطريق النيابة عن الامبراطور حيث كان قد فوض له الامر فيما يفعل ومع ذلك أنكرها الامبراطور فيما بعد ولم يدخل بها من الامراء الا افراد قلائل

مطلب
خوف المعتزلة وفزعهم

وقد علم المعتزلة بهذه العصبة مع الاعتناء الكلى بكتمانها واخفاء امرها عنهم وكانت نفوسهم دائما غير مطمئنة فكانوا يخشون حدوث امر يضر بدينهم الجديد ولحقهم فزع كبير من تجدد هذه العصبة وظنوا أن الامبراطور قد عزم على نسخ مذاهبهم وابطالها فبناء على ذلك اخذوا يحترسون منه فجعلت عصبتهم تكثر من عقد المجالس والمذاكرات وتتداول مع كل من ملك فرانسا وملك انكلترة بل وصاروا يتذاكرن فى شأن جمع العساكر والاموال التى فرضوها على كل واحد من ارباب العصبة فى المشارطة المنعقدة بمدينة سمالكالد ولكنهم عما قليل علموا أن هذا الفزع لم يصادف محلا وأن الامبراطور محتاج الى الصلح وبقاء الراحة بسبب دمار قواه وعساكره فى حربه مع مملكة فرانسا فلا يريد ما يوجب تعكير بلاد المانيا وازالة الصلح منها وذلك أن المعتزلة لما اجتمعوا برسل الامبراطور فى مدينة فرنكفورت رأوا أنه لم يعزم على شئ مما اتهموه به فانحط الرأى فى هذه المدينة بينهم وبين رسل شرلكان على أن ما رخص لهم فيه سابقا لاسيما فى المشارطة المنعقدة بمدينة نورمبرغ يبقى على ما هو عليه حسبما وقع عليه الاتفاق مدة خمسة عشر شهرا وأنه فى ظرف تلك المدة لا يصدر من الديوان الامبراطورى حكم عليهم بشئ وأن تنعقد مشورة يحضرها بعض افراد من علماء اللاهوت بعضهم من طرف الكنيسة وبعضهم من طرف المعتزلة ليتذاكروا فى المسائل الخلافية ويحرروا شروط الصلح التى تعرض على مشورة الدينة حين انعقادها ولكن لم يقر الامبراطور هذا الاتفاق صراحة خوفا من غضب البابا حيث أبدى أن البند الاول يضر بمصالح الكنيسة ومع ذلك عمل بمقتضى هذا الاتفاق حرفا بحرف حتى ترتب على ذلك تمكين اساس الحرية الدينية التى كان المعتزلة يجدون فى طلبها

مطلب
ادخال دين المعتزلة فى بلاد سكس

وبعد الاتفاق الحاصل بمدينة فرنكفورت بايام قلائل مات الامير جورجى

(سنة ١٥٣٩)

دوق سكس فكان موته معينا على نشر دين المعتزلة وتوسيع دائرته وكان هذا الامير كبير فرع امراء سكس الصغير وكان له من حيث كونه ملتزم سينه وتورنجه اراض واسعة جدا من جملتها مدينة درسده ومدينة ليبسيك وغيرهما من اعظم مدائن بلاد هذا المنتخب وكان من أكبر اعداء دين المعتزله فكان ينفر منه بقدر ما كان غيره من الامراء المنتخبين يؤيده ويدافع عنه فكانت لا تفتر له همة فى مناقضته لانه كان متمسكا كل التمسك بالدين القاثوليقى فاودع ذلك فى قلبه بدعا واوهاما مفرطة خصوصا وكان يبغض لوتير حتى كان لا يستطيع النظر اليه وكان الفرع الاخر من عائلة سكس يدافع عن الدين الجديد ويعضده وكان بين الفرعين منافسة فلذا كان الامير جورجى المذكور من اقوى الموانع لتقدم دين المعتزلة وانتشاره وحيث انه مات ولم يعقب ذرية انتقل ميراثه الى اخيه الامير هنرى كبير الفرع الاخر وكان يميل الى حزب لوتير بل كان ميله الى دين المعتزلة يفوق ميل جورجى الى الدين القاثوليقى وكان جورجى لشدة ميله لدين الكنيسة قد حرر وصية قبل وفاته ذكر فيها أن جميع اراضيه تكون هبة منه للايمبراطور والملك الرومانيين ان اراد اخوه هنرى اتباع دين المعتزلة والعدول عن الدين القاثوليقى فبمجرد استيلاء هنرى على اراضيه وحيازتها لم يلتفت الى تلك الوصية بل دعا عدة من علماء المعتزلة وكذلك لوتير الى الحضور بمدينة ليبسيك فلما حضروا بها وحصلت منهم الاعانة لهذا الامير فسخ فى ظرف بعض اسابيع من بلاده الدين القديم ونشر بها اعلام الدين الجديد وفرح رعاياه بذلك كل الفرح لمجيئه على وفق مرامهم وانما كان اميرهم المتوفى يمنعهم عن هذا الدين بطريق القهر والاكراه فبهذه الحادثة نجت طائفة المعتزلة من الاخطار التى كانت عرضة لها يبغض الامير جورجى لدينها لاسيما وكان متمكنا منهم حيث كانت اراضيه فى وسط بلادهم فرأوا بعد موته دائرة اراضيهم قد اتسعت وصارت متصلة ببعضها يكاد أن لا يتخللها فاصل من شواطئ بحر بلطق الى شواطئ نهر الرين

(سنة ١٥٣٩)

مطلب
قيام العساكر الايمبراطورية وخروجهم عن الطاعة

وبعد انعقاد هدنة مدينة نيسه بعض ايام حصلت حادثة علم بها اهالى اوروبا أن الايمبراطور لم يعدل عن الحرب الالكونه رأى انه لا اقتدار له عليه وأن مصالحه لا تسوّغ له ذلك حيث كانت عليه مبالغ جسيمة من ماهيات عساكره وكان يلاهيهم ويخادعهم بالمواعيد ويزخرف لهم القول لكن لما رأوا أنه بسبب الهدنة صار لا يحتاج اليهم ولا يجيبهم اذا طلبوا منه ماهياتهم عيل صبرهم وعصوا دفعة واحدة واظهروا أنهم يريدون اخذ استحقاقهم بطريق القهر والغلبة ولم تكن هذه الفتنة مقصورة على بعض دول الايمبراطور دون بعض بل عمت سائر بلاده * فاما العساكر الذين كانوا بدوقية ميلان فنهبوا القرى وبلاد الارياف وافزعوا تحت هذه الدوقية * واما المحافظون الذين كانوا بقلعة غوليطه فابدوا أنهم ان لم يعطوا استحقاقهم فلا مانع يمنعهم من تسليم هذه القلعة الى بربروس * واما العساكر الذين كانوا بجزيرة سيسيليا ففعلوا ماهو اعظم من ذلك حيث انهم بعد أن طردوا ضباطهم وولوا على انفسهم ضباطا آخرين هزموا سرية ارسلها اليهم نائب الايمبراطور وتغلبوا على عدة مدائن ونهبوها وسلكوا فى ذلك غاية الالتئام والضبط والربط حتى كأن حروبهم ناشئة عن نظام تام وادارة محكمة لا عن حمية عسكرية تمرّ ولا تستقر ولا يتيسر معها انتظام ولا ضبط وربط ولكن لحزم رؤساء الايمبراطور ومهارتهم اقترضوا اموالا باسمهم اوباسمه وضرب كل منهم مغارم جسيمة على مدائن الاقاليم التى كان مقيما بها حتى جمعوا المبالغ اللازمة لصرف ماهيات العساكر وسكنوا الفتنة وبعد ذلك سرّحوا معظمهم ولم يبقوا منهم الا بقدر ما يلزم لحفظ القلاع والمدائن الكبيرة وحفظ سواحل البحر من اغارات الدولة العثمانية

مطلب
انعقاد مشورة وكلاء مملكة قسطيلة فى مدينة طليطلة

فلوفور حظ الايمبراطور انقذته مهارة رؤسائه من هذا الخطب الذى كان لا يمكنه بمفرده أن ينجو منه ولم يكن تحت نظره مما يوفى به استحقاق عساكره الا الامداد الذى كان ينتظره من اهالى مملكة قسطيلة فبناء على ذلك جمع مشورة وكلاء تلك المملكة بمدينة طليطلة وعرض عليهم المبالغ الجسيمة التى

(سنة ١٥٣٩)

صرفها فى الحرب و بين لهم ما عليه من الديون الجمة وطلب منهم أن لا يعطوه من الامداد والاسعاف ما يستنسبونه بالنظر لحالته الراهنة وأن يضربوا لذلك مغرما على جميع البضائع وفروع التجارة ولكن كان اهل اسبانيا اذ ذاك ملزومين بمغارم لم تكن تعهد عند آبائهم واسلافهم وكانوا يتشكون غالبا من فقد اموالهم ورجالهم فى حروب لا تخصهم ولا يعود عليهم منها نفع فكانوا مصممين على أن لا يكلفوا انفسهم بمغارم جديدة ولا يعينوا الايمبراطور على حرب يضر بلادهم كالحروب السابقة لاسيما الاشراف منهم فانهم ناقضوا فى المغرم المطلوب وابدوا انه يضر باعظم مزايا خرقتهم وهى معافاتهم من المغارم على اختلاف انواعها وطلبوا المفاوضة مع وكلاء المدن فى شان حالة الملة وعرضوا على الايمبراطور أنه ان اقتدى بسلفه ولازم الاقامة ببلاد اسبانيا ولم يتعرض الى المصالح التى لا تخص الدول الاسبانيولية فايراد التاج يكفى بل يزيد عما يلزم للحكومة من المصاريف واما ما دام يعدل عن سنتهم و يهمل فى تلك الواسطة التى منشأ عنها ثروة الملة ونفوذ كلمتها فسعيه فى ضرب مغارم جديدة على الملة الاسبانيولية محض ظلم وتعسف فسلك الايمبراطور مع ارباب تلك المشورة مسلك الترجى والمواعيد والاستدلال والبرهنة ليستميلهم اليه فلم يجد ذلك نفعا فصرفهم واحشاؤه تتلظى ومن يومئذ لم يدع الاشراف ولا القسوس الى مشورة القرطس وسبب ذلك هو ما قيل انه اذا انعقدت مشورة القرطس وكان الغرض من انعقادها ضرب مغارم جديدة فلا داعى لحضور خرقة القسوس والاشراف اليها لان من لا يدفع شيأ لا حق له فى ابداء الرأى وصار لا يقبل فى تلك المشورة اذا اجتمعت الا وكلاء المدائن الثمان عشرة المتقدمة وكانوا ستة وثلاثين لان كل مدينة منهما كانت تبعث رسولين وكان يتألف منهم مشورة ليس لها من الصولة ولا من المقام والاعتبار ما كان لمشورة القرطس سابقا بل كانت تطيع الديوان الايمبراطورى فى جميع الامور ولا تخالفه فى شئ مما تحصل فى شأنه المذاكرة فمن ذلك أن اشراف قسطيلة لعدم تبصرهم وقلة حزمهم أبدوا المزايا الملوكية وقاموا بنصرتها حين خرجت

مطلب
تشكى ارباب المشورة وتظلمهم

مطلب
ابطال الرسوم القديمة التى كانت مجعولة لمشورة القرطس

الجمعيات

(سنة ١٥٣٩)

الجمعيات البلدية عن طاعة الملك سنة ١٥٢١ فاضر ذلك بعصابة الاشراف حيث ان الاشراف المذكورين باعانتهم لشرلكان على خفض طائفة من طوائف المملكة وهى طائفة الاشراف على العموم اضاعوا التعادل الذى كان حصنا منيعا للقوانين المملكة وساغ لشرلكان ومن خلفه أن يخفضوا تلك العصابة ويجردوها عن ابهى مزاياها واعظمها

مطلب
بيان كون اعيان اسبانيا كان لهم مع ذلك مزايا كبيرة

ومع ذلك فكان باقيا للاعيان اسبانيا شوكة عظيمة وخصايص جسيمة يدافعون عنها مع الكبر والعتو الذى كانوا ممتازين به عن غيرهم من الامم وقد وقع للايمبراطور مدة انعقاد مشورة العموم بمدينة طليطلة مايدله على ذلك *فقد اتفق ذات يوم أنه كان راجعا من ملعب التورنواس ومعه معظم الاشراف فهم احد جاويشية ديوانه أن يفسح له طريقا بين الزحام فضرب بعصاه فرس الامير دوق دولانفانتادو فغضب هذا الدوق وسل حسامه وضرب به الجاويش فجرحه فغضب الايمبراطور من جسارة هذا الدوق امامه وضربه للجاويش بحضرته وأمر الامير رونكيلو وكان من ضباط ديوانه أن يقبض حالا على الدوق فتقدم رونكيلو ليقبض عليه عملا بالامر فلم يشعر الا وحاكم المدينة قد قبض عليه متعللا بأن من مزايا منصبه ووظيفته أن يحكم على اعيان اسبانيا وذهب بالدوق دولانفانتادو الى منزله فسر لذلك جميع الاشراف الذين كانوا حاضرين لما فيه من المدافعة عن مزايا طائفتهم وتركوا الايمبراطور وصحبوا حاكم المدينة الى قصره وهم يمدحونه على فعله فاضطر الايمبراطور الى الرجوع وليس معه الا الكردينال طاويرة ولحقه من ذلك غضب شديد لكنه رأى أنه ان تعرض لمن أساءه بشئ فقد عرض نفسه الى الخطر لان طائفة الاشراف كانت شديدة البأس وكانت ادنى اساءة تخرجها عن اطوارها وتؤديها الى ارتكاب ما لا يرتكب فعوضا عن كونه يشدد فى هذا الامر ويتظاهر بحقوقه ومزايا الملوكية عمل بما يقتضيه الحزم من الاغضاء عن سفاهة هذه الطائفة القوية الشوكة حيث كان يعلم أنه ان تصدى لعقابها عرض نفسه للخطر وارسل فى صبيحة اليوم الثانى الى

(سنة ١٥٣٩)

الدوق دولاقانتادو في بيته وعرض عليه أن يعاقب الجاويش كيف شاء فرأى الدوق أن تسليم الايمبراطور له بهذه المثابة يكفي في التوفية بحقه واصلاح ماحصل له من الاساءة فصفح حالا عن الجاويش بل واتحفه بهدية عظيمة في نظير جرحه وعما قليل تنوسيت هذه الدعوى ولم يبق لها ذكر ولولا أنها تدل اتم الدلالة على كبر اشراف اسبانيا وحريتهم وعلى نباهة الايمبراطور وحزمه لكونه راعى في ذلك مقتضيات الاحوال لما كانت جديرة بالذكر في التاريخ

مطلب
عصيان مدينة غنده

ولكن لم يحصل من الايمبراطور مثل هذا الحلم في حق اهل غنده حين عصوا عليه بعد ذلك بمدة قليلة وكان سبب عصيانهم أنه في سنة ١٥٣٦ من الميلاد حصلت حادثة افضت بهم الى الخروج عن الطاعة فانجر عصيانهم بتلك المدينة الزاهرة وذلك أن ملكة المجار لما كانت حاكمة في البلاد الواطية وجاءها امر من اخيها شرلكان بالاغارة على مملكة فرانسا بما يمكنها جمعه من القوى والعساكر جمعت مشورة عموم الاقاليم المجتمعة فرضي اربابها أن يجمعوا لها الفا ومائتين من الفلوران (نوع من النقود) لتستعين بها على الحرب فضرب على قونتية الفلمنك ثلث هذا المبلغ وكان اعظم مدن هذه القونتية مدينة غنده وكان لاهلها تجارة واسعة رابحة مع مملكة فرانسا فكانوا لا يريدون الحرب مع الفرنساوية فلما طلب منهم مايخصهم من المبلغ

دعوى اهل غنده

المذكور ابوا دفعه متعللين بانه بموجب الشروط بينهم وبين آباء الايمبراطور لا يسوغ أن يضرب عليهم مغرم اياما كان الا عن رضائهم بدون الزام *وكانت ملكة المجار تقول ان هذا المبلغ حيث اقرته مشورة عموم الفلمنك وكان وكلاء غنده من جملة ارباب هذه المشورة ولو لم يصدر منهم تصديق يجب على هذه المدينة أن ترضى بما حكمت به تلك المشورة لأن من الاصول التي ينبني عليها نظام كل جمعية ولا يتم الامن بدونها أن رأى الجمهور يغلب على غيره فلا يصح أن يعمل بمقتضى رأى وكلاء تلك المدينة ويلغى رأى غيرهم وهو الجمهور

فلم

(سنة ١٥٣٩)

فلم يعبأ اهل غنده بهذه العلل حيث كانوا متعودين فى عهد العشيرة البورغونية على التمتع بمزايا وخصايص واسعة وعلى الحلم ولين الجانب من طرف حكامهم فلم يزالوا مصممين على عدم دفع ما ضرب عليهم وأبوا أن يطيعوا الملكة التى كان حكمها عليهم بطريق النيابة ولم يقبلوا امرها فى شئ يضر بحقوقهم ومزاياهم التى طالما دافعوا عنها ملوكهم الاقدمين وظفروا بمرامهم فجعلت الملكة اولا تستميلهم باللين والرفق وتسلك معهم مسلك الحلم لتدخلهم تحت الطاعة فلم يمكنها ذلك فلحقها غضب شديد وامرت بالقبض على كل من كان فى مملكة البلاد الواطية من اهل غنده ولكن مثل هذه الطريقة لا تؤثر فى رجال كانت حميتهم شديدة من وجهين مختلفين وهما بغضهم للظلم وحبهم للحرية فاشتدة غضبهم من هذه الملكة لم يلتفتوا الى ما يترتب على عصيانهم من المصائب التى تضر بابناء وطنهم واصحابهم بل احتقروا اوامرها وبعثوا رسلا الى سائر المدائن الفلمنكية يحرضونها على عدم التخلى عنهم فى هذا الخطب حيث انه امر مشترك بينهم وبينها وطلبوا منها أن تنضم الى حزبهم لينتصروا لحقوقهم ويؤيدوها وانه لا يليق بهم أن تنزعهم سفاهة امرأة لا تعرف مزاياهم او تعرفها ولا تحترمها فابت تلك المدائن أن تتعصب على الملكة ماعدا بعض مدائن صغيرة وانما تواطأ بعضها مع بعض على أن تترجى الملكة أن تبقى هذا المغرم المضروب على اهل غنده حتى يبعثوا رسلا الى الامبراطور فى اسبانيا يعرضون عليه مالهم من المزية التى بموجبها يكونون معافين من دفع ما ضرب عليهم وعرضوا هذا الرأى على الملكة فتوقفت اولا ثم رضيت فتوجه الرسل الى اسبانيا فوجدوا فى الامبراطور من الكبر والعتو ما لم يجدوه فى اسلافه من الملوك فامرهم أن يطيعوا اخته كطاعتهم له واحال تحقيق دعواهم على مشورة مدينة مالينس وكانت هذه المشورة جزأ من پرلمان قونتية الفلمنك فكان يسوغ لها أن تحكم فى المصالح الجسمية حكما بتيا لا يقبل النقض فحكمت بأن دعوى اهل غنده لاغية والزمتهم بدفع المغرم فورا

مطلب
عصيان اهل غنده وعرضهم على مملكة فرانسا أن تدخل مدينتهم تحت حكمها

فغضب اهل غنده من هذا الحكم وعدوه من الظلم البين فى حقهم واستولى

عليهم اليأس والقنوط حيث رأوا أن المشورة التى هى قرار العدل ومحل الانصاف قد خانتهم وغدرت بهم وحكمت عليهم بغير الحق مع أن حقها أن تعضدهم وتأخذ بناصرهم فعصوا جميعا وشهروا السلاح وطردوا من مدينتهم جميع من كان مقيما بها من الاشراف وقبضوا على طائفة من ضباط الايمبراطور وجعلوا يعذبون ضابطا منهم اتهموه بأنه اخفى اومزق الدفتر الذى كان محتويا على قوانين معافاتهم ورتبوا فورا مشورة فوضوا اليها ادارة مصالحهم وصدرت منهم اوامر باصلاح التحصينات القديمة وانشاء ما يلزم من التحصينات الجديدة ونشروا لواء العصيان والخروج عن طاعة ملكهم الا انهم لما كانوا يعلمون أنهم لضعف شوكتهم لا يمكنهم مقاومته بمفردهم ارادوا أن يتخذوا لهم نصيرا يعينهم على بطش عدوهم فصمموا على ارسال رسل الى الملك فرنسيس يعرضون عليه أنهم يبايعونه بالتملك عليهم بل ويعينونه حق الاعانة على التغلب من مملكة البلاد الواطية على الاقاليم التى كانت سابقا التاج فرانسا وحكم بضمها اليها فى الامر الصادر منذ قليل من برلمان باريس ولا يخفى أن عرض مثل ذلك من اناس يمكنهم أن يجروا بعضه حالا ويعينوا حق الاعانة فى تتميم البعض الآخر كان حقه أن يغتر فرنسيس لشدة طمعه وحرصه ويبنى عليه آمالا واسعة لان قونتية الفلمنك وقونتية ارتوازة كانتا اعلى مقدارا من دوقية ميلان التى كان فرنسيس يود الاستيلاء عليها ومكث زمنا طويلا وهو يصرف فى ذلك مصاريف واسعة ويبذل مجهودات كثيرة ولم يمكنه الظفر بمقصوده فى شأنها ولقرب هاتين القونتيتين من مملكة فرانسا كان يسهل عليه الاستيلاء عليهما وحفظهما اكثر من الدوقية المذكورة وكان يمكنه أن يجعلهما مملكة مخصوصة يولى عليها ابنه الامير دوق دورليان وتكون جديرة بتمامه كالمملكة التى كان ابوه يعدها له وكان من الجائز أن اهل الفلمنك لمعرفتهم باخلاق الفرنساوية وحكمهم لا يتوقفون فى الدخول تحت طاعتهم وأن الفرنساوية لتعبهم وتفاد قواهم فى حروب بلاد ايطاليا يرغبون فى الحرب بمملكة البلاد الواطية ويعتنون به فلا يخيب

(سنة ١٥٣٩)

سعيهم بل يظفرون بمرامهم ومع أن هذه الفرصة كانت فى الظاهر اعظم فرصة للملك فرنسيس يستعين بها على توسيع دوله واذلال الامبراطور كان ثم عدة اسباب قوية منعته عن انتهازها واجتناء ثمارها وذلك انه من حين مقابلتهما لبعضهما فى مدينة ايغومورت كان الامبراطور لم يزل يراعى مزاج الملك فرنسيس ويلاطفه ويعده بأنه يجيبه الى مطلوبه فى شأن دوقية ميلان وأنه يعطيها له اولاً حد أبنائه *ولم تكن هذه المواعيد صادقة وانما كان قصده بها اما اخراج فرنسيس من معاهدة السلطان سليمان او أنه بكثرة مداولاته معه يوقع الريبة فى نفس السلطان فيحصل التفاقم بينهما وكان من عيب فرنسيس أنه كان كالظمآن يغتر بالسراب فاهمل فى تحصيل القونتيتين السابقتين مع أنهما اعظم من دوقية ميلان التى كان يود الاستيلاء عليها *وزيادة على ذلك كان الدوفين ابنه وولى عهده يغار من اخيه غيرة شديدة وكان يعهد فيه الطمع والحرص فشق على نفسه أن تعطى له قونتية الفلمنك وقونتية ارتوازة لانهما كانتا فى داخل مملكة فرانسا وكان للمارشال مونتمورانسى الحظوة عند الدوفين كوالده فرنسيس فاستعان به على أن يحمل اباه على عدم قبول ماعرضه عليه اهل الفلمنك

مطلب
امتناع الملك فرنسيس عن قبول عرضهم

فلهذا الغرض جعل المارشال مونتمورانسى يبالغ لفرنسيس فى الشهرة الكبيرة والشوكة العظيمة التى يحوزها باسترجاع دوله التى كان يملكها فى بلاد ايطاليا وافهمه أن محافظته مع التدقيق على العمل بمقتضى الهدنة وامتناعه عن قبول مايعرضه عليه رعايا الامبراطور الخارجون عن طاعته مما يحبب فيه الامبراطور فيعطيه دوقية ميلان *وكانت هذه الدوقية عند فرنسيس بمكانة جليلة فكان اعتباره لها بقدر ماحصل له من التعب والمشاق فى الاستيلاء عليها لاسيما وكان لاستقامة طبعه يركن الى ماظاهره الحلم والكرم فسمع قول مونتمورانسى واستحسنه وامتنع عن قبول ماعرضه عليه اهل غندة وصرف رسلهم بعد أن اجابهم بما اغضبهم واغاظهم

(سنة ١٥٣٩)

مطلب
اعلامه للامبراطور بمقاصدهم

ولم يكتف فرنسيس بردهم وعدم اجابتهم بل اسلامة باطنه اخبر الامبراطور بما وقع بينه وبين رعاياه الخارجين عن طاعته واعلمه بما وقف عليه من مقاصدهم والوسايط التي يريدون الاحتراس بها فلما رأى الامبراطور ذلك من الملك فرنسيس أمن من جهته وزالت عنه الريبة والوسواس وكان قد بلغه ماهو حاصل في مملكة البلاد الواطية من مجاوزة اهل غندة الحدود في الخروج والعصيان وكان يعرف اخلاق اهل هذه المدينة وحبهم وحبهم للعزة وولعهم بمزاياهم وعوايدهم القديمة وعتوهم وبطأهم في اجراء ما عزموا عليه من المشروعات وكان يعلم أنه لو أعانهم ملك فرنسا لظهروا عليه وظفروا بمرادهم فلما بلغه مافعله فرنسيس معهم وصار آمنا من جهته استمر على ما كان مصمما عليه من وجوب المبادرة الى اطفاء نيران الفتنة وبذل الجهد في هذا الغرض ليتداركه قبل اتساع الخرق في هذه البلاد القوية الشوكة الكثيرة مدائنها واموالها ورجالها فتفكر زمنا طويلا ثم رأى أن الاصوب أن يتوجه بنفسه الى مملكة البلاد الواطية وكان ذلك على مرام اخته لانها كانت تلح عليه بالسفر الى هذه المملكة وكان له من حيث السير اليها طريقان يختار ماشاء منهما اما أن يسافر اليها برا بأن يجوب بلاد ايطاليا والمانيا او بحرا بأن يسافر من احدى مينات بلاد اسبانيا حتى يصل الى احدى مينات مملكة البلاد الواطية فاما الطريق الاولى فكانت طويلة المسافة بالنظر لمقتضيات الاحوال اذ ذلك لان مثل هذا الغرض يلزم له المبادرة والاسراع لاسيما وطريقه من بلاد المانيا فيلزمه من حيث كونه امبراطورا أن يأخذ معه اتباعا كثيرة وعساكر لاجل الاحتراس لانه ربما كان لا يأمن على نفسه وذلك يعطله وتطول به الشقة واما الطريق الثاني فكان مزاج الفصل يمنعه من السفر بحرا لاسيما وكان بينه وبين ملك انكلترة منافسة ونزاع فيلزمه أن يأخذ معه دوننما عظيمة لاجل حرسه وخفره فلما كانت تلك الموانع تمنعه من ترجيح احدى الطريقين على الاخرى خطر بباله امر غريب وربما عد في الظاهر من الجنون وهو أنه يريد المرور بمملكة فرنسا لانها اقرب طريق الى البلاد الواطية

مطلب
مذاكرة الامبراطور في شأن سفره الى مملكة البلاد الواطية

مطلب
عرضه المرور بمملكة فرانسا

فعرض

فعرض على ديوانه استئذان الملك فرنسيس فى ذلك فلم يوافقه احد من ارباب الديوان على هذا الرأى وظهر لهم أن ذلك من باب المخاطرة وأبدوا له أن هذا السؤال لا يليق من جميع الوجوه وذلك أنه لا يخلو اما أن يجيبه بالمنع وذلك يحط بمقامه ويزرى بعرضه واما بالايجاب فيوقع نفسه فى الخطر حيث يصير بذلك بين ايدى عدو أساء غير مرة فهو يود الانتقام منه لاسيما وكانت اسباب الحرب لم تزل باقية بينهما فلم يصغ الامبراطور لكلامهم بل ما زال مصمما على هذا القصد لانه كان يعرف طبع فرنسيس اكثر من جميع وزرائه وارباب ديوانه فاخبرهم أن مروره بمملكة فرانسا ليس فيه ادنى خطر بل ينال به مطلوبه من غير أن يتكلف شيأ يضر بتاجه

مطلب رضاء الملك فرنسيس

فاخبر بقصده رسول الفرنساوية الذى كان فى ديوانه وبعث الى مدينة باريس وزيره الاعظم يستأذن فرنسيس فى المرور بمملكته ووعده بأن قضية ميلان ستتم له عن قريب وترجاه أن لا يشدد فى طلب مواعيد اخرى غير هذا الوعد وأن لا يدقق فى المواعيد التى وقع الاتفاق عليها سابقا حتى لا يظهر أن الحامل له على قصد اعطاء دوقية ميلان هو الضرورة والحاجة لا علاقات المحبة وحب العدالة واما فرنسيس فلم يدرك ما آرب الامبراطور وخداعه مع ظهوره وعدم خفائه على اولى الالباب بل عوّل على أن الاولى للانسان أن يحسن لمن اساء اليه لاسيما وكان قد فرح فرحا شديدا بما بلغه من المدح على رده لاهل غندة وعدم قبوله لما عرضوه عليه فاجاب الامبراطور الى ما طلبه لانه كان يظن فى الامبراطور ما يعهده فى نفسه من الصدق وخلوص الطوية فظن أنه اذا اكثر من حسن معاملته واسداء المعروف اليه يحمله ذلك على الوفاء بمواعيده ويكون هذا الطريق اشد تأثيرا مما اذا الزمه ذلك بموجب مشارطة اكيدة

مطلب دخول شرلكان فى مملكة فرانسا

ولما كان الوقت عزيزا عند الامبراطور شرلكان سافر فورا ورعيته فى وجل وفزع عليه حيث لم يصحبه فى السفر الا اشخاص قلايل نحو مائة نفس ولكن مع قلة هذه الدائرة المصاحبة له فى السفر كانت دائرة ذات بهجة ورونق

(سنة ١٥٣٩)

فلما وصل الى بايون وهى مدينة على ضواحى مملكة فرانسا تلقاه فيها كل من ابنى الملك فرنسيس وهما الدوفين اى ولى العهد والامير دوق دورليان وكان معهما الامير مونتمورانسى وعرضا عليه أن يذهبا الى اسبانيا ويمكثا بها ويكونا بمنزلة الرهينة حتى يعود اليها سالما غانما فلم يجبهما الى ذلك بل قال ان الرهينة هى مروءة ابيكما فلا اعوّل على غيرها وكان كلما مرّ على مدينة تظهر له من الاحترام والتبجيل مالامزيد عليه فكانت تتنافس فى تعظيمه وتشريفه حيث كان الحكام يسلمون اليه مفاتيحها وفتحت السجون فلو رأيت ما كان يؤدى له من التشريفات يومئذ لظننت أنه ملك فرانسا لاملك اجنبى عابر سبيل وذهب الملك فرنسيس الى مدينة شاتلوروت لاجل ملاقاته فيها فلما اجتمعا اظهر كل منهما للآخر صدق المحبة واكيد المودّة وسارمعا حتى وصلا الى مدينة باريس وتعجب اهلها حين رأوا هذين الملكين بعد الحرب والشقاق الذى وقع بينهما مدّة عشرين سنة وترتب عليه تعكير بلاد الافرنج بتمامها قد دخلا مصطحبين مع الابهة والاحتفال ويظهران لبعضهما الصداقة حتى كأنهما نسيا ما مضى بينهما من الاساءة وصمما على أن يعيشا مدّة حياتهما فى صلح مستمر لا ينقضى مدى الايام والليالى

(سنة ١٥٤٠)

واقام شرلكان فى مدينة باريس ستة ايام وكان ديوان فرانسا الملوكى يبدى له من انواع التشريفات والافراح مالامزيد عليه وكانوا يتنوعون فى ذلك لاجل ادخال الحظ والسرور عليه ومع ذلك كان فى قلق من المكث بفرانسا لانه كان يود الارتحال الى البلاد الواطية ولم يكن سبب هذا القلق مجرّد لزوم حضوره الى تلك البلاد بل كان سببه ايضا خوفه من الاقامة عند عدوّه وذلك انه لخبث طويته كان فى رعب شديد فكان يخشى أن يظهر منه مايدل على ما فى ضميره فيدركه خصمه او يرتاب منه * ومع أنه نجح فى اخفاء سرّه عن الناس كان يخشى ايضا أن يغلب فرنسيس مقتضيات المصلحة على شعار المروءة وشرف العرض فينتهز فرصة حصلت بين يديه نعم قد انحط رأى بعض وزراء فرانسا على معاملة الايمبراطور بما فى نفسه

مطلب
قلق الايمبراطور

فعزموا

فعزموا على عقابه فى نظير ما وقع منه غير مرة من الغدر والخيانة وارادوا القبض عليه حتى يوفى بحقوق مملكة فرانسا الا أنه لم يمكنهم أن يستميلوا فرنسيس الى نقض ميثاقه وعهده ويفهموه أن شرلكان بعد ما صدر منه من المواعدة وحسن معاملته بهذه المثابة لا يبعد عليه أن يخون كما خان قبل ذلك اكثر من مرة بل صحبه فرنسيس الى مدينة سنت كنتين غرورا بمواعيده ووثوقا بعهوده واما ولداه فانهما كما قابلاه على حدود اسبانيا لم يتركاه الا بعد دخوله مملكة البلاد الواطية

مطلب
كذب الامبراطور
فى ٢٤ من شهر
كانون الثانى

ولما وصل الامبراطور الى دوله جعل رسل فرانسا يلحون عليه أن يفى بوعده ويسلم فى دوقية ميلان فتعلل بأنه الآن مشغول بتسكين الفتنة من مدينة غندة وطلب منهم مهلة جديدة ولئلا يرتاب منه فرنسيس استمر يداهنه ويخاطبه بلسان المخادعة كما كان يفعل ذلك معه مدة اقامته بمملكة فرانسا بل كتب اليه فى هذا الشأن كتابا اطنب فيه لكن ابهم الفاظه وعباراته ليمكنه تأويل متشابهه فيما بعد

مطلب
قمع اهل غندة

واما اهل غندة فلم يكن لهم رئيس ذو اقتدار على ادارة مصالحهم وقيادة عساكرهم وكان ملك فرانسا قد تخلى عنهم فلما لم يجدوا فى اهل بلادهم من يأخذ بناصرهم رأوا أنه لا يمكنهم مقاومة الامبراطور وكان اذ ذاك فى اشد الحقد والغضب عليهم فصار يتأهب لقتالهم مع طائفة كبيرة من العساكر جمعها من البلاد الواطية وطائفة اخرى جمعها من بلاد المانيا وطائفة ثالثة جاءت من بلاد اسبانيا بطريق البحر فلما احتاطت بهم الاهوال والاخطار احسوا بعجزهم وعدم اقتدارهم على المقاومة وداخلهم الرعب والخوف فبعثوا رسلا الى الامبراطور ليطلبوا منه الصفح والعفو ويعرضوا عليه أنهم يفتحون له ابواب مدينتهم فلم يجبهم شرلكان الا بقوله انى لاظهر بين اظهركم وبيدى قضيب الملك والحسام وتوجه اليهم مع عساكره ولم يرض أن يدخل المدينة الا فى الرابع والعشرين من شهر شباط وهو يوم ولادته لكن لغضبه لم تأخذه الرأفة والشفقة على تلك المدينة التى كان بها مولده فقتل ستة وعشرين

مطلب
عقاب الاهالى فى ٢٠
من شهر نيسان

(سنة ١٥٤٠)

من اعيانها ونفى اكثر من ذلك وجرّد المدينة عن جميع مزاياها وخصايصها وضبط على ايرادها لجانب الميرى ونسخ صورة حكومتها القديمة واناط تقليد حكامها بالايمبراطور وخلفائه ورتب بها طريقا جديدا فى الادارة والقوانين ولاجل منع اهلها عن الخروج والعصيان انحط الرأى على أن يبنى بها قلعة وضرب على اهلها مغرما من الاموال يبلغ مائة وخمسين الف فلوران (نوع من النقود) ليصرف فى بناء تلك القلعة وضرب عليهم ايضا مغرما سنويا قدره ستة آلاف من الفلوران لاجل مصاريف من يجعله فى القلعة من المحافظين وكان تشديد شرلكان على مدينة غندة عبرة لغيرها من مملكة البلاد الواطية فكأنه انتهز تلك الفرصة ليوقع فى قلوب اهل تلك البلاد الخوف والرعب ويريهم صولته وشدّة بطشه فشدّد عليهم بقدر ما كانت مزاياهم وخصايصهم التى كان بعضها ثمرة تجارتهم وبعضها سببا فى ازديادها واتساع دائرتها تحصر شوكته الملوكية فى حدود ضيقة وتفسد عليه آماله وما آربه وتمنعه عن تنجيز اغراضه ومشروعاته

مطلب
امتناع شرلكان عن التوفية بوعده فى شأن دوقية ميلان

ولما انتقم الايمبراطور من اهل غندة ومكن حكومته فى مملكة البلاد الواطية وصار لاحاجة له بكتمان ما فى ضميره واخفاء مقاصده عن الملك فرنسيس جعل يرفع بالتدريج الحجاب الذى كان الى ذلك الوقت يستر به مقاصده فى شأن دوقية ميلان فحاول اوّلا رسل الفرنساوية حين طلبوا منه الوفاء بوعده ثم عرض أنه يعطى الدوق دورليان قونتية الفلمنك عوضا عن دوقية ميلان ولكن اشترط امورا غير مقبولة كان مصمما على نقضها وعدم تنفيذها فلما الح عليه هؤلاء الرسل وسألوه أن يجيبهم بجواب قطعى يخبرون به سيدهم ورأى أنه لم تبق له حيلة يحاولهم بها أبى أن يحرم نفسه من تلك الدوقية المهمة بمحض الحلم والكرم ورأى أنه لاحاجة له بحلم يضعف قوّته ويقوّى شوكة عدوّه فانكر أنه صدر منه وعد بهذا الامر الغير المرضى الذى يضرّ به وبمصالحه

ولاشك أن هذه الفعلة هى اقبح شئ فعله الايمبراطور مما يلام به عليه او يزرى

(سنة ١٥٤٠)

بفخاره ويدنس عرضه فانه وان كان لا يصدق فى الوسائل التى توصله الى مقصده ولا يعتنى بمراعاة دعائم الشرف والصدق الا أنه كان الى ذلك الوقت لم يتظاهر بهتك اصول التساهل التى يتخذها الملوك قاعدة فى سلوكهم ويرون مراعاتها من الامور المحتمة عليهم ولم يبلغ فى ذلك هذا المبلغ ولكنه قصد فى هذه المرة غش ملك حليم سليم الباطن حسن الطوية وسلك فى التحيل معه مسلكا ذميما لينجح فى ذلك ولم يلتفت الى ما ابداه له من المحبة وحسن الصنيع والمعاملة بل جازاه بالخيانة والغدر ومثل ذلك لا يليق بعلو شأنه ورفعة مقداره كما لا يليق بعظم مقاصده وسعة آرائه

وكما أن الامبراطور استحق اللوم على غدره وخيانته كذلك فرنسيس استحق أن يحتقر بسهولة تصديقه ووثوقه وذلك أنه بعد ادمانه على التجاريب بطول مدة حكمه وما شاهده من الامبراطور من الخداع والخيانة عد ما ابداه فى هذه الفرصة حماقة وغباوة استحق بها الانام من الامبراطور واخذ يتشكى ويتظلم من غدر الامبراطور حتى كأن هذه اول مرة حصلت منه وتأثر كما هو العادة من هذه الاساءة لما فيها من احتقاره والاضرار بمصالحه اكثر من غيرها حتى جزم الناس لما رأوه من حقده وشدة غضبه أنه ينتهز اول فرصة تلوح له فى الانتقام من الامبراطور وأنه سيقع فى بلاد اوربا حرب اشد هولا وخطرا من الحرب السابق

مطلب
امر البابا بانشاء الطائفة اليسوعية

وقد اشتهرت هذه السنة بانشاء الطائفة القسيسية المسماة باليسوعية وهى جديرة بأن يتكلم التاريخ على قوانينها المحكمة واصول احكامها لما كان لها من المدخلية العظيمة فى المصالح القسيسية والملكية واذا التفت الانسان الى سرعة ثروتها وتقدمها فى الصولة ونفوذ الكلمة وحسن ادارتها وشروعها فى مقاصد عالية وعزمها على تنجيزها حق عليه تعظيم منشئها ومؤسسها واعترافه له بالفضل وحسن التدبير ويرى أن انشاءها لا يخطر الا ببال من غاص بحر السياسة وتمكن منها كل التمكن ولكن ينبغى أن نقول ان هذه الطائفة هى كغيرها من الطوائف القسيسية لم يكن لبقائها سبب الا حمية مؤسسها الا حزمه

(سنة ۱۵٤۰)

وحسن ادارته فان مؤسسها وهو ايناس دولوايولة الذى سبق ذكره بمناسبة الكلام على جرحه فى محاصرة بمبلون كان ذا حمية جاهلية وافكار مختلة هوسية وقواعد فى السلوك غير مرضية ومخالفة لاصول الملة النصرانية تخلد بها ذكره واشتهرت سيرته وامره ولم تكن مقاصده الهوسية وما ربه الجنونية التى الجأته اليها شدة حميته الجاهلية وحماقته الطبيعية دون ما فى سير القديسين الاقدمين من البدع والاوهام الخرافية الا أن هذه ليست مثلها جديرة بالذكر فى التاريخ فاشدة حميته اولتولعه بتحصيل الشوكة والشهرة لان التولع بهما لا تسلم منه نفس تعلقت آمالها بصلاح خارج عن حد العادة طمعت نفسه فى تأسيس طائفة دينية زعم أنه اوحى اليه فى شأنها والهم ترتيبها وأنه يرتب قوانينها واحكامها على هذا المنوال كما نقل ذلك عنه اوعن بعض اتباعه على لسانه ومع هذه الدعوى التى ادعاها ليسهل عليه بها تنفيذ اغراضه ومقاصده لاقى فى مبدء امره عوائق كبيرة وموانع كثيرة فكتب للبابا اوّلا يترجاه أن يقرّه على انشاء هذه الطائفة فرده بحضرة جمعية من الكردينالات كان قد عقدها لامتحان تلك القضية فانحط رأى اربابها على أن هذه الطائفة مع عدم نفعها تخشى عاقبتها فلم يرض البابا أن يقرّه على انشائها الا أن لوايولة استماله فيما بعد بامر وعده به لو عرض على غيره من البابات لرضى به وجنح اليه وذلك أن لوايولة عرض عليه أن يضيف الى الشروط الثلاثة التى تشترط على كل طائفة دينية وهى الفقر والعفة والطاعة شرطا رابعا وهو أن تلك الطائفة التى يريد انشاءها تكون للبابا وتطيعه طاعة خصوصية بحيث يلتزم كل فرد من افرادها أن يذهب فى خدمة الدين الى حيث شاء البابا ولا تطلب من الكنيسة شيأ من المصاريف وكانت شوكة البابا حينئذ قد ضعفت بقيام عدة ملل على الكنيسة الرومانية والخروج عن مذهبها ففرح بانشاء هذه الطائفة التى يمكنه أن يقاوم بها اعداءه فصدر منه فرمان بانشائها وانعم على رجالها بمزايا وخصايص واسعة وجعل لوايولة رئيسا عليها * وقد شهد له ما حصل فيما بعد بالاصابة والحزم فى اقرار انشاء الطائفة المذكورة ودل ذلك على أنه ادرك أنها ستنفع

مطلب
حمية لوايولة الذى اسس هذه الطائفة وافراط غيرته على الدين

مطلب
الاسباب التى دعت البابا الى اقرار انشاء تلك الطائفة

فى ۲۷ من شهر ايلول

(سنة ١٥٤٠)

الكنيسة الرومانية كل النفع فلم يمض نصف قرن الا وقد صار لهذه الطائفة نزل واماكن فى جميع البلدان المتمسكة بالدين القاثوليقى وازدادت شوكتها وثروتها على وجه عجيب وتكاثر رجالها وامتازوا بالمعارف والفضائل ولهجت بمدحها ألسنة احباب الكنيسة الرومانية وصارت مهابة عند اعدائها ومعدودة من امهر الطوائف الدينية واكثرها شجاعة وجسارة

مطلب كون قوانينها واحكامها جديرة بالالتفات اليها

واما قوانينها واصول احكامها فكان تتميمها على يد كل من الرئيس لينيز والرئيس اكيويوة وكانا قد تقلدا الرياسة على تلك الطائفة بعد موت لوايولة وكانا امهر منه فى المعارف والادارة والحكم وان كان استاذهما وامامهما فهما اللذان ربما امتازت به تلك الطائفة من طرق الدسائس والسياسة الا أنه ينبغى نسبة الحمية الجاهلية المشوبة بها قوانينها واحكامها الى مؤسسها اعنى لوايولة وقد حصلت عدة حوادث صار بها للطائفة اليسوعية طباع واخلاق مخصوصة بها وصار لها مدخل فى مصالح ذلك العصر اكثر من غيرها من الطوائف القسيسية وكان لها ايضا صولة فى ادارة هذه المصالح لم تكن لغيرها من الطوائف المذكورة

مطلب بيان الغرض من الطائفة اليسوعية المختص بها

وكان الغرض الاصلى من اغلب الطوائف الدينية هو عزلة رجالها عن الناس بحيث لا يكون لهم دخل فى الامور الدنيوية كأن الراهب او العابد اذا دخل الخلوة واعتزل الناس لا يشتغل الا بما فيه نجاة روحه وحفظ نفسه من التقشف والزهد فى زهرة الحياة الدنيا فكانه قد مات وهو على قيد الحياة لكونه اعرض عنها وصار لا ينفع الناس الا بصلاته ودعائه وبكونه اسوة لهم فى الزهد والرغبة عن الدنيا واما الطائفة اليسوعية فكانت بخلاف ذلك حيث كان رجالها يعدون انفسهم أنهم معدون لان يعيشوا معيشة دنيوية لا يعرفون فيها التقشف والخمول فلم يكونوا الا عساكر منتخبين دخلوا فى هذه الطائفة لمحض الجهاد والغيرة على الدين وخدمة البابا الذى هو خليفة الله فى ارضه فكان جل غرضهم تعليم الجاهل وقمع الخارج عن طاعة الكنيسة الرومانية وكانوا لاجل هذا الغرض معافين من شعائر العبادة والتقوى كالتقشف والزهد ونحو ذلك

(سنة ١٥٤٠)

عما هو صفة غيرهم من الاتقياء والعباد فهم وان كانوا لا يحضرون الزفاف والمحافل العامة ومواسم اللعب واللهو الا أنهم كانوا لا يلتزمون تعذيب انفسهم بالافراط فى التقشف والزهد ولا يضيعون غالب اوقاتهم فى تلاوة ادعية وصلوات توجب السآمة والضجر بل كانت وظيفتهم الالتفات الى ما يحصل فى الدنيا وانتهاز كل فرصة لاحت لهم فيما يخص الدين والبحث عن طباع الدول واخلاق اهلها والسعى فيما يستميلهم اليهم ويحببهم فيهم ويؤخذ مما ذكرناه أن الغرض من هذه الطائفة وكذلك قوانينها واحكامها كان يلقى فى اذهان اربابها طرق الدسائس والتولع بالقتال لاجل الدين ويزهدهم فى الخمول ويرغبهم فى التظاهر بالبطش والصولة

مطلب
مغايرة اصولها لغيرها لاسيما فيما يخص شوكة الرئيس

وحيث كان غرض هذه الطائفة مباينا لغرض ماعداها من الطوائف القسيسية كل المباينة كانت ايضا مغايرة لغيرها من تلك الطوائف فى كيفية حكومتها وادارتها وذلك أن الطوائف الاخرى كانت اشبه بجمعيات اختيارية اى مجتمعة بمحض اختيارها وارادتها وكان كل ما يخص مجموع الطائفة يعمل بمقتضى رأى جميع اربابها وكانت قوة النفوذ من خصايص رؤساء الاديار والطوائف واما قوة تقنين القوانين فكانت منوطة باهل الجمعية عموما وكانت ادارة المصالح المهمة المتعلقة بالاديار الخصوصية مختصة بجمعيات القسوس الموجودة بتلك الاديار بمعنى أن كل جمعية قسيسية وجدت بدير تكون منوطة بادارة مصالحه بخلاف المصالح المتعلقة بعموم الاديار فان ادارتها كانت منوطة بالجمعيات القسيسية كلها * واما لوايولة فكان لخدمته فى العسكرية ومكثه فيها مدة قد تعوّد على طاعة المرؤس للرئيس وانقياد التابع للمتبوع فاراد أن يجعل حكومة طائفته مونرخية محضة بمعنى أنه يكون عليها كملك مطلق التصرف فيها ولما كانت رياسته على هذه الطائفة بانتخاب رسل العمالات وتولى هذا المنصب على أنه لا ينزع منه مدة حياته كان له الحكم المطلق على سائر اربابها فى جميع الاحوال فكان يولى بنفسه جميع من يلزم لحكم اقاليم الطائفة من القسوس وجميع ضباطها ويسوغ له أن يعزلهم كما ولاهم وكان مختصا

(سنة ١٥٤٠)

بادارة ايراد الطائفة واموالها يتصرف فى ذلك كيف يشاء وكان ايضا مطلق التصرف فى ارباب طائفته يأمرهم بما شاء ويوجههم حيث شاء وكان يجب على ارباب تلك الطائفة أن لا تكون طاعتهم له فى الظاهر فقط بل كان يلزمهم ايضا أن يعرضوا عليه ما يخطر ببالهم وتتعلق به ارادتهم وأن يذعنوا لاحكامه ويقبلوها كانها صادرة عن عيسى عليه السلام فكانوا بالنظر لحكمه كآلة بيد صانع او كالطين بيد صانع الفخار او كاجسام ميتة لا حراك بها وقد انطبعت هذه السياسة العجيبة فى قلوب جميع ارباب تلك الطائفة حتى صار لهم قوة خاصة بهم فى سائر مشروعاتهم ولم يشاهد فى التواريخ البشرية مثل هذا التصرف المطلق لا بين رهبان عاكفين فى الاديار على صوامعهم وبيعهم ولا بين رجال منتشرين كالجراد بين الملل

مطلب
الاسباب التى كانت تعين لوايولة حتى الاعانة على اجراء ذلك التصرف المطلق

وكما كانت قوانين هذه الطائفة تجعل لرئيسها التصرف المطلق فى اربابها كانت تعينه على معرفة طباعهم وصفاتهم حق المعرفة وذلك أن كل انسان اراد الدخول فى هذه الطائفة كان يجب عليه أن يفصح عما فى ضميره لرئيسها اولشخص آخر من طرفه وهو كناية عن اعترافه له بخطاياه وذنوبه وما تميل اليه نفسه ولم يكن لوايولة يكتفى بذلك فى معرفة مخبآت القلوب والاطلاع على البواطن بل كان من قوانينه أن كل انسان من اعضاء طائفته يجب عليه أن يلاحظ من دخل فى خرقتهم فى اقواله وافعاله فبذلك كان القديم جاسوسا على الجديد يلتفت الى حركاته واطواره فى سلوكه ويخبر الرئيس لوايولة بكل امر مهم اطلع عليه ولاجل أن يكون هذا الامتحان على غاية من الدقة والتشديد كان يلزم من دخل فى الطائفة أن يمكث فى مبدأ امره مدة مستطيلة وهو يخدم بالتدريج فى سائر خدم الطائفة فاذا بلغ من العمر ثلاثا وثلاثين سنة قبلت منه المبايعة وعد من اعضاء الطائفة فبهذه الطريقة كان الرؤساء الاصاغر يعلمون حقيقة جماعاتهم ويعرفون استعدادهم ودرجتهم فى المعارف وبذلك كان لوايولة فى الطائفة كالروح فى البدن يحركها كيف شاء ويعرف بواطنهم وظواهرهم فسهل عليه ادارتهم وكان يجب على رؤساء اقاليم طائفته

(سنة ١٥٤٠)

ورؤساء ادبارها أن يرسلوا اليه فى اوقات معلومة اعلامات وجرائد تتعلق بمن تحت رياستهم يبينون فيها تفصيلا كيفية سلوك كل انسان واخلاقه الذاتية او المكتسبة واختباره بالامور والمصالح والخدمة التى تلايمه ويلايمها وكانت هذه الجرائد كلها تحرر وتكتب بالترتيب وتقيد فى دفاتر وتعرض على اولاية فبذلك كان يمكنه فى مدة يسيرة أن يطلع على امور الطائفة اليسوعية بتمامها ويعرف صفات كل شخص من اعضائها واخلاقه ودرجته فى المعارف فينتخب منهم من شاء ويقلده بالوظيفة التى يرى أنها اوفق بطبعه

وحيث كان غرض هذه الطائفة السعى فى انقاذ المهج وسلامة الارواح على معتقدهم كان لاربابها وظائف كثيرة فى الامور الدنيوية * فبمجرد انشاء طائفتهم عدوا تربية الاطفال وتعليمهم من اعظم وظائفهم وتسابقوا الى حيازة مراتب النظار والمعلمين فكانوا لا يغفلون ابدا عن تعليم العامة وبعثوا رسلا الى الجهات البعيدة لتنصير من لم يكن على دين المسيح ولهذه الاسباب تحبب الناس من تلك الطائفة وصار لها احزاب كثيرة تدافع عنها وتحميها وكان رؤساؤها ينتهزون كل فرصة تعود عليهم وعلى طائفتهم بالنفع فعما قليل تكاثرت اعضاء تلك الطائفة وصار لها شوكة قوية جدا وكلمة نافذة نفوذا خارجا عن حد العادة وقبل انقضاء القرن السادس عشر كانوا معلمين للاطفال وقائمين بتربيتهم فى سائر الاقطار القاثوليقية من بلاد الافرنج وكانوا قد صاروا معلمى اعتراف عند اغلب الملوك وهى وظيفة مهمة جدا فى كل دولة وفى كل زمان حتى انها تفوق وظيفة الوزير اذا كان الملك ضعيف الشوكة وكانوا نظارا على اغلب الذوات والاعيان المعتبرين لعظم مقامهم اولقوة شوكتهم وشدة بأسهم وكانت كلمتهم نافذة عند البابا وكان يأتمنهم ويثق بهم كل الوثوق ويعتقد أنهم اصدق احزابه وامهرهم وانهم انصار دولته وكان لمهارة هذه الطائفة وسعيها وحميتها تأتى اليها الفوائد بدون مشقة فكانوا يستميلون قلوب الناس بتعليم اطفالهم وكان لهم فى قلوب هؤلاء الاطفال موقع عظيم حتى يصيروا اشيوخا وكان بايديهم فى عدة ازمان ادارة اعظم دواوين الممالك الافرنجية وكان لهم دخل فى جميع

(سنة ١٥٤٠)

المصالح والدسائس والفتن وحيث كان رئيسهم يقف على حقيقة الوقائع والحوادث كان فى وسعه أن يدبر امور طائفته على وجه بديع محكم وكان يمكنه بماله من اطلاق التصرف أن ينجز ما شاء من المشروعات

مطلب
ازدياد ثروة الطائفة اليسوعية

وكانت ثروة تلك الطائفة تزداد بازدياد شوكتها واما الفقر المشروط فى الطوائف الدينية فحاولت فيه وسعت فى اهماله مستندة فى ذلك لعدة وجوه فصار لها اراض واسعة واملاك كبيرة فى الممالك القاثوليقية حتى صارت تضاهى غيرها من الجمعيات ذات الثروة فى العمارات العامة المبتهجة والاملاك والامتعة من منقولات وعقارات * وكان لها زيادة على الايراد الذى تشرك فيه غيرها من الطوائف القسيسية ايراد يخصها وذلك انها العلة كونها تريد نجاح ارسالياتها وسهولة معيشة دعاتها طلبت من ديوان رومة أن يأذن لها فى التجارة مع الملل التى تتصدى لتنصيرها فاذن لهم فى ذلك ولم تكن تلك المزية لغيرها من الطوائف فصار لها فى شرقى بلاد الهند وغربيها تجارة رابحة واسعة وانشأت فى جميع الممالك الافرنجية مخازن ملأتها بانواع البضائع وصارت تبيعها مع الرواج والربح الزائد ولم تقتصر على ذلك بل تأسست بغيرها من الجمعيات التجارية وجعلت تجدد محال مستمرة لتجاراتها ففازت بحيازة اقليم واسع خصب فى جنوب امريقة على الارض القارة وصار لها به رعايا كثيرة تحكم فيهم حكما مطلقا

مطلب
النتائج الشنيعة التى ترتبت على هذه الطائفة للجنس البشرى

ولكن حصل للناس مضار كبيرة وحلت بهم مصائب كثيرة بسبب ما كان لهذه الطائفة من قوة الشوكة والصولة التى حازتها بالاسباب المذكورة وذلك أن ما جرت عليه من الضبط فى تربية اعضائها واصول قوانينها واحكامها كان يوجب على كل فرد من افرادها أن يعد مصلحة اوجاق اليسوعية من اهم المصالح والاغراض التى تؤثر على غيرها وترجح على ما عداها حتى انهم كانوا يمتازون عن غيرهم بحبهم لمصلحة طائفتهم وهذا يدل على مناهجهم السياسية ويشعر بغرابة اصول قوانينهم وسلوكهم
وكما أن تلك الطائفة كانت تبحث عما يكون لها به نفوذ كلمة عند الاعيان

(سنة ١٥٤٠)

الممتازين بعلو المقام او بقوة الشوكة رغبة فى تشريفهما ومصلحتها كانت لرغبتها فى استمالة القلوب اليها والوثوق بها تسلك مع الناس مسلك الملاطفة والمراعاة حتى تستوجب مودتهم ومحبتهم فيغضوا عن مثالبها ويتجاوزا عما يصدر عنها من الامور الصعبة

ولما كان اقبال تلك الطائفة متوقفا كل التوقف على شوكة البابات كانت لمراعاة مصلحتها تدافع كل المدافعة عما يترتب عليه ازدياد شوكة البابات وامناء الديانات وفوقانها على مابقى من آثار الشوكة المدنية فجعلت لديوان رومة فى الحكم والقضاء تصرفا مطلقا لم يسبق بمثله فى اعصر الجهالات السابقة على عهد البابات اولى العتو والكبر وابدت أن لا يكون لخرقة القسوس دخل فى الحكومة المدنية والتزمت أن تقاوم كل ملك او امير خرج عن الدين القانوليقى ونشرت قانونا يبيح الكبائر والفواحش ويؤدى الى نقض كل ميثاق وعهد يجمع بين ملك ورعيته

ولما كانت شهرة هذه الطائفة وشوكتها ناشئتين عن قوة عزمها وعلو همتها فى المدافعة عن الكنيسة الرومانية وحمايتها من بدع المعتزلة وضلالاتهم استولى الكبر على قلوبها حتى افضى بها الى أن التزمت أن تنسخ مذاهب المعتزلة وتمحو اثرها فلم تدع حيلة ولا وسيلة الا واستعملتها فى تحصيل هذا الغرض وكانت لا ترى مايراه ديوان رومة من سلوك طرق اللين والملاطفة مع المعتزلة بل كانت دائما تحرض القسوس والامراء على أن يسلكوا معهم مسلك التشديد والتهديد لا مسلك اللين والرفق

وقد تبعهم الرهبان ونسجوا على منوالهم فى هذه الاصول والاوهام المضرة بسعادة البشر وحسن نظام العالم لكنهم لاسباب غير خفية احترسوا فى نشر هذه الاصول اكثر من اليسوعية فلم يتجعوا فيها مثلهم * ومن تأمل ماوقع فى اوروبا منذ قرنين من الوقائع والحوادث رأى أن طائفة اليسوعية هى السبب فى اغلب المصائب والاهوال الناشئة عن فساد الاخلاق وضلالات القسوس وبدعهم التى اودت بشهرة الكنيسة الرومانية وافضت بها فى ذلك

(سنة ١٥٤٠)

العصر الى الضياع وترتب عليها من المصائب والرزايا ما اضر بالجنس البشرى وافسد نظامه

مطلب
الفوائد الجليلة التى ترتبت على حدوث هذه الطائفة

ولكن مع مانشأ عن هذه الطائفة من المضار ينبغى الاعتراف بأنه قد عاد منها على الجنس البشرى منافع كثيرة وذلك أنها كانت تعد تربية الاطفال من الاغراض المهمة ولما شرعت فى انشاء مدارس للتعليم عارضتها فى ذلك المجامع العلمية من عدة ممالك من بلاد الافرنج فرأت أنه يجب عليها بذل جهدها حتى تحرز قصب السبق فى ميدان العلوم والمعارف وتفوق اخصامها الذين عارضوها وتستميل قلوب العالم اليها فشمرت عن ساعد الجد والاجتهاد فى ممارسة العلوم الادبية القديمة واخترعت عدة طرق فى تسهيل التعليم على الاطفال ونجحت فى سعيها حتى كان لها مدخلية عظيمة فى اتساع دائرة الفنون المستظرفة فالفضل لها على الناس فى هذا المعنى ولم يكن نجاحها مقصورا على تعليم اصول العلوم الادبية بل خرج منها اساتذة ماهرون وعلماء ناجبون فى عدة علوم مختلفة ولا مانع أن يقال انه قد خرج من هذه الطائفة من كبار المؤلفين البارعين اكثر ممن خرج من غيرها من سائر الطوائف الدينية

مطلب
نفع اليسوعية خصوصا فى اقليم براغة

وقد ظهر اليسوعية ببلاد امريقة مظهرا غريبا فى العلوم والمعارف وسلكوا احسن المسالك فى نفع الجنس البشرى وذلك أن الذين تغلبوا على هذه البلاد وفتحوها لم تكن آمالهم متعلقة الا بسلب اهلها ونهب سكانها واسرهم وتدميرهم واما طائفة اليسوعية فانها استوطنت بها بالقصد نفع اهلها وذلك انه فى اوائل القرن الاخير اذن لها بالدخول فى اقليم براغه الممتد فى جنوب امريقة فى الارض القارة من داخل جبال بوتوزى الى النزلات الاسبانيولية والبورتغالية التى على شواطئ نهر بلاطة فلما دخلت هذا الاقليم وجدت اهله على اصل الفطرة التى يكون عليها الناس قبل الاخذ فى التأنس والانضمام الى بعضهم فلم يكونوا يعرفون شيأ من العلوم والفنون بل كانوا يقتاتون من صيد البر والبحر ولا يكادون يعرفون مبادى الضبط والربط وما يكون به نظام الجمعيات فالتزم اليسوعية بتعليم هؤلاء المتوحشين

(سنة ١٥٤٠)

وتأنيسهم فعلموهم زراعة الارض وتربية الحيوانات الاهلية واتخاذ المساكن والزموهم بالانضمام الى بعضهم والاجتماع فى القرى والبلدان وعلموهم الحرف والصنايع وطبعوا فى قلوبهم لذة الائتناس والاجتماع واذاقوهم طعم الراحة التى تنشأ عن الامن وحسن النظام فصار هؤلاء الناس رعية لمن احسنوا اليهم واخرجوهم من حيز التبربر الى حيز التمدن وكان اليسوعية يحكمونهم مع الشفقة والرأفة ويعاملونهم معاملة الوالد لولده ولما كانوا محترمين اعزاء محبوبين كانت شرذمة قليلة منهم تحكم على آلاف من هنود امريقة وكان الناس عندهم فى تلك الجمعية الكبيرة على حد سواء فكان يجب على كل واحد من الطائفة أن لا يشتغل بنفع انسان مخصوص بل يشتغل بنفع اهل الجمعية عموما وكانت محصولات الغيطان وفوائد الصنايع توضع فى مخازن عامة ويعطى منها الكل انسان ما يلزم له ولما كانت قوانين حكومتهم واصولها بهذه المثابة كانت منزهة عن الاغراض التى تضر براحة الجمعيات ويسوؤها حال العباد وكان هناك حكام ينتخبهم الهنود وينيطونهم بحفظ الامن وبقاء الطمأنينة بين الناس وبالعمل بمقتضى القوانين المقررة ولم يكونوا يعرفون العقاب بالقتل وان كان كثيرا شائعا فى سائر الملل وانما كان العقاب عندهم كناية عن توبيخ او تعزير يوجهه احد اليسوعية الى من ارتكب جنحة توجب له ذلك او يفضح الجانى فضيحة خفيفة فان كان الذنب جسيما ضرب بعض سياط فكان ذلك كافيا فى تربية هؤلاء الناس وانتظامهم وحفظ الضبط والربط بينهم

مطلب ما ربها السياسية المبنية على الطمع .

ولكن مع ما بذلته طائفة اليسوعية من الجهد فى نفع الجنس البشرى نقول انك اذا التفت الى كيفية سعيهم رأيت من اول وهلة أن لهذه الطائفة لها فى ذلك مآرب سياسية لا تخفى على النبيه فانها كانت تسعى فى أن تجعل اقليم براغه حكومة مستقلة لا تخرج عنها وتكون جيدة القوانين والاصول بحيث يترتب عليها اتساع دائرة حكمها وانتشار احكامها فى جميع البلدان التى بجنوب امريقة وانضم الى هذا الغرض غرض آخر وهى انها كانت

(سنة ١٥٤٠)

تريد منع القبائل الاسبانيولية والبورتغالية التى كانت نازلة بتلك الجهة عن أن يكون لها ادنى صولة على اهالى البلاد التى كانت تحت حكم اليسوعية فلهذا الغرض جعلت تغرس فى قلوب الهنود بغضة الاسبانيول والبورتغال ومنعت أن يكون بين اهل هاتين القبيلتين مخالطة او تجارة فنعت أن يدخل هذا الاقليم احد من التجار الاسبانيولية او البورتغالية وكان اذا اتى اليها رسول من الممالك الاجنبية لغرض من الاغراض وادخلته فى بلادها لا تأذن له بالكلام مع الهنود وكانت ايضا لا تأذن لاحد من الهنود بالدخول فى البيت الذى به الاجانب الا بحضور انسان من اليسوعية وكانت لهذا الغرض ايضا تحاذر مهما امكن أن تعلم الهنود اللغة الاسبانيولية او غيرها من اللغات الافرنجية وانما كان دأبها أنها اذا امدنت طائفة او قبيلة ادخلت عندها فرعا من اللغة الاهلية وكانت تبذل جهدها فى نشر هذا الفرع فى جميع البلاد الداخلة تحت حكمها

ولما كان مثل هذه الاحتراسات لا يكفى بمجرده فى تأييد دولتها وبقاء حكومتها بل لا بد لذلك ايضا من قوى عسكرية علمت رعاياها فن الحرب على حسب الاصول الافرنجية وجددت الايات من الفرسان والمشاة وسلحتها باسلحة جيدة واحكمت سياستها وضبطها وربطها واعدت عندها مقدارا جسيما من الاسلحة والمهمات الحربية وانشأت لها ترسخانات ومخازن فبهذا الوجه رتبت جيشا يعد مثله كبيرا مهولا بالنظر لتلك البلاد حيث كانت بها اقوى عساكر الاسبانيول والبورتغال العسكرية عبارة عن بعض اورط خالية عن الضبط والربط ولا معرفة لها بفن العسكرية كما ينبغى

مطلب
الاسباب التى دعت المؤلف الى بسط الكلام على حكومة الطائفة اليسوعية وعلى تقدمها

نعم ان الطائفة اليسوعية لم يحصل لها تقدم على عهد الامبراطور شرلكان ولم تنم شوكتها نموا ظاهرا وذلك أنه لنباهته وفطنته ادرك مقاصدها وما يترتب عليها فنعها من أن تتسع دائرتها وضيق عليها كل التضييق ولكن لما كان انشاؤها فى العصر الذى هو موضوع تاريخنا وكان اهل العصر المقصودون بتأليف هذا التاريخ قد شاهدوا اضمحلال هذه الطائفة وزوالها لم نر بأسا

(سنة ١٥٤٠)

بايراد قوانينها واصولها واحكامها ولايعد ذلك من باب الاقتضاب المحض المؤدى لسآمة الواقف على هذا الكتاب لاسيما وهناك سبب آخر خصوصى دعانا الى التكلم على هذه الطائفة بغاية التدقيق وهو أن الافرنج وان كانوا قد مكثوا قرونين وهم يلاحظون شوكة هذه الطائفة وشدة طمعها ولحقهم منها مضار عديدة لم يمكنهم أن يقفوا على حقيقة اسبابها ولم يكن لهم معرفة بالقوانين الغريبة التى كانت تمتاز بها سياسة هذه الطائفة واصول احكامها مع أن هذه القوانين كانت اصلا لميل اهلها الى الطمع والدسائس التى اختصت بها تلك الطائفة ونشأ عنها ازدياد شوكتها وذلك أنه كان من جملة اصول اليسوعية أنه لا ينبغى اشاعة قوانين طائفتهم فكانت محجوبة عن الناس كانها سر مكنون وكانت لا تطلع الاجانب عليها اصلا بل كان عامة الطائفة لايعرفون سرها ولما طلبت منها المحاكم الاطلاع على هذه الاصول امتنعت من اجابتها لذلك فانظر هذا الخطا الغريب الواقع من الملوك واهل السياسة فى ذلك العصر حيث رخصوا لهذه الطائفة أن تستوطن فى عدة بلاد مع تصميمها على اخفاء احكامها وقوانينها مع أن ذلك يكفى مستندا فى طردها من تلك البلاد واجلائها عنها ولما طردت من بلاد البورتغال وبلاد فرانسا اظهرت كتبا تشتمل على اسرار احكامها وقوانينها فبذلك علمت اصول حكومتها وعرف اصل شوكتها على ما ينبغى بعد أن كان يستحيل الوقوف عليه

وحيث بينا ما ترتب على قوانين الطائفة اليسوعية واصول احكامها من المضار وسلكنا فى ذلك من طرق الحرية وعدم التحامل ما يليق بالمؤرخين وجب علينا بمقتضى الصدق والانصاف الذى هو شرط فى كل مؤرخ أن ننبه على أنه لم يحصل فى الكنيسة الرومانية أن طائفة من الطوائف القسيسية امتازت بدماثة الاخلاق وتهذيبها اكثر من هذه الطائفة فانها وان كانت اصولها واحكامها مبنية على مآرب سياسية منشاؤها الطمع والشره فلامانع من أنها كانت تؤثر فى عقول حكامها بل وتفسد قلوب بعض افراد منهم وتفضى بهم الى سلوك ما لا يستحسن الا أن معظمهم كان ما بين مشتغل بالآداب

ومقلد

(سنة ١٥٤٠

ومقلد بالوظائف الدينية فيتبع من الاصول والاحكام ما يمنع الانسان عادة من ارتكاب الفواحش والآثام ويحمله على سلوك طرق الفضائل والاعمال الصالحة ولا شئ احرى بالتفات العارف المتولع بمعرفة وقائع النوع الانسانى وحوادثه من الاسباب التى ترتب عليها انقراض هذه الطائفة الشديدة البأس ولا من العواقب التى ترتبت على انقراضها ببلاد اوروبا غير أنه لا حاجة الى ذكر هذه الحوادث لانها وقعت فى عصر متقدم بكثير على العصر الذى هو موضوع تاريخنا

مطلب
مصالح المانيا

ولما اصلح الايمبراطور حال مملكة البلاد الواطية وسكن فتنها لزمه أن يلتفت عقب ذلك الى مصالح بلاد المانيا وذلك أن المعتزلة كانوا يلحون عليه أن يأمر بعقد المذاكرة التى كان قد وقع الاتفاق على أن يعقدها بعض افراد من علماء اللاهوت ينتخبهم الفريقان بأن يكون بعضهم من طرف المعتزلة وبعضهم من طرف الكنيسة وكان هذا الامر من جملة الشروط المقررة فى المشارطة المنعقدة بمدينة فرنكفورت ولما كان الغرض من هذه المذاكرة انما هو البحث والمناظرة فى المسائل الخلافية والحكم فى شأنها بما يستنسب وكان البابا يدعى أن له الحق فى أن يكون هو الحكم المتصرف فى هذه المادة رأى أن احالتها على غيره من باب الافتيات وعدم الانصاف لاسيما وكان يجزم بأن المذاكرة ان لم تحكم فى هذا المعنى بشئ فلا فائدة فيها والا كانت خطرة عليه ومضرة به فلم يأل جهدا فى تعطيلها ومنع انعقادها ولكن كان الايمبراطور اذ ذاك يرى أن مصلحته فى استمالة قلوب اهل المانيا اليه اعظم منها فى مراعاة خاطر البابا فلم يلتفت الى قوله بل صمم على عقدها فانعقدت مشورة الدييتة بمدينة هاغونو وجمع اربابها المواد التى تكون موضوع المفاوضة والمذاكرة ثم انعقدت بعد ذلك بمدينة ورمس ووقعت فيها المذاكرة بين علماء الفريقين وكان المتصدر من علماء المعتزلة ميلختون ومن علماء القانوليقية ايكيوس فانعقدت بينهما المناظرة وجالا فى ميدان المحاورة كثيرا الا أنهما لم يحكما فى تلك المادة بشئ فصدر امر من الايمبراطور بابطال هذه المذاكرة لانه اراد أن تنعقد

مطلب
المذاكرة التى حصلت بين علماء اللاهوت القانوليقية وعلماء المعتزلة

ثانيا بحضرته فجمع لذلك مشورة الديتة بمدينة راتسبونة ووقعت المذاكرة ثانيا فى مجلس حافل حتى جزم الناس بأن هذه المذاكرة يقع فيها نزاع شديد وجدال كبير ويحل فيها كل اشكال ويظهر الحق ويتضح الحال وفوض كل من الفريقين للايمبراطور أن ينتخب ارباب المذاكرة بنفسه فعوضا عن أن تكون تلك المذاكرة على صورة منازعة عامة وقع الاتفاق على أن يبحث بالتى هى احسن فى المواد التى كانت سببا فى الخلاف بين الفريقين فعين الايمبراطور من حزب القاثوليقية ثلاثة وهم ايكيوس و غروبير و بفلوغ ومثلهم من حزب المعتزلة وهم ميلنختون و بوسير و بستريوس وكان كل من هؤلاء الستة مشهورا فى طائفته وكانوا جميعا ممتازين بلطف الاخلاق والميل الى الصلح ماعدا ايكيوس فلما افتتحوا المذاكرة قدم الايمبراطور اليهم كتابا وذكر لهم أنه تأليف رجل من علماء اللاهوت من مملكة البلاد الواطية وأنه رائق العبارة حسن التركيب بحيث يمكن بواسطته الاصلاح بين الفريقين وقد ظن بعض الناس فيما بعد أن هذا الكتاب تأليف غروبير احد الستة الذين انتخبهم الايمبراطور فانه زيادة على فطنته وحذقه كان له اطلاع واسع وباع طويل فى العلوم والمعارف وكان الكتاب المذكور مشتملا على اثنتين وعشرين مادة من مواد اللاهوت وكان معظم المسائل الواقع فيها الخلاف بين حزب المعتزلة والكنيسة الرومانية مندرجا فى تلك المواد وكان غرض مؤلفه بتاليفه هو أن يبدى آراءه ويرتبها ترتيبا طبيعيا ويفصح عنها بعبارات سهلة عذبة لم يخرج فيها عن الفاظ الكتاب المقدس اوالفاظ الحواريين وأن يلطف بعض العقائد ويحسنها و يحترز منها ما كان غير معقول وأن يصلح بين الفريقين بتسليمه فى بعض المسائل لحزب الكنيسة وفى بعضها لحزب المعتزلة واعتنى حسب الامكان بالمحاولة فى اجتناب عبارات المدارس والفاظ الجدال التى هى علامات تميز احد الحزبين من الآخر وكان فى الغالب يترتب عليها بين علماء اللاهوت نزاع وجدال اعظم مما يترتب على نفس العقائد والآراء وبالجملة فكان تأليف هذا الكتاب على وجه مخصوص بحيث يؤمل الواقف عليه أنه

(سنة ١٥٤١)

مطلب
عدم نفع تلك المذاكرة

ينجح فى الاصلاح بين الفريقين وفى قطع المنازعات الدينية من بين الطائفتين ولكن كان لاهل ذلك العصر فى المجادلات اللاهوتية والمحاورات الدينية تشديد مفرط وتدقيق زائد بحيث لا يمكن خداعهم باى حيلة كانت *وكانت مدة المذاكرة قد طالت واشتد فيها الجدال والنزاع فاغتاظ كل من الفريقين ونفر وتكبر حتى تعذر الاصلاح بينهما فاما القاثوليقية لاسيما قسوسهم الذين كانوا من ارباب مشورة الدينية فحكموا ببطلان كتاب غروبير المتقدم ذكره متعللين بانه مؤيد لمذاهب لوتير وزعموا أن مؤلفه ليس الا من الروافض حيث اراد ادخال عقائده الزائغة فى عقول الناس بهذه الحيلة الخطرة واما المعتزلة لاسيما لوتير ونصيره الامير منتخب سكس فلشدتهم وصعوبتهم ابدوا أنه يجب نبذ هذا الكتاب ظهريا قائلين انه ذبذبة قد جمع بين الحق والباطل وانما وضعه مؤلفه لغش كل خامل ضعيف وكل ذى عقل سخيف ومع ذلك فالعلماء الذين انيطوا بتحقيق ما فيه امتحنوه مع الدقة والتؤدة وكان يهون على كنيسة رومة ولا تعده من العار أن تسلم فى تغيير بعض العقائد النظرية التى كان النزاع فيها اقل أن يخرج عن مجالس المدارس وعلى فرض خروجه عنها وانتشاره بين العامة لم يكن فيه شئ مما يوجب لهم العجب او يؤثر فى نفوسهم فلذا لم يتوقف القاثوليقية فى التسليم فيما يخص هذه المادة بل ورضوا أن يسلموا فى مادة اخرى مهمة وهى مسئلة براءة الناس ولكن لما وقعت المفاوضة فى مادة الاحكام والفتاوى التى تضر بمصالح الكنيسة الرومانية وتجر الى ضعف شوكتها اوالى خدش الرسوم الجارية فى التعبد والديانة وكان اذا حصل فيها تغيير ينتشر بين الانام ويكون معلوما للخاص والعام دقق القاثوليقية فى هذا المعنى كل التدقيق ولم يتساهلوا فى شئ من ذلك اصلا لانهم كانوا يرون أن ابطال هذه الرسوم القديمة يترتب عليه ضياع شرف الكنيسة الرومانية واحترامها ويخشى عليها منه فكل ما يخص شوكة البابا وصولة الجمعيات القسيسية وصيغة اداء التقديسا والصلاة وما اشبه ذلك كان غير قابل للتغيير والتبديل حتى انه بعد بذل غاية الجهد فى الاصلاح بين الفريقين فى شأن هذه المواد جزم الامبراطور

(سنة ١٥٤١)
٢٨ من شهر تاموز

مطلب
اتفاق مشورة الديتة المنعقدة بمدينة راتسبونة على عقد جمعية قسيسية عامة

بأن سعيه لاثمرة فيه ولاطائل تحته غير أنه لما كان يود انهاء مشورة الديتة على وجه السرعة بذل وسعه حتى استمال جمهور اعضائها الى قبول الامر الآتى وهوان المواد التى اتفق عليها العلماء فى المذاكرة تعتبر كأنها مثبتة وصارت مما لاخلاف فيه بحيث لايجوز لاحد من الفريقين نقضها واما المسائل التى اختلفوا فيها فتوقف حتى تنعقد لها جمعية قسيسية عامة فان منع من انعقادها مانع انعقد لاجلها جمعية ملية ببلاد المانيا فان تعذرت هذه الجمعية ايضا انعقدت مشورة الديتة الايمبراطورية قبل مضى ثمانية عشر شهرا لتبت امرها وتنهى موجبات الشقاق بين المعتزلة والكنيسة الرومانية وان الايمبراطور يبذل مجهوده فى حمل البابا على عقد جمعية قسيسية اوملية وانه قبل انعقادها لايجوز تغيير شئ ولا تبديله ولاالاقدام على مايترتب عليه تكثير حزب المعتزلة وانه لايسوغ التعدى باى وجه كان على ايراد الكنيسة ولاعلى محصولات الاديار والقسوس

مطلب
غضب المعتزلة والقاثوليقية مما حكمت به مشورة الديتة

وكل اعمال هذه المشورة وما حكمت به فى هذا المعنى اغضب البابا كل الغضب وذلك أن اهل المانيا لما انتخبوا بانفسهم افرادا من علمائهم اللاهوتية ليمتحنوا المسائل الخلافية ويحكموا فى شأنها حكما بتيا ظهر للبابا أن ذلك محض افتيات على حقوقه واغتاظ منهم ايضا حيث طلبوا ثانيا عقد جمعية ملية فرأى أن ذلك خروج عن الطاعة لتقدم طلب ذلك مرارا عديدة وعدم اجابتهم واقرارهم عليه كما فعله اسلافه من البابات* ولما انحط الرأى على عقد مشورة الديتة وأن اربابها يكون معظمهم من اللاييك ويكون لها الحق فى أن تحكم حكما بتيا فى شأن المواد الدينية غضب القاثوليقية ورأوا ذلك كفرا اقبح من الالحاد والاعتزال الذى كانوا يبذلون جهدهم فى نسخه وازالته وغضب المعتزلة ايضا حيث حكم عليهم بحكم فيه تضييق على حريتهم التى كانوا يتمتعون بها الى ذلك الوقت وتظلموا من هذا الحكم كل التظلم حتى ان الايمبراطور لقصد

مطلب
سعى الايمبراطور شرلكان فى استمالة قلوب المعتزلة ورضاء خاطرهم

ازالة هذا الغضب من قلوبهم ومنع مايترتب عليه للايمبراطورية من الضرر حرر اليهم فرمانا مخصوصا يتضمن معافاتهم من كل شئ اساءهم اورأوه من بابة

(سنة ١٥٤١)
مطلب
مصالح بلاد المجار

الظلم والاجحاف بهم مما تضمنه فرمان الديتة وانعم عليهم في هذا الفرمان بتقريرهم باستمرار التمتع بالمزايا والخصايص التي كانت لهم ومثل هذا الحلم من الامبراطور يعد غريبا الا أنه كان مجبورا على ذلك حسبما اقتضته الاحوال اذ ذاك وذلك أنه كان يرى أنه عما قليل لابد من وقوع الحرب بينه وبين مملكة فرانسا فبناء على ذلك لا يليق به أن يغضب المعتزلة لانهم ربما جنحوا الى ملك فرانسا وتحالفوا معه واتخذوه عونا وظهيرا كما وقع منهم مثل ذلك سابقا وهنالك سبب اقوى من هذا في مراعاة الامبراطور للمعتزلة وهو أن جيوش الدولة العثمانية كانت في ظفر عظيم ببلاد المجار وكان قد حصل في هذه المملكة فتنة كبيرة وذلك أن حنا زابولسو بوس صاحب بلاد المجار كان قد اختار كما تقدم أن تكون مملكته خراجية ولا يحرم من المنصب الملوكي فكان يدفع الخراج والجزية للدولة العثمانية وكان السلطان سليمان نصره الله فباعانة هذا السلطان الشديد البطش اخذ من الملك فرديننند جزأ عظيما من بلاد المجار ولم يترك له فيها الا اشياء واهية ولكن كان حنا المذكور يميل بالطبع الى الصلح فحصلت له حيرة عظيمة من اغارات فرديننند وفتن المغرضين له ببلاد المجار وكان غرض فرديننند من هذه الاغارات استرجاع ما اخذ منه في تلك البلاد وكان حنا ايضا في غم شديد من كونه يرى نفسه أنه مضطر الى الاستعانة بالدولة العثمانية وانه معدود من اتباعها الا من معاهديها وفي الواقع كانت تلك الدولة معه بهذه المثابة *ولما كان يميل الى الصلح بطبعه كما ذكرنا اتفق سرا مع خصمه فرديننند على أنه يبقى مدة حياته ملكا في بلاد المجار وأنه يتمتع بما هو تحت يده منها وبعد موته ترجع المملكة بتمامها الى الملك فرديننند المذكور وكان قصد حنا بذلك أن يريح نفسه من تعب الحرب ويتمتع بمطالعة الفنون ويحظى بالمسرات المستحسنة المألوفة للنفس وكان يومئذ غير متأهل مع كونه قد طعن في السن ففرح فرديننند بهذه الشروط وقبلها منه ولكن بعد ذلك بقليل اتفق اشراف تلك المملكة مع بعضهم على منع وقوع مملكتهم تحت يد ملك اجنبي وحملوا الملك حنا على التزوج بالاميرة ايزابلة بنت

(سنة ١٥٣٥)

(سنة ١٥٤١)

مطلب
موت ملك المجار

سجسموند ملك بلاد له فمات بعد أن تزوجها بسنة واعقب منها ولدا يرثه في المملكة وجعله ولي عهده ولم يلتفت الى المشارطة المنعقدة بينه وبين الملك فرديننند بالجزم ببطلانها حيث حدث مانع لم يكن موجودا حين عقدها واناط بكفالة ابنه ونيابة المملكة كلا من زوجته الملكة ايزابيلة والحبر جورجي مارتينوزى اسقف وردين فكانا وصيين عليه وبايع اغلب الملة هذا الطفل واقروه على الملوكية وسموه اسطفان باسم من اسس هذه المملكة

مطلب
سعي فرديننند في اخذ تاج مملكة المجار

ومع مالحق فرديننند من الورطة والخيبة بسبب هذه الحادثة التي طرأت بغتة ابت نفسه أن يترك تلك المملكة حيث كان له حق فيها بموجب الاتفاق الواقع بينه وبين حنا فبعث رسلا من طرفه الى الملكة ايزابيلة يطلب منها تسليم المملكة وعرض عليها اقليم ترانسلوانيا وهو الاردل لتمكث به هي وابنها وتأهب لتأييد حقوقه بالحرب والقتال ولكن كانت هذه الملكة ذات حزم قوى وكذلك الاسقف جورجي مارتينوزى فكان يجل عزمهما عن التسليم في التاج مع السهولة وكان عندهما من الوسايط ما يلزم لحمايته والمدافعة عنه اتم المدافعة فاما الملكة فكان لها زيادة على الفطنة والسياسة اللائقة بالنساء عزم قوى وطمع شديد مع الشمم وعلو النفس واما جورجي مارتينوزى فكان قد ارتقى بمعارفه من الحضيض الى اوج المعالي بحيازة منصب الاسقفية

مطلب
بيان طمع جورجي مارتينوزى وصولته

وكان من فحول الرجال الذين هم لغزارة معارفهم واتساع دائرة اطلاعهم لهم اقتدار على تنجيز كل امر مهم وازالة كل خطب ملم في اوقات التعكيرات والفتن وكان من حيث وظيفته الدينية يظهر التواضع والتقوى ويراعي شعائر الزهد والتقشف واما في ادارة مصالح الدولة فكانت له دقة عجيبة ونشاط وقوة جنان غريبة فكان في مدة الحرب يخلع ثوب القسوس ويركب جواده ويتسلح بالشاكرية والترس بيده ويبرز في الميدان مع الثبات والمهارة التي لا تعلوها مهارة احد من ابناء وطنه ومع اطواره واحواله المختلفة التي كان يسترها كان يظهر عليه أن له رغبة عظيمة في الحكم والاستيلاء وكان جوابه لفرديننند في هذا المعنى يفهم قبل وصوله بطريق الحدس والتخمين فعما قليل ايقن

فرديننند

(سنة ١٥٤١)

فرديننند انه لايمكنه التغلب على تاج مملكة المجار الا بالسلاح فجمع طائفة كبيرة من عساكر المانيا وانضم اليها احزابه مع اتباعهم فصاروا بذلك جيشا وجهه الى البلاد التى خرجت عن طاعته وانضمت الى حزب اسطفان من مملكة المجار فلما رأى الاسقف مارتينوزى أنه لاقدرة له على مقاومة جيش فرديننند فى حرب الصف وهو أن تصف عساكر كل من الفريقين أمام عساكر الاخر اقتصر على تحصين المدائن والقلاع لاسيما مدينة بودة وتعرف بنودين فانه اهتم بتحصينها بجميع ما يلزم وبعث رسلا الى السلطان سليمان يترجاه فى اعانة الابن كما كان يعين الاب و يمكنه من كرسى مملكته و بذل فرديننند جهده فى تعطيل المداولة التى حصلت فى هذا الشان بين الاسقف مارتينوزى والسلطان سليمان بل وعرض على السلطان أن يستلم منه مملكة المجار ويلتزم بجميع ما كان يؤديه الملك حنا للدولة العثمانية و يدفع الجزية مثله ولكن رأى السلطان أن مصلحته انما هى فى اعانة ابن الملك حنا فوعده بالاعانة والامداد ووجه جيشا الى بلاد المجار ثم اردفه بجيش آخر صحبه بنفسه واما اهل المانيا فظنوا أنهم ان اخذوا المدينة التى بها الملكة ايزابيلة وابنها ينقضى الحرب وتكون النصرة لهم فحاصروا مدينة بودين وكان الاسقف مارتينوزى قد جمع فيها جميع عساكر اشراف المجار فدافع عنها حق المدافعة وثبت أمام العدو مع الشجاعة العجيبة والمهارة الغريبة حتى وصلت اليه جنود الاسلام وقامت بنصره وذلك أنه بمجرد وصولها اليه حملت على جيش المانيا وكان قد فترت همته بما لحقه من التعب والنصب وقل عدده بمن هرب اومات بالامراض فهزمته الجيوش الاسلامية وأبادته عن آخره

مطلب
استعانته بالاسلام

وعما قليل لحق السلطان سليمان جنوده بالجيش الثانى فوجدها منصورة مؤيدة وكان قد سئم من المدافعة عن بلاد لاتنسب اليه اواغتر بتلك الفرصة التى لاحت له فصمم على اخذ هذه المملكة واستسهل ذلك حيث كانت تحت يد طفل وصيه امرأة وقسيس لااقتدار لهما على مقاومة جنوده الكثيرة فداخله

مطلب
مافعله السلطان سليمان مما لايليق بالملوك

(سنة ١٥٤١)

الاغترار والطمع ولم يراع مايعتد فى الدول من شعائر المروءة وشرف العرض فسلك مسلك الخديعة والتحيل لينجز هذا الامر الذى مجرد خطوره بالبال يخدش سياسة عرض الانسان وذلك انه دعا الملكة ازابيلة الى الحضور بعسكره صحبة ابنها مظهرا التشوق الى رؤيته ودعا ايضا اعيان مملكة المجار واكابر اشرافها الى الحضور عنده لموسم يريد عمله فبينما كانت الملكة واكابر دولتها يلهون ويلعبون مع الامن والطمانينة اذ نزلت سرية من جنود السلطان وتغلبت على احد ابواب مدينة بودين وبعد أن استولى بهذه الحيلة على تخت المملكة وقبض على الملك وامه واعيان الاشراف ارسل الملكة وابنها الى اقليم الاردل وكان قد عينه لهما وولى باشا من طرفه وجعل دار اقامته مدينة بودين وترك عنده جيشا عظيما فبهذا الوجه انضمت مملكة المجار الى الدولة العثمانية ولم يرث لحال الملكة وهى تبكى وتتضرع اليه وكان الاسقف مارتينوزى ضعيف الشوكة لايمكنه مخالفة ارادة السلطان ومع ذلك بذل جهده فى تحويله عما عزم عليه فلم يجد ذلك نفعا

مطلب ماعرضه فرديننـد على السلطان

وقبل أن يصل الخبر الى فردينند بهذا الظلم كان قد بعث الى السلطان سليمان رسلا يعرضون عليه الالتزام بحقوقه فى مملكة المجار وما كان عرضه عليه اولا من أن السلطان يعطيه هذه المملكة وهو يدفع له الجزية فى كل سنة فرد السلطان رسله خائبين ولم يقبل منهم صرفا ولا عدلا بل اظهر أنه لايدع الحرب الا اذا سلم اليه فردينند حالا جميع المدائن التى كانت تابعة له بتلك المملكة ورضى بتقرير مقدار معلوم على الاوسترسيا فى نظير المصاريف الجسيمة التى صرفتها الدولة العثمانية فى المدافعة عن مملكة المجار لان السبب فى ضياع تلك المصاريف انما هو اغارة فردينند على تلك المملكة

هكذا كانت حالة المصالح فى بلاد المجار وحيث ان هذه الحوادث المشؤمة كانت قد حصلت قبل انعقاد مشورة الدييتة بمدينة راتسبونة وكانت تخشى عواقبها رأى الايمبراطور أنه ان فعل مع المعتزلة مايوجب غضبهم فى ذلك الوقت فقد عرض نفسه الى الخطر حيث كان يرى أن مثل هذا السلطان

الشديد

(سنة ١٥٤١)

الشديد البطش مستعد لشن الغارة على الامبراطورية وكان يعلم أنه لا يؤمل من المعتزلة اعانة فى استرجاع بلاد المجار من ايدى الاسلام ولا مدافعة عن ضواحى الاوستريا الااذا اتحفهم واجابهم الى مطلوبهم ولم يبلغ قصده منهم الابعد الاقطاعات والمزايا التى اتحفهم بها وقد تقدم الكلام على ذلك فتعهد المعتزلة أن يعينوه فى حربه مع الدولة العثمانية بكل الاعانة ويمدوه بمدد عظيم من الرجال والاموال فأمن الامبراطور واطمأنت نفسه وصار لا يخشى على بلاد المانيا من حصول حرب بينه و بين اعدائه

مطلب
سفر الامبراطور الى ايطاليا

وبمجرد انقضاء مشورة الدينية سافر الامبراطور الى بلاد ايطاليا ولما مر فى سيره بمدينة لوكة اجتمع فيها بالبابا ومكثا معا مدة قليلة وهما يتذاكران فيما يصلح من الوسايط لانهاء المشاجرات الدينية التى كانت تعكر بلاد المانيا ولكن لم يقع الاتفاق بينهما على شئ حيث كانت آراؤهما ومصالحهما فى هذا المعنى متباينة كل التباين وقد سعى البابا فى قطع اسباب التفاقم الذى كان بين شرلكان والملك فرنسيس وبذل جهده فى ازالة العداوة والبغضاء من بينهما لانه كان يخشى أن يترتب على ذلك حرب مهول فى بلاد اوروبا لكن كان سعيه فى ذلك سدى

مطلب
اغارته على بلاد الجزائر والاسباب التى دعته الى ذلك

وكان الامبراطور مشغولا بما كان عزم عليه من شن الغارة على بلاد الجزائر فلم يلتفت الى ما عرضه عليه البابا فى شأن الصلح مع فرنسيس بل عجل بالرحيل ليلحق دونغاه وجيشه

وكانت بلاد الجزائر بالمغرب اذذاك لم تزل من عهد بربروس تحت حكم الدولة العثمانية ولما تولى بربروس قبطان باشا على دونغا الدولة العلية تولى حكم الجزائر حسن اغا الطواشى وكان فى الاصل نصرانيا ثم اسلم وخدم فى البحرية عند اهل الجزائر فى سفنهم التى كانت صائلة فى البحر وارتقى الى سائر الرتب بالتدريج فصار فى فن الحرب بمكان من المهارة والتجربة حتى كان يصلح لأن يناط بوظيفة مهمة جسيمة تقتضى العزم والحزم وتستلزم معارف واسعة فقصد أن يجعل نفسه جديرا بالمنصب الذى تقلد به فكان يظلم جميع الدول

سنة ١٥٤١

النصرانية ويغير عليها مع مزيد القوة والنشاط حتى انه لو فرض أن هناك من يفوق بربروس فى الجسارة والقسوة لكان هذا الطواشى قد بلغ من قسوته وجسارة احزابه أن انقطعت التجارة فى البحر الابيض حيث كان ينقض على سواحل اسبانيا والبلاد المحاذية للبحر ويوقع فى اهلها الرعب والفزع حتى اضطروا الى بناء رباطات فيها ووضع خفر يلازم حفظها من اهل بلاد البربر ويحمى الاهالى من اغاراتهم وكان الايمبراطور منذ زمن طويل تصل اليه شكاوى من رعاياه مضمونها أن مصالحه وشعائر المروءة توجب عليه أن يقمع اهل الجزائر التى صارت منذ فتح تونس ماوى لارباب الصيال وأن يقطع دابر هؤلاء الظلمة الذين هم اشد اعداء ابناء النصرانية فبناء على تضرع رعاياه اليه اوطمعا منه فى ازدياد فخاره الذى حازه بانتصاره فى المرة الاولى على بلاد افريقة صدر منه امر قبل سفره من مدينة مدريد قاصدا مملكة البلاد الواطية لبلاد اسبانيا وايطاليا بتسليح دونما وجمع جيش لقصد هذا الحرب ولم تفتر همته بما طرأ فيما بعد من التغيرات فلم تمنعه اغارات الدولة العثمانية ولا الحاح احبابه فى المانيا عليه وافهامهم له أن اول واجب عليه هو اهتمامه بالمدافعة عن الايمبراطورية ولا استهزاء اعدائه به حيث كانوا يقولون انه لعدم اقتداره على مقاومة السلطان شرع فى الذهاب الى بلاد افريقة متعللا بما تقدم فكل ذلك لم يؤثر عنده شيأ ولم يحمله على تحويل قواه وعساكره الى بلاد المجار ولاشك أن هجومه على السلطان ببلاد المجار كان يكسبه الشرف وعلو المقدار الا انه كان دون السلطان فى الشوكة والقوة وكانت مصالحه اذ ذاك تقتضى خلاف ذلك فلو تعرض لحرب السلطان للزمه أن يحضر عساكر من بلاد اسبانيا وايطاليا وهى بعيدة عن دار القتال وللزمه ايضا تجهيزات كبيرة واسعة لنقل المدافع والاسلحة والذخائر والمهمات الحربية وأن يتمم فى واقعة واحدة حربا كبيرا كان يصعب تتميمه فى عدة وقائع وهذا كله كان يستدعى مصاريف جسيمة ومبالغ عظيمة لا يقدر عليها مع نفاد خزائنه اذ ذاك فى المشروعات التى كانت مفتوحة عليه

من

من كل جهة

وزيادة على ذلك لووجه قواه الى هذه الجهة نخشى من ملك فرانسا على بلاده التى بايطاليا ومملكة البلاد الواطية اذلاريب أن فرنسيس لا يهمل فى انتهاز تلك الفرصة وشن الغارة على الاراضى المذكورة * وايضا كانت مواد الاغارة على بلاد افريقة ومهماتها قد تكاملت وكذلك مصاريفها الاماندر فلم يبق عليه الا مجهود واحد (وهو شن الغارة على تلك البلاد) لايستغرق الامدة يسيرة بحيث لا يتمكن فرنسيس من اغتنام فرصة غيبته فيهجم على دوله التى ببلاد اوروبا وهذا زيادة على ما يترتب عليه من امن رعاياه واطمئنانهم وسرورهم بحيازة الظفر والنجاح فى هذا المشروع

مطلب تجهيزاته

وكل هذه الاسباب حملت الايمبراطور على التصميم على قصده وعدم العدول عنه ولم يلتفت الى نصح البابا ولا الى نصح الامير اندره دورية الذى كان يلح عليه بعدم السفر ويفهمه أنه يخشى على الدونمنا اذا دنت من سواحل بلاد الجزائر لان رياح فصل الخريف اذ ذاك كانت شديدة جدا فلما نزل فى سفن اندره دورية من مينا پورتو ونير ببلاد جنوية وسار قليلا عرف أن كلام الامير اندره دورية فى محله وذلك أنه حصلت فرطونة مهولة فلم يمكن أن يرسو على جزيرة سردينيا التى كانت ملتقى لجميع الدونمات الا بشق الانفس ولكن لما كان من طبعه أنه اذا صمم على شئ لا يعدل عنه الا اذا افضى امره لم يلتفت الى قول البابا ولا الى قول دورية ولم يرتدع من الخطر الذى كان عرضة له ولم ينشأ عن ذلك كله الا زيادة التصميم على هذا الغرض المشؤم ولا يخفى أن العدة التى كان جمعها كانت تكسب النفس امل النجاح ورجاء الظفر ولو لم تكن كنفس الايمبراطور فى الشمم والجسارة فقد كان عدد ذلك من المشاة عشرين الفا ومن الخيالة الفين ما بين اسبانيولية وايطالية والمانية وكان اغلبهم قد تقادم عهده فى العسكرية حتى صار متمكنا من اصولها وفروعها وكان مع الايمبراطور ايضا ثلاثة آلاف من ابهى واعظم اشراف اسبانيا وايطاليا صحبوه فى هذه

سنة ١٥٤١

السفرة بعض اختيارهم وكان يترآى منهم أن لهم مزيد رغبة فى مقاسمته فخار
تلك الغزوة وزيادة على ذلك كان قد اتى اليه من جزيرة مالطة الف
من العساكر بعثهم اليه ارباب الطائفة الدينية المسماة طائفة سنت جان
اى مارى حنا وارسلوا معهم مائة من ابطال هذه الطائفة

مطلب
خروج الايمبراطور على سواحل افريقة

وقد لحقه فى سيره من جزيرة مايورقة الى سواحل افريقة من التعب والمشقة
بقدر ما لحقه من ذلك قبل وصوله الى جزيرة سردينيا وذلك انه لما دنا من البر
اشتدت الرياح وهاجت العواصف حتى لم يمكن للعساكر أن يخرجوا من البحر
و بعد مكابدة المشاق الفادحة اعتدل الهواء مدة يسيرة فعجل الايمبراطور
باتنهاز تلك الفرصة واخرج عساكره الى البر بدون عائق ولا مانع وكان خروجهم
قريبا من مدينة الجزائر فتوجه اليها بدون مهلة ولا تراخ ولم يكن عند
حسن اغا الطواشى حاكم الجزائر من العساكر الا ثمانمائة من الاتراك وخمسة
آلاف من المغاربة نصفهم من اهالى بلاد الجزائر والنصف الآخر من غرناطة
ومع ذلك اجاب الايمبراطور حين طلب منه التسليم مع الشمم والكبر ولا يخفى
أنه مع شجاعته وتمكنه من فن الحرب وكثرة تجاربه كان لقلة عساكره لا يمكنه
أن يقاوم عساكر الايمبراطور لانها كانت فى هذه المرة اكثر عددا من العساكر
التى هزمت بربروس فى المرة السابقة مع أنه كان مع بربروس حينئذ
ستون الفا وتغلب الايمبراطور فيها على تونس مع ما بذله بربروس المذكور
اذ ذاك من الجهد واشتهاره بالبطش والشجاعة

مطلب
دمار جيشه

ولكن بينما كان الايمبراطور يرى أنه لا يخشى شيأ من جهة اعدائه اذ نزلت به
مصيبة من جهة اخرى فوق طاقة البشر بحيث لا يمكن للانسان أن ينجو منها
بحزمه وعزمه وذلك أنه بعد خروجه مع عساكره من البحر بيومين اخذ يطرد
بعض طوائف من العرب كانت تهجم على جيشه مدة سيره فبينما هو كذلك
اذا امتلأ الجو بسحاب كثيف واشتد الظلام وعند المساء عصفت الرياح ونزلت
امطار غزيرة كانت تطردها رياح شديدة فتسقط بقوة وشدة وازدادت
الفرطونات وهاجت الرياح مدة الليل وكان عساكر الايمبراطور لم يخرجوا

من

من السفن الا اسلحتهم فقط فمضت عليهم تلك الليلة وهم فى الكشف تحت السماء عرضة للعواصف والامطار وعما قليل فاضت المياه على الارض حتى صار لا يمكن للعساكر أن يأخذوا مضاجعهم منها وكان معسكرهم فى اراض منخفضة فكان السيل يأتى اليها من جميع الجهات حتى عمها وكان الرجل منهم اذا نقل قدمه غاص فى الطين الى نصف ساقه وكانت الرياح مع ذلك عاصفة حتى لزمهم أن يغرسوا رماحهم فى الارض ليستندوا اليها وكان حسن اغا الطواشى متيقظا كثير المهارة والنشاط لا تفوته مثل هذه الفرصة التى تعينه على القتك بعدوه وتدميره وذلك انه عند طلوع الفجر خرج مع عساكره من العمران وهم على شدتهم وقوتهم لم يضع منها شئ فيما كابدوه من الامطار والرياح كعساكر الايمبراطور فبمجرد ظهورهم هرب العساكر الايطالية الذين كانوا نازلين بقرب المدينة لاجل الحرس والخفر فخرج حسن اغاه بعساكره من هذه المحطة بدون مشقة فلما وصل الى المحطة الثانية قاومته العساكر الايمبراطورية الا أن الامطار اطفأت فتيلهم وبلت بارودهم فلم تنفعهم قرباناتهم بشئ وكانت اسلحتهم ثقيلة عليهم فلم تمض مدة يسيرة الا وهزمهم حسن اغاه بعساكره وبدد شملهم فتقدم الايمبراطور مع الجيش بتمامه لدفع العدو وصده فقتل حسن اغاه من جيش الايمبراطور مقدارا عظيما واودع فى قلوب الباقى الرعب والفزع ثم رجع وعساكره فى غاية الانتظام والترتيب

مطلب دمار الدونمنا

وقد اعقب دمار الجيش بالبر دمار الدونمنا بالبحر وذلك أنه فى اثناء النهار قد ملأ الضوء الجو وانتشر فى الآفاق وكانت العواصف لم تزل مستمرة مع الشدة وكان البحر يضطرب كل الاضطراب وامواجه تتلاطم كالجبال فاقتلعت السفن اهلابها وتكسرت بتصادمها مع بعضها اومع الصخرات وقذفت الامواج كثيرا منها الى البر وابتلعت بعضها ففى اقل من ساعة عدم من السفن الحربية الكبيرة خمس عشرة سفينة ومن سفن النقل مائة واربعون وغرق من الرجال ثمانية آلاف كانوا بها ومن حاول النجاة منهم وعام حتى وصل الى البر ذبحه العرب ولم يرثوا لحاله واما الايمبراطور فلما داخله من الرعب والفزع كان ينظر الى هذه

سنة ١٥٤١

المصائب بعين الحيرة ولا يتفوه بشيء وكان ايضا ينظر بعين الحسرة الى الامواج وهى تبتلع مهماته الحربية وذخائره المعدة لتقوية عساكره نخابت آماله وضاقت عليه الارض بما رحبت ولم يمكنه أن يصنع شيأ سوى كونه ارسل بعض سريات من عساكره لتطرد العرب الذين كانوا على الشواطئ وتأخذ العساكر الذين كانوا يعومون ويصلون الى البر ولكن بعد ذلك اخذت الرياح فى السكون والعواصف فى الركود فطمع الامبراطور أن يبقى له من السفن ما يكفى فى نجاة الجيش من اهوال القحط والجوع حتى يعود الى بلاد اوروبا ولكن كان ذلك من قبيل الامانى الباطلة لانه عند المساء امتلأ افق البحر بالضبابات الكثيفة ولم يمكن للضباط البحرية الذين نجوا من الهلاك أن يفهموا العساكر البرية مقصودهم فقضت العساكر البرية تلك الليلة فى عذاب اليم وفى حيرة وقلق عظيم فلما لاح النور جاء الى المعسكر قارب من طرف الاميرال (قپودان باشا) دورية واخبر أن الاميرال المذكور قد نجا من تلك الفرطونة التى لم ير مثلها منذ خمسين سنة وهو مشغول بالملاحة وركوب البحر وأنه اضطر الى الذهاب الى رأس ميتافوزة مع سفنه وان كان قد لحقها التلف * وكانت السماء لم تزل متغيرة من الضباب وعواصف الرياح فبعث دورية صحبة المرسلين بالقارب الى الامبراطور ينصحه ويدعوه الى الاسراع بالذهاب الى رأس ميتافوزة لانه اوفق محل ينزل منه العساكر الى البحر

مطلب
اضطرار شرلكان الى الارتحال

ولا يخفى أن مثل هذا الخبر بنجاة جزء من السفن يعد فى تلك المصيبة تسلية كبيرة للامبراطور ولكن ما حصل له من السرور بذلك كان يعكره عليه سوء حال جيشه وكان رأس ميتافوزة بعيدا عن معسكره بمسافة اربعة ايام وكان قد نفد جميع الزاد الذى اخرجوه من السفن وكان العساكر لتعبهم ونصبهم يصعب عليهم قطع تلك المسافة ولو فى بلادهم لفتور همتهم بما كابدوه من المشاق حتى لو حصل لهم عقب ذلك نصر ونجاح لا احتمل أن صدورهم لا تنشرح لذلك ولا تعود اليهم همتهم الاولى فكانوا لا طاقة لهم على مكابدة مشاق جديدة ولكن كانت حالة الجيش اذذاك لا تسوغ التردد بين الرحلة والاقامة بل كانت تعين

الارتحال

سنة ١٥٤١

الارتحال قام الايمبراطور عساكره بالسير ووضع المرضى والجرحى فى قلب الجيش والاقوياء فى المقدمة والساقة فازدادت بهم الآلام فى السير وعظمت مصيبتهم فكان يشق على بعضهم حمل سلاحه والبعض الآخر ضعفت قواه من التعب والسير فى طرق وعرة غير مطروقة فكان يسقط فى الطريق ميتا وكثير منهم مات جوعا لان الجيش كان لا يتقوت الا من الاعشاب وحبوب النباتات التى تخرج فى الجبال ومن لحوم الخيل التى كان الايمبراطور يذبحها ويوزعها عليهم وبعضهم غرق فى السيول وكانت غزيرة لكثرة الامطار حتى كان العساكر عند خوضها تصل بهم المياه الى آذانهم وقتل العدو منهم مقدارا جسيما لانه فى مدة سيرهم كان يهجم عليهم فى كل وقت وينقض عليهم آناء الليل واطراف النهار وبالجملة فبعد أن كابدوا من المشاق والتعب ما تقصر عنه العبارة وصلوا الى رأس ميتافوزه وسكنت الرياح على حين غفلة فحصلت الوصلة بين السفن والجيش وكثرت المأكولات عند العساكر ودخلهم رجاء أنهم قد صاروا امنين لا يخشون تعبا ولا نصبا

مطلب
كرم نفس الايمبراطور وعزمه

وفى هذه المصائب الكبيرة ابدى الايمبراطور شرلكان من حميد الصفات ما لم يكن يترا أى منه قبل ذلك ولم يكن يعهد فيه حيث كان اولا فى سعد مستمر لم تلحقه فيه شدة يعرف بها عزمه وتجلده فابدى فى هذا الخطب العجب العجاب من العزم وكرم النفس والشجاعة والمروءة فكان كآحاد عساكره فى تحمل المشاق ومكابدة الاهوال وكان يلقى بنفسه الى اعظم المحال خطبا واشدها خطرا ويقوى قلوب من تفتر همهم وتتناقص قواهم ويعود المرضى والجرحى ويشجعهم بالقول والفعل ولما نزل الجيش فى السفن تأخر هو مع من تأخر على الشاطئ مع أن العرب كانوا بالقرب منهم ويخشى هجومهم على الساقة فبهذا السلوك المستحسن والفعل المحمود ستر مثالب الكبر والعتو التى افضت به الى التصدى لمثل هذا المشروع الذى اضرت عواقبه برعاياه كل الضرر

مطلب
رجوعه الى اوروبا

ولم يكن ذلك آخر مصائب الايمبراطور وجنوده بل بمجرد نزول العساكر فى السفن هاجت الرياح وهبت فرطونة كانت دون الاولى فى الهول والشدة الا أنها شتتت

سنة ١٥٤١
شهر كانون الاول

السفن عن بعضها فكانت كل سفينة على حدتها تبحث لها عن جهة ترسو عليها فبعضها ذهب الى اسبانيا وبعضها الى ايطاليا فانتشر بذلك خبر خيبة الايمبراطور وخسارته مع المبالغات التى تقترحها العقول المتمكن منها الفزع والرعب واما الايمبراطور فبعد أن اقتحم اخطارا كبيرة وكابد اهوالا كثيرة اضطرّ الى أن رسا بمينا بوجية ببلاد افريقة وعاقه فيها اختلاف الرياح حتى مكث بها عدّة اسابيع ثم سافر الى اسبانيا ودخل على حالة تغاير الحالة التى قدم عليها فى رجوعه اول مرّة منصورا من بلاد افريقة

انتهت المقالة السادسة

(المقالة السابعة)

(من اتحاف ملوك الزمان بتاريخ الايمبراطور شرلكان)

مطلب
تجديد الملك فرنسيس للحرب

وقد لحق الايمبراطور فى هذا المشروع خسارة كبيرة لم تخل عن المبالغات من لغط العامة وكل بلدة كانت ابعد من غيرها عن محل الواقعة كانت المبالغات فيها اكثر فاتخذها الملك فرنسيس فرصة فى بدء الحرب مع الايمبراطور ولكن لم ير من الصواب أن يتعلل فى ذلك بما سبق له من تطلب دوقية ميلان ولا بخداع الايمبراطور له فى هذا الشأن حيث وعده بها غير مرّة ولم يف بوعده وذلك أن العلة الاولى انما كان يسوغ له التعلل بها لو امتنع من عقد المهادنة بمدينة نيسة بخلاف التعلل بها فى نقض هذه المهادنة بعد انعقادها فلا يكفى ولا يقوم حجة فى ذلك واما العلة الثانية فكانت نفسه تأبى التعلل بها لانه يترتب على اظهارها استهزاء الناس به حيث وثق بوعد الايمبراطور بعد ما لاقاه منه من الغدر والخيانة * وكان قد وقع من بعض جنرالات الايمبراطور اساءة وتعدّ فى حق فرنسيس فاتخذ ذلك علة فى طلب الحرب مع الايمبراطور لان هذه الاساءة كانت فاحشة شنيعة فاغضبت فرنسيس كل الغضب واشتدّ بها حقده وبالبينة كان يحب الصلح بقدر رغبته فى الحرب بعد تلك الاساءة * وذلك أنه كان قد فهم أنه باقراره لهدنة نيسة قبل استشارة السلطان سليمان يغضب هذا السلطان الذى كان يرى أن معاهدة الدولة العثمانية مما يتشرف

(سنة ١٥٤١)

به ملوك النصارى * وكان فرنسيس ايضا قد اجتمع مع الامبراطور في اقليم بروفنسة كما سبق واكرمه فرنسيس غاية الاكرام واظهرا لبعضهما من المودة والمحبة مالا مزيد عليه حتى ظن السلطان أنهما نسيا عداوتهما القديمة وتظاهرا على الدولة العثمانية لان هذا الغرض كان قد اريد تنفيذه غير مرة ولم يتم وجميع النصارى كانوا يودون تنفيذه واجراءه * وكان الامبراطور مع حيله ومخادعاته يحاول أن يمكن هذا الظن من نفس السلطان و يوصي رسله الذين بديوان القسطنطينية وغيره من الدواوين التي كان لها مداولات مع السلطان أن يشيعوا أنه قد اصطلح مع فرنسيس وصار معه على غاية من الالتئام وأن مقاصدهما واغراضهما صارت واحدة فشق على فرنسيس ازالة هذا الوهم من نفس السلطان سليمان فبعث الى الدولة العثمانية رسولا نجيبا حاذقا وهو الشهير رانكون فبانضمام حذق هذا الرسول الى المصالح العظيمة التي كانت تظهر للدولة العثمانية من الاتفاق مع فرانسا على قتال عائلة الاوستريا (عائلة الامبراطور شرلكان) مال السلطان سليمان وصمم على أن يعقد مع ملك فرانسا معاهدة اكيدة فرجع رانكون الى سيده فرنسيس ومعه مكاتبات من طرف السلطان مضمونها أنه يحاول ادخال اهل البنادقة معهما في التحزب على الامبراطور وكان السلطان قد عقد مع جمهورية البنادقة صلحا واعانه على ذلك فرنسيس ورسوله رانكون حتى الاعانة فظن أنه يمكنه استمالة ارباب مشورة السنت بتلك الجمهورية اذا هو عرض عليهم ما فيه نفعهم ومصلحتهم لاسيما وكانوا يرون أن ملك فرانسا قد سبقهم الى ذلك فلا يتوقفون فيه بل يؤثرون نفعهم على ما عداه فعند ذلك فرح فرنسيس وارسل رانكون ثانيا الى القسطنطينية وامره أن يمر بالبنادقة مع رجل من جنوزة يسمى فريغوز كان منفيا من وطنه وفوض لهما أن يسعيا في تتميم الامر الذي كان السلطان قد بعث بصدده رسولا من طرفه الى مشورة السنت وكان هذا الرسول قد افتتح المذاكرة فيما هو مبعوث بصدده * وكان الملتزم دوغواست اذ ذاك حاكما على دوقية ميلان

مطلب
كون قتل رسل فرنسيس هو السبب في الحرب

(سنة ١٥٤١

وكان من مهرة الضباط وانجبهم الا أنه كان من الجبابرة العتاة فبلغه ماانى بصدده هذان الرسولان وكان يعلم أن سيده يود الوقوف على مقاصد ملك فرانسا وأن تأخير اجراء هذه المقاصد من اعظم المهمات فبناء على ذلك اعد لرانكون وصاحبه فريفوز كمينا من محافظى باويا فانقضوا عليهما عند نزولهما فى البحر فى مينا بوه وقتلوهما مع عدة اشخاص من اتباعهما وقبضوا على الاوراق التى كانت معهما فلما وصل الخبر الى فرنسيس غضب غضبا شديدا وكانت المهادنة لم تنقض مدتها لاسيما والرسل محترمون اينما توجهوا ولو بين الملل المتبربرة الخشنية فقتلهم فيه هتك لحرمة الحقوق بين الملل ومخالفة لرسوم الدول واستولى على فرنسيس الاسف والحزن لان الرسولين المقتولين كانا صادقين فى خدمته فتحير من هذا الامر الذى افسد عليه مقاصده وانضم الى ذلك جميع ما سبق له من موجبات التعكير والاغاظة فقوى غضبه واشتد حنقه من هذا الامر المنكر الذى يزرى به وبمملكته فاتهم الملتزم دوغواست بأنه هو الذى ارتكب هذه الكبيرة فاخذ الملتزم المذكور يبرئ نفسه من هذه الخطيئة التى اورثته الخزى والمعرة ولم يجد ذلك نفعا لان الرسولين المقتولين كانا قد تركا وراءهما الاوراق والمكاتبات المهمة * فارسل ملك فرانسا الى الايمبراطور يطلب منه تخليص حقه وأن ينتصف له ممن فعل هذه الفعلة السيئة التى لا يتحملها ادنى الملوك واكثرهم جبنا واقلهم مروءة وكان الايمبراطور اذ ذاك مشتغلا بتجهيز العساكر المعدة للسفر معه الى بلاد افريقة فاخذ يحاوله ويجيبه باجوبة مبهمة فتظلم منه فرنسيس وبث شكواه الى سائر دواوين الملوك الافرنجية واطلعهم على قبح هذه الاساءة وشناعتها وبرهن على استقامته وحسن سلوكه وظلم الايمبراطور وتعديه حيث احتقره ولم يلتفت الى شكواه

ومع ما ابداه الملتزم دوغواست فى البرهنة على براءة نفسه كان جانب الملك فرنسيس مرجحا على ايمانه ودلائله وكان الحاكم على اقليم بيمون يومئذ انما هو من طرف فرانسا وهو الامير دوبيلى فلم يزل يبحث ويجتهد حتى

وقف

وقف على حقيقة الامر ووافقه عليه عدة شهود ثم وان كان هؤلاء الشهود يتهمون على شهادتهم لما كان فيهم من الشبهة الا أن شهادتهم بانضمامها الى ما وقف عليه الامير دو بيلى تعضدت وصارت شهادة صحيحة يعمل بها شرعا خصوصا وقد ايد لغط العامة ما وقف عليه هذا الامير فظهر أن شكوى فرنسيس فى محلها ولم يتهمه احد حين اخذ يجهز لوازم الحرب بأن الحامل له على ذلك طمعه او حقده بل هو مجرد قصد الانتقام فى نظير انتهاك حرمة مملكته

ومع أن الحق كان مع الملك فرنسيس وكان متعاهدا مع السلطان على الاخذ بناصره كان لم يزل يخشى صولة الامبراطور و بطشه فاخذ يبحث عن حلفاء آخرين يستعين بهم عليه لتتعادل قوى الفريقين ولكنه لم ينجح نجاحا تاما فيما وقع بينه و بين غيره من ملوك الافرنج من المفاوضات والمداولات فى هذا المعنى * فاما ملك انكلترة فكانت مطامعه وآماله فى شأن مملكة ايقوسيا لم تزل باقية وكان يرى أن ذلك من موجبات الشقاق بينه و بين مملكة فرانسا فكان يرغب فى الانضمام الى حزب الامبراطور لا فى اعانة الملك فرنسيس على مشروعاته واما البابا فكان مصمما على عدم التعرض لاعانة احدهما على الآخر وتأسى به فى ذلك اهل البنادقة مع الحاح السلطان سليمان عليهم فى هذا الشأن واما اهل المانيا المعتزلة فكان الامبراطور يرخص لهم فى دياناتهم وعقائدهم فالواجب عليهم حينئذ مراعاته لا اغضابه فلم يوافق فرنسيس على الانضمام الى حزبه الا ملك دانيرقة وملك اسوج حيث فرحا بأن يكون لهما دخل فى حرب اعظم ملوك جنوب اوروبا واقواهم شوكة وانضم الى حزبه ايضا دوق كليوس (وهى دوقية ببلاد المانيا) وكان بينه و بين الامبراطور نزاع فى شأن اقليم غويلدرة غير أن دول ملكى دانيرقة واسوج كانت بعيدة جدا عن ميدان الحرب وكانت شوكة هذا الدوق ضعيفة فلم يحصل للملك فرانسا كبير فائدة من معاهدته مع هؤلاء الثلاثة

(سنة ١٥٤٢)
مطلب
مهارة فرنسيس في تجهيزاته للحرب

ولكن مهارة الملك فرنسيس سدت مسد ذلك كله الا أنه مرض في هذا الوقت بسبب انهماكه على اللذات والشهوات فعاقه المرض عن الحرب ومكث مدة وهو يبدى في تدبير المصالح عزما وحزما اكثر من الاول فكان هذا المرض باعثا له على ترك اللعب واللهو بل اورثه شدة وصعوبة مع وزرائه وجلسائه فكان دائما عابسا غاضبا وكلما تذكر مخادعة الامبراطور له وما فعله في حقه من الاساءة ازداد غمه وغضبه حتى انه عزل بعض من كان يأتمنهم ويثق بهم وجردهم عن مناصبهم بل عزل الامير مونتمورانسى مع أنه كان منذ زمن طويل مشغولا بادارة المصالح الملكية والجهادية ويتصرف فيها تصرف الوزير المحبوب المحترم عند ملكه ولم يال فرنسيس جهدا في الاستعداد والتجهيز بل صرف مجهوده ليظهر في هذا الغرض بمظهر مبتهج حتى يرى ان حزمه في ادارة مصالح الدولة لا ينقص ولا يعتريه خلل بغيبة مونتمورانسى واضرابه من اولى الشوكة والصولة

(سنة ١٥٤٢)
مطلب
تجهيزه خمسة جيوش

فجهز خمسة جيوش احدها اعده للهجوم على اقليم لوكسمبرغ وكان رئيسه ابنه الدوق دورليان وبمعيته الدوق دولورينة وكان مأمورا بارشاده في فن الحرب وثانيها كان رئيسه ابنه الدوفين اى ولى العهد وامره بالتوجه الى ضواحى اسبانيا وثالثها توجه الى اقليم برابنطة وكان رئيسه مارشال غويلدرة المسمى وانروسان وكان معظمه من عساكر اقليم كليوس ورابعها كان رئيسه الدوق دوواندوم وامره بالتوجه الى اقليم فلندرة وخامسها جمعه من العساكر التى كانت مقيمة باقليم پيمون وكان رئيسه الاميرال آنوبوت (اى قبودان باشا) وبهذا الترتيب كان يترأى أن الدوفين واخاه قد فتحت لهما ابواب الفتوحات والفخر وكان جيش الدوفين يبلغ اربعين الفا وجيش اخيه الدوق دورليان يبلغ ثلاثين الفا ومن العجيب أن الملك فرنسيس مع هذه الجيوش العديدة لم يهجم على دوقية ميلان مع أنها كانت غرضه من مشروعاته وحروبه منذ مدة طويلة ولكنه كان لم يزل متذكرا لما حل به فيها من مصائب حروبه السابقة ونكباتها وكان ايضا يرى انه يصعب

(سنة ١٥٤٢)

عليه الحرب فيها لبعدها عن بلاده فقترت همته عن التصدى اليها ورأى أنه يشق عليه النزول فى بلاد ايطاليا وانه يجب عليه تحويل قواه الى جهة اخرى يمكنه الفتك بها ولما كان لا يوجد فى ضواحى اسبانيا من المدائن التى تقدر على المدافعة والمقاومة الا القليل وكان لا يوجد فى تلك الجهة جيش يصده ويرده طمع فى الظفر بمرامه قبل أن يلحقه الايمبراطور بعساكره وأنه يستولى على قونتية روسيلون التى كان قد تغلب عليها شرلكان منذ قليل ونزعها من مملكة فرانسا واما حربه فى مملكة البلاد الواطية فكانت له اسباب ايضا منها انه كان يجب عليه اعانة حليفه دوق كليوس ومنها أنه كان يؤمل بتلك الواسطة أن ينضم الى حربه مقدار جسيم من العساكر الالمانية

شهر حزيران
حرب الجيوش المتقدمة

وقد بدأ الدوفين واخوه الدوق دورليان الحرب فى آن واحد تقريبا* اما الاول فوضع الحصار أمام مدينة برپيبان قاعدة اقليم روسيلون والثانى دخل اقليم لوكسمبرغ ونجح فيه كل النجاح فكان كلما سلمت له مدينة تسلم له الاخرى حتى أنه بعد مدة قليلة لم يبق للايمبراطور بهذا الاقليم الكبير الا مدينة واحدة وهى مدينة تيونويل ولو اغار الدوق المذكور على الاقاليم التى بجوار اقليم لوكسمبرغ لما امكنها المقاومة بل كان يظفر بها كما ظفر بالاقليم المذكور الا أنه شاع على ألسنة الناس أن الايمبراطور قد استعد لطرد الدوفين عن مدينة برپينيان فترك الدوق دورليان حالا جميع فتوحاته وبادر بالتوجه الى اقليم روسيلون ليقتسم فخار النصرة مع اخيه ولعل الذى دعاه الى ذلك هو حمية الشباب الخالية عن الحزم والتبصر او هو غيرته من اخيه الدوفين وبغضه له فلم تطق نفسه أن يتركه يختص بفخار الحرب مع الايمبراطور

وبعد سفره تشتت بعض العساكر وهرب البعض وفترت همة الباقى فلم يمكنه المقاومة وبهذا السلوك الدال على ضعف عقل هذا الدوق او على ضعف جنانه او عليهما معا خابت آماله بعد أن فرح بالنصرة فى اول غزواته وامكن لعدوه

(سنة ١٥٤٢)

أن يسترجع قبل انقضاء فصل الصيف ما كان اخذمنه وكان الايمبراطور سديد الراى سالكا مسالك الحزم لا يرضى أن يخاطر بنفسه فى الحرب على ضواحى اسبانيا لانه ربما انهزم وصارت تلك المملكة عرضة للاخطار * فلما حصل الهجوم على مدينة برپنيان وكانت غير حصينة قاومت مع ذلك حق المقاومة وكان الاميرال دوريه قد ملأها بالزاد والمهمات الحربية وكان بها الدوق دالبة وكان يابس الطبع عنيدا له اقتدار على المقاومة فى الحصار ولو بلغت الشدة منتهاها فدافع عن هذه المدينة مع العزم التام حتى فترت همة الفرنساوية وتناقصوا بالامراض التى حلت بهم وادركهم التعب من هجوم الاعداء عليهم المرة بعد المرة مع شدة العزم وقوة البأس وداخلهم اليأس والقنوط فرفعوا الحصار بعد أن مكثوا ثلاثة اشهر وهم يكابدون من المشاق ما تقصر عنه العبارة ثم توجهوا الى مملكتهم ومع هذه العساكر الكثيرة والتجهيزات الكبيرة التى استعد بها الملك فرنسيس لم يحصل له ما كان يؤمله من الفوائد الجليلة ولاما كان اهل اوروبا يترقبون حصوله ولا يدرى هل سبب عدم ظفره بمقصوده هو عدم حسن سلوكه اوكونه دون الايمبراطور فى الشوكة والحزم فكان ما حصله فى هذا الحرب منحصرا فى بعض مدائن تغلب عليها من اقليم پيمون وقد اخذها الامير دوبلى فيما بعد بالحيلة والتدبير لا بالقوة والحرب

(سنة ١٥٤٣)
تجهيزات لحرب جديد

ومع أن كلا من الايمبراطور وملك فرانسا كان قد دمر قوى الآخر فى تلك الحروب التى لا طائل تحتها كانت البغضاء والعداوة بينهما لم تزل باقية على شدتها الاصلية فقد بذل كل منهما جهده بعد ذلك فى اتخاذ حلفاء يستعين بهم على عدوه فى حرب جديد كانا قد صمما عليه فاما الايمبراطور شرلكان فكان قد تمكن من قلوب رعاياه الفزع والرعب لما شاهدوه من اغارة الفرنساوية بغتة على بلادهم فانتهز تلك الفرصة وطلب المدد والاعانة من مشورة القورطس فامدته بامدادات اكثر من العادة واقترض ايضا مبلغا جسيما من حنا ملك البورتغال ورهن عنده فى نظير هذا المبلغ جزائر مولوكه جهة الهند

(سنة ١٥٤٣)

وترك له تجارة البهارات النفيسة التى كانت تخرج من هذه الجزائر ولم يقتصر على هذا الاحتراس بل زوج ابنه فيليش ولم يكن له غيره وكان عمره ست عشرة سنة بالاميرة مارية بنت الملك حنا المذكور فجهزها بجهاز عظيم وكان اغنى ملوك الافرنج اذذاك ثم التمس شرلكان بعد ذلك من مشورة التورطس بمملكة اراغون ومملكة والنسة أن تقر ابنه فيليش على أن يكون ولى عهده فى هاتين المملكتين واخذ من القورطس ماجرت العادة ببذله فى مثل هذه الصورة فامكنه بتلك الامدادات أن يزيد فى جيوش اسبانيا ويكثرها حتى اخذ منها طائفة كبيرة بعثها الى بلاد المملكة الواطية وكان فى الباقى كفاية للقيام بالمدافعة عن بلاد اسبانيا وبعد أن رتب فى اسبانيا ما يكون به امنها واطمئنانها جعل زمام الحكم بيد ابنه فيليش وتوجه الى المانيا من طريق ايطاليا ولم تخدعه حيل البابا ولاما ابداه اليه من اغراضه مع أنه كان يسعى فى تحصيل مبالغ جسيمة لتعينه على الحرب الكبير الذى عزم عليه وذلك أن البابا لما كان يعلم حاجته وكان يترقب كل فرصة تعينه على ترقية عائلته طلب منه أن يعطى حكم دوقية ميلان الى حفيده اوكتاوة الذى هو صهر الايمبراطور كم تقدم واراد أن يرغبه فى ذلك ببذل مبلغ جسيم يكفيه فى مصاريف الحرب فابى الايمبراطور أن يبيع هذه الدوقية اللطيفة لاسيما وكان حاقدا على البابا حيث ابى عدة مرات أن ينضم الى حزبه لقتال ملك فرانسا فلم يجبه الى ما طلب ولم يمكنه من الدوقية المذكورة بل اراد معارضته فى غرض آخر وهو أن البابا كان يريد فصل اقليم برمه واقليم بليرنسة من اراضى الكنيسة ويعطى احدهما الابنه والآخر لحفيده على سبيل كونهما التراما تابعا للكنيسة فلما لم تبق للايمبراطور بعد ذلك وسيلة يحصل بها اموالا من بلاد ايطاليا امر باخراج المحافظين الذين كانوا بقلعة فلورنسة وقلعة ليبورنة (ليغرنه) فعند ذلك اهدى اليه الامير كوم دومديسيس هدية جليلة حيث صار بعد خروج المحافظين من القلعتين المذكورتين مستقلا بنفسه ومستبدا بالحكم عليهما وكانتا تسميان مقاليد اقليم طوسكانة ولاشك أنهما

شهرايار

(سنة ١٥٤٣)

مطلب
مداولة الامبراطور مع هنرى الثامن ملك انكلترة

جديرتان بهذه التسمية
ولكن كانت مقاصد شرلكان آخذة فى الازدياد والاتساع لاسيما بعد أن تعاهد مع الملك هنرى الثامن ملك انكلترة على أنهما يهجمان معا على بلاد فرانسا وكانت هذه المعاهدة بالنسبة اليه اعظم فائدة واتم نفعا من جميع ماجهزه واستعدّ به للحرب وكان ملك انكلترة قد سئم من معاهدة فرنسيس لمنازعات صغيرة وقعت بينهما وقد تقدم ذكرها فلما طرأت عوارض جديدة انفصل هنرى بالكلية عن ملك فرانسا وذلك أن هنرى المذكور كما كان يبذل جهده فى نشر الدين الجديد ببلاد انكلترة كانت له رغبة تامة فى أن يجعل له اتباعا يتمسكون بآرائه وعقائده فصمم على حث ياكس ملك ايقوسيا وكان من اقاربه على الخروج عن طاعة البابا واتباع المذاهب الجديدة التى ادخلها فى مملكة انكلترة وكان ياكس المذكور لا اعتناء له بشأن الدين فعرض عليه هنرى امورا مفيدة جدّا بحيث كان يجزم بأنه يرضاها ولا يردّها فتلقاها منه بالقبول لكن لما كان قسوس ايقوسيا يعلمون أن التئام ملكهم مع ملك انكلترة يضرّ بدين الكنيسة الرومانية ضررا عظيما وخشى ايضا احباب فرانسا واحزابها أن يضيع تأثير هذه المملكة فى مصالح ايقوسيا وتنقطع مدخليتها فيها فانضم هؤلاء الاحزاب الى حزب القسوس وسلكوا مسلك الحيلة والدسائس حتى افسدوا على ملك انكلترة ما كان دبره وكان بمكان من الشدّة والعناد فلم تطق نفسه مثل هذا الامر ونسبه الى خداع فرنسيس وطيش ياكس وخفته وهم بحمل السلاح لينزع من ياكس مملكته لكونه لا يحتفظ عهدا ولا يرعى ميثاقا * وحمله الغيظ من ملك فرانسا على أن يأخذ فى المفاوضة مع الامبراطور رفعما قليل عقد معه معاهدة الا أنه قبل تمامها وانهائها اى فى اثناء محاربة ملك انكلترة لمملكة ايقوسيا مات ملكها ياكس الخامس ولم يعقب الا بنتا صغيرة لم تبلغ سن الرشد وهى الاميرة مارية فانتقل اليها تاج المملكة بطريق الوراثة عن ابيها وبهذه الحادثة تغيرت مقاصد هنرى فى شأن تلك المملكة وعدل عن قصد الاستيلاء عليها بطريق

مطلب
خصام هنرى مع مملكة فرانسا ومملكة ايقوسيا

القهر

(سنة ١٥٤٣)

القهر والغلبة لكونه رأى أن الاصوب والاسهل أن يضمها الى مملكته بتزويج تلك الاميرة لابنه ايدوارد ولم يكن له سواه ولكن كان يخشى أن لا يسلم له فى ذلك حزب الفرنساوية الذى كان بمملكة ايقوسيا لان هذا الحزب كان قد اخذ يوقع من الدسائس والفتن ما يفسد عليه اماله و يبطل اغراضه فكان يرى أنه يلزمه تدمير هذا الحزب ومنع فرنسيس من اعانته وامداده فلم ير لذلك وسيلة الا نقض العهود التى كانت بينه و بين فرنسيس وتجديد معاهدة مع الايمبراطور فبادر الى بت المعاهدة التى كان قد بدأ المداولة فى شأنها مع الايمبراطور وصار الاثنان من وقتئذ على قلب رجل واحد .

١١ من شهر شباط

مطلب
المعاهدة المنعقدة بين الايمبراطور شرلكان وهنرى ملك انكلترة

وكان اول شرط من شروط هذه المعاهدة التى هى اولى بأن تسمى عصبة يتعلق بايقاع الاتحاد والالتئام بين الايمبراطور والملك هنرى و بمدافعتهما عن بعضهما و بعد هذا الشرط ذكر فيها ما ينبغى لكل واحد منهما أن يطلبه من فرانسا وما ينبغى لهما فعله اذا أبى فرنسيس ارضاء خاطرهما واجابتهما لما طلبا و بالجملة فانحط الرأى بينهما على أن يلزماه بنقض معاهدته مع الدولة العثمانية لما ترتب عليها من الضرر للملل النصرانية و يدفع اشياء لاصلاح ما افسدته هذه المعاهدة التى تأباها القوانين النصرانية وجبر ما ترتب عليها من الخلل وأن يرد دوقية برعونيا الى الايمبراطور و يقلع عن الحرب حالا حتى يتمكن الايمبراطور من توجيه قواه وعساكره الى اعداء ابناء النصرانية وأن يدفع عاجلا المبالغ التى كانت فى ذمته للملك انكلترة او يعطيه بعض مدن تبقى معه رهنا على هذا الدين حتى يؤديه اليه فان لم يوف بهذه الشروط فى ظرف اربعين يوما وجب على كل من الايمبراطور وملك انكلترة أن يشن الغارة على مملكة فرانسا مع عشرين الفا من المشاة وخمسة آلاف من الخيالة وتعاهدا معا على أن لا يرجعا عن الحرب الا اذا اخذ الايمبراطور دوقية برغونيا ومدائن نهر السوم واخذ ملك انكلترة بلاد نورمنديا وبلاد غيانة بل ومملكة فرانسا بتمامها و بعثا رسلا الى مملكة فرانسا لتبليغ تلك الامور فلم يؤذن لهم بالدخول فى هذه المملكة ومع ذلك ظن

(سنة ١٥٤٣)

مطلب
مداولة الملك فرنسيس مع السلطان سليمان

الايمبراطور والملك هنرى أن لهما الحق فى اجراء ماوقع عليه الاتفاق بينهما

واما الملك فرنسيس فلم يكن دونهما فى الاجتهاد والسعى فى التجهيزات اللازمة لهذا الحرب وكان قد ادرك قبل ذلك بمدة طويلة أن الملك هنرى فى حقد شديد منه فبذل جهده فى استمالته وارضاء خاطره فلم يجد ذلك نفعا فايقن بموجب ما كان يعهده فى طبعه أن سكوته سيعقبه عداوة كبيرة فعدل عنه وقصد السلطان سليمان ليمده بامداد كاف بحيث يمكنه مقاومة الايمبراطور والملك هنرى * فاقتضى الحال تعويض الرسولين اللذين قتلهما الامير دوغواست فانتخب فرنسيس عوضا عنهما ضابطا من يوز باشية القرابة يقال له بولان وارسله ليذهب الى مدينة البنادقة ومنها الى مدينة القسطنطينية وانما عينه فرنسيس لهذه الوظيفة المهمة ورآه صالحا لها بناء على ماذكره له الامير دوبيلى فى شأنه من أنه اختبر معارفه ونباهته فى عدة مداولات ومذاكرات فلم يخيب بولان ظن الناس فيه ولم تعقه اخطار الطريق ومشاقها بل مازال سائرا حتى وصل الى القسطنطينية وبمجرد وصوله اليها الح بطلب ماهو مبعوث بصدده وعرف أن ينتهز كل مالاح له من الفرص المساعدة له حتى ازال جميع الموانع التى كان يتعلل بها السلطان بل الحم جميع الباشات الذين كانوا يناقضون فى صحة معاهدة الدولة العثمانية مع الدولة الفرنساوية امالان رأيهم كان كذلك فى الواقع ونفس الامر اولان رسل الايمبراطور كانوا قد استولوا على عقولهم وحثوهم على عدم الرضاء بتلك المعاهدة * فصدر امر من السلطان الى بربروس أن يجهز دونما كبيرة ويفعل كما يفعل الملك فرنسيس ولكن لم ينجح فرنسيس فى ذلك ايضا مع بعض امراء الايمبراطورية الالمانية وذلك انه لقصد اظهار الغيرة على الدين القاثوليقى حتى يزيل ماانطبع فى عقول الناس من الاوهام والظنون بسبب معاهدته مع المسلمين الذين هم اعداء دين النصرانية رأى انه يلزم معاقبة جميع من عدل من رعاياه عن دين الكنيسة وتمسك بالدين الجديد اشد العقاب فلم يترتب على ذلك

(سنة ١٥٤٣)

الا بغضه عند امراء المانيا الذين كانوا يميلون بالطبع الى اعانته بل وكانت مصلحتهم تلزمهم بذلك هذا وكان له مزية عظيمة اختص بها دون الامبراطور وهى اتصال دوله ببعضها وكانت دائرة شوكته بفرانسا واسعة فكفاه ذلك عروض التعطيل والعوائق التى لابد من وجودها بين اناس كرعايا الامبراطور يدفعون مصاريف الحرب بامدادات وقتية واعانات حالية تجمع بموجب اقرار دواوين ومشاور وتكون غالبا قليلة واهية فلذا كان فرنسيس فى الاستعداد والتجهيز اسرع من الامبراطور فان تجهيزاته كانت بطيئة متراخية مالم تحصل له اعانة اجنبية اوتطرأ له امور غير المعتادة فتنقذه من الحيرة والخطر

مطلب
بدء الحرب فى مملكة البلاد الواطية

ثم ان فرنسيس وجه سائر قواه الى مملكة البلاد الواطية ونصب بها ميدان الحرب قبل أن يصل اليها الامبراطور فتغلب على مدينة لندريسى واعتنى كل الاعتناء بتحصينها لانها كانت مفتاح اقليم هينوت ثم ارتحل منها واخذ فى السير ميمنة حتى دخل دوقية لوكسمبرغ فوجدها غير محصنة كما كانت فى السنة الماضية ولكن كان الامبراطور قد جمع من ممالكه جيشا وانتض به على اراضى دوق كليوس وكان قد اقسم أنه ينتقم من هذا الدوق حتى يكون عبرة لغيره فلحق الدوق المذكور ما لحق الامير روبيرت دولامرك فى الحرب الذى وقع قبل ذلك بين الامبراطور والملك فرنسيس وذلك أنه لم يكن عنده من العساكر من يكفى لمقاومة عساكر الامبراطور الذين كان يبلغ عددهم اربعة واربعين الفا فهم بالفرار عند قرب جنود الامبراطور من بلاده فبادرت العساكر الامبراطورية الى حصار مدينة دوران فابدى من بها من المحافظين العجب العجاب فى المدافعة عنها ومع ذلك اخذت عنوة وقتل جميع اهلها وهدمت منازلها وصار عاليها سافلها ففزع من هذه القسوة جميع ما حولها من المدائن وداخلها الرعب والخوف فارسلت مفاتيحها الى الامبراطور بل اضطر دوق كليوس الى ارتكاب ما يزرى به ويدنس عرضه وذلك انه لما لم يسعفه ملك فرانسا بمدد يستعين به ذهب الى الامبراطور واستأذن فى الدخول عنده فلما مثل بين يديه خر جاثيا على ركبتيه هو وثمانية من اعيان جماعته وطلبوا منه الصفح والعفو

مطلب
تغلب الامبراطور على دوقية كليوس

سنة ١٥٤٣

فتركه الايمبراطور على هذه الحالة ذليلا حقيرا ونظر اليه بعين التكبر والشمم والعنفوان واحال امره على وزرائه فاشترطوا عليه شروطا لم تكن فى الصعوبة بقدر ما كان يتوقعه لما رآه من حقد الايمبراطور حين وقف بين يديه موقف الذل والهوان وذلك أنه الزم بترك دعواه فى شأن دوقية غويلدره وبنقض معاهدته مع ملك فرانسا وملك دانيمرقة وأن يتعاهد مع الايمبراطور ومع ملك الرومانيين وردت اليه جميع دوله الوراثية على هذه الشروط الا مدينتين ابقاهما شرلكان رهنا عنده حتى تنقضى مدة الحرب ثم ردت اليه فيما بعد جميع مزاياه الثابتة له بوصف كونه من امراء الايمبراطورية الالمانية وبعد ذلك بمدة قليلة زوجه الايمبراطور احدى بنات اخيه فرديننداملك الرومانيين لاجل تأكيد الصلح معه

فى ٧ من شهر ايلول

مطلب
محاصرة لندريسى

وبعد معاقبة دوق كليوس على هذا الوجه الذى ترتب عليه حرمان فرنسيس من احد حلفائه واستيلاء الايمبراطور على اقليم عظيم متصل بمملكة البلاد الواطية جال شرلكان فى اقليم هينوت ووضع الحصار أمام مدينة لندريسى واتاه هنالك طائفة من عساكر الانكليز فيها ستة آلاف رجل وكان رئيسها الامير حنا والوب وكان ذلك اول ثمرة حصلت له من معاهدته مع ملك انكلترة ولكن كان محافظو تلك المدينة كلهم رجالا قد شبوا فى العسكرية وشابوا وتقادم عهدهم فى ذلك وكان رئيسهم الماهر لالندة والشجاع ديسة وكان كل منهما بمكان من الشهرة والمهارة فقاومت تلك المدينة حق المقاومة حتى اسعفها فرنسيس بالاعانة وحضر بها مع جميع عساكره وكان الايمبراطور لم يزل محاصرا لها وكان كل من الايمبراطور والملك فرنسيس مصمما على المخاطرة بنفسه فى هذه الواقعة كما كانت بلاد اوروبا تظن أن هذه الواقعة تكون آخر مشاجراتهما معا وكانت متشوقة الى معرفة عاقبتها حيث انها بين جيشين كبيرين محكومين بملكين خطيرين الا أن ما كان بين المعسكرين من المسافة كان يقضى بالوبال على من بدأ منهما بالهجوم فلم يرد كل منهما أن يلقى بنفسه الى التهلكة وانما فى اثناء الحركات التى كان يفعلها

كل

(سنة ١٥٤٣)

كل منهما ليوقع عدوه فى الشرك او يسلم منه سلك فرنسيس مسلك الحزم والاصابة حتى امكنه أن يدخل فى المدينة عساكر جديدة مع مقدار جسيم من الذخائر والزاد فعند ذلك يئس الايمبراطور من النجاح وعطل الحركة ولزم منازل الشتاء ليقى عساكره من مضار هذا الفصل فانه ربما كان يترتب على بقائه فى الحصار دمار جيشه وهلاكه عن آخره

مطلب دخول السلطان سليمان فى مملكة المجار

ولما كان السلطان سليمان محافظا على ما انعقدت عليه المعاهدة بينه وبين ملك فرانسا دخل بلاد المجار بجيش جرّار وكان امراء الايمبراطورية الالمانية يرون أن شرلكان يهمل فى حفظ تلك البلاد ولا يلتفت الا الى الحرب مع الملك فرنسيس فلم يبذلوا همتهم فى المدافعة عنها فلذا لم يجد بها السلطان من يقاومه ويصده فحاصر بالتعاقب مدينة فنفكرشين المسماة بالتركية بش كليسه (اى الكنائس الخمس) ومدينة ألبة ومدينة غران وكانت هذه المدائن الثلاثة اعظم بلاد المجار وكانت للملك فرديننـد فاما الاولى فأخذت عنوة واما الاثنتان الاخيرتان فكان اخذهما بالرضى والتسليم وفتحت جنود الاسلام سائر بلاد المجار

مطلب نزول بربروس على بلاد ايطاليا

وفى نحو هذا الزمن جهز بربروس دونما تبلغ مائة وعشرا من السفن المسماة بالغربان وسار بها محاذيا سواحل كلابرة حتى نزل فى مدينة رجيو فقتل اهلها وحرقها ثم تقدم جهة مصب نهر التبر ووقف هنالك ليتزود من الماء وكان اهل رومة يجهلون القصد من هذه الدونما فداخلهم الفزع والرعب وبادروا بالفرار ولولا بولان رسول فرانسا قوى قلوبهم بما كان معه من المكاتيب المتضمنة أن كل دولة او بلدة متعاهدة مع ملك فرانسا لا تخشى اساءة ولا ظلما من طرف الدولة العثمانية لتركوا وطنهم وخلت المدينة عن السكان ثم ترك بربروس مدينة اوستيا واقلع الى مدينة مرسيليا ولحقته هنالك الدونما الفرنساوية وفيها طائفة من العساكر رئيسها القونتة دانغيان وكان شابا شجاعا من العشيرة البوربونية

١٠ من شهر اب

ثم توجهت سفن الفرنساوية وسفن السلطان معا الى مدينة نيسة وكان دوق سابوة ملتجئا بها حيث لم يبق له سواها من بلاده ودوله فكان مما زرى بمروءة

سنة ١٥٤٣

الملل النصرانية ماحصل فى هذه الواقعة حيث شوهدت بندرة الفرنساوية منضمة الى الراية الاسلامية لحصار مدينة كانت عليها صورة الصليب فى بندرة دوق سابوة ومع ذلك دافعت المدينة عن نفسها هذين الجيشين بهمة الشهير مونتفورت احد امراء دوقية سابوة حيث ثبت هذا الامير فى الهجوم العام الذى وقع من الاعداء على المدينة من سائر جهاتها وقتل منهم عددا عظيما قبل أن يلتجىء الى القلعة ثم تحصن فى تلك القلعة وكانت على صخرة فلم يمكن للعدو خدشها بالمدافع ولا باللغم ومكث مونتفورت بها زمنا طويلا حتى دنا منه الامير دورية بسفنه الحربية واتاه الملتزم دوغواست من دوقية ميلان بطائفة من العساكر فبمجرد مابلغ الفرنساوية والاتراك قدوم هذا المدد رفعوا الحصار ولم يستفد ملك فرانسا شيأ الا الخزى والمعرة بمعاهدته مع دولة الاسلام

٨ من شهر ايلول

مطلب
تجهيزات حرب جديد

واذا التفت الى قلة نجاح كل من الفريقين فى هذه الواقعة رأيت أن الحرب لابد أن تطول مدته بين الايمبراطور والملك فرنسيس لان قواهما كان فيها نوع من التعادل والتكافؤ وكانا بمعارفهما ومهارتهما مقتدرين على اقتراح وسائط ووسائل لاتنفد ولا تنقضى فكان من الجائز أن كلا منهما يخرب دوله وممالكه قبل أن يفتح بلاد خصمه ولو لم يلتفتا الا الى مصلحتهما والى حسن الادارة والسياسة لتمنيا الصلح وتسابقا اليه الا أن حقدهما لبعضهما كان شديدا متمكنا من قلوبهما فكان يغلب على غيره وكان كل منهما يبحث عن اضرار الآخر اكثر من بحثه عن نفع نفسه فبمجرد أن الجأهما فصل الشتاء وشدة البرد الى تعليق الحرب اخذا يجهزان امور الحرب الآتى مع الحمية وبذل الجهد وكان يزداد ذلك بازدياد الحقد والبغضاء ولم يلتفتا الى تضرع البابا وحثه لهما على البقاء على عهد الصلح * اما الايمبراطور شرلكان فسعى اولا فى استمالة امراء الايمبراطورية الالمانية وفى تنفيرها اليها من الملك فرنسيس ولكن لاجل معرفة ما دبره فى هذا الشأن يلزم أن نذكر تاريخ المانيا منذ انعقاد مشورة الدينة بمدينة راتسبونة سنة ١٥٤١

مطلب
مصالح المانيا

فنقول

(سنة ١٥٤٣)

مطلب
حكم الامير موريس دوق سكس بعد موت ابيه

فنقول
انه فى نحو زمن انحلال مشورة الديتة من تلك المدينة خلف الامير موريس اباه هنرى فى حكومة جزء من بلاد سكس كان ينسب الى الفرع الالبرطينى من عائلة الامراء منتخبى سكس وكان هذا الامير شابا لم يبلغ من العمر الا عشرين سنة ومع ذلك كان يظهر من اتساع دائرته فى المعارف أنه سيكون له دخل كبير فى مصالح المانيا فبمجرد اخذه بزمام الحكومة استنكف أن يسلك الطرق المعتادة وبدأ فى سلوك طرق تدل على عظم مقاصده

مطلب
مقاصد هذا الامير وسلوكه

وكان بموجب تربيته واصول تعليمه يميل كل الميل الى دين المعتزلة ومع ذلك ابى أن يدخل فى عصبة سمالكالد فكان يقول انما اريد تأييد صفوة الدين وخالص الملة ولا اتعرض الى المشاجرات السياسية ولا الى الفتن والتعصبات التى تنشأ عن الدين وذلك أنه كان قد ادرك ماسيحصل من التنافر والشقاق بين الامبراطور والامراء المعتزلة المتعاهدين وادرك أن الغلبة تكون للامبراطور عليهم فلم يظهر ما يوجب استخوان الامبراطور له وعدم الوثوق به كسائر المعتزلة بل اظهر الوثوق به والركون اليه فكان يداهنه ولا يغفل عن المداولة معه فقد ابى المعتزلة فى سنة ١٥٤٢ أن يعطوا الملك فرديننند مايلزم له من المدد والاعانة فى المدافعة عن بلاد المجار اوأنهم امدوه بشئ قليل مع غاية الصعوبة والتوقف الكلى واما الامير موريس فانضم الى حزبه وامتاز فيه بالهمة والشجاعة وفى اول مرة من حرب الامبراطور اتى اليه هذا الامير بطائفة من عساكره وكان جميل الصورة حسن المنظر ذا نشاط عجيب وخفة غريبة فى الحركات العسكرية وكان صاحب جراءة وجسارة يقتحم الاخطار ولا يكترث بالاهوال وكان يحسن مداهنة الامبراطور فأحبه حبا جما وبينما كان يأخذ بمجامع لب الامبراطور بهذا السلوك الذى كان يستغرب به المعتزلة ويتعجبون منه كان يظهر عليه الغيرة من عمه الامير منتخب سكس وقد اضرت تلك الغيرة فيما بعد بعمه المذكور واوجبت الشقاق بينهما وذلك انه بمجرد اخذ الامير موريس بزمام الحكم وقع النزاع بينه وبين عمه لعلة

(سنة ١٥٤٣)

واهية وهى أن كلا منهما كان يدعى أن له الحق فى حكم مدينة صغيرة على شواطئ نهر بغدان فهما بالمقاتلة ولم يمنعهما عن ذلك الا توسط حاكم هيسة وسعى لوتير بينهما

مطلب
عرض البابا والتماسه عقد مشورة قسيسية عامة فى مدينة ترنتة

هذا وكان البابا فى حنق شديد من اعانة الايمبراطور للمعتزلة ومما رخصه لهم فى مشورة الدييتة التى انعقدت بمدينة راتسبونة ومع ذلك الح عليه بعقد مشورة قسيسية اربابها من احزاب دين الكنيسة اومن اناس يستخونهم الايمبراطور ولا يثق بهم الحاحا شديدا حتى رأى أنه لايسوغ له تأخير تلك المشورة وبقدر ما حصل من التوقف فى عقدها كان الناس متشوقين الى معرفة ما يحكم به اربابها فلما رأى البابا انه لابد من انعقادها اخذ يدبر امره حتى يكون رئيسها وتكون كلمته هى النافذة بها فكان اول ما تعلقت به آماله هو أن يجعل محل انعقادها بمدينة من مدائن ايطاليا حسبما كان مصمما عليه اولا لأن انعقاد المشورة باحدى مدائن ايطاليا التى هى مملكته يترتب عليه أن اربابها من القسوس يكونون فى قبضته فيمكنه استمالتهم الى رأيه وتخف عليه المؤونة اكثر مما اذا انعقدت بمدينة اجنبية فبناء على ذلك امر وكيله الذى كان بمشورة الدييتة فى مدينة سبيره سنة ١٥٤٢ أن يعرض أن يكون انعقاد المشورة القسيسية بمدينة من بلاد ايطاليا فان ابى ذلك اهل المانيا كما فعلوا سابقا كان انعقادها فى مدينة ترنته باقليم تيرول وكانت هذه المدينة فى حكم ملك الرومانيين وهى على اطراف ايطاليا والمانيا
* وبعد أن عرض الامراء القاثوليقيون على مشورة الدييتة أن مدينة راتسبونة اومدينة كولونيا اوغيرهما من المدائن الكبيرة فى الايمبراطورية هى الاولى بعقد المشورة القسيسية فيها واكثر فائدة للفريقين انحط رأيهم على أن يكون انعقادها بمدينة ترنتة حسبما طلبه البابا واما المعتزلة فلم يرضوا بهذا الرأى وابدوا أنهم لايقرون هذه المشورة اذا هى انعقدت خارج ارض الايمبراطورية بأمر البابا وكان هو الرئيس عليها

٢٢ من شهر ايار سنة ١٥٤٢

ولكن لم يبال البابا بولس بمخالفة المعتزلة بل صدر منه فرمان بعقد المشورة

وعين

(سنة ١٥٤٣)

مطلب
طلب البابا انعقاد مشورة قسيسية وصدور فرمان منه فى هذا الشأن

وعين ثلاثة من الكردينالات يحضرون بها على سبيل النيابة عنه وامرهم أن يذهبوا الى مدينة ترنتة قبل مستهل شهر تشرين الثانى الذى عين اول يوم منه لافتتاح المشورة المذكورة ولكنه لو كان يريد عقد المشورة بخلوص نية وطيب سريرة كما كان يزعم لما طلب عقدها فى وقت غير صالح لها فان عقول الناس اذ ذاك كانت مختلفة وآراؤهم مضطربة ولم يكن بينهم من الائتلاف والهدء ما يلزم فى قبول ما يحكم به فى المذاكرت وزيادة على ذلك كان بين الايمبراطور وملك فرانسا حرب مهول فلم يسغ لقسوس معظم بلاد الافرنج حضور المشورة بمدينة ترنتة فمكث وكلاء البابا بهذه المدينة عدة اشهر ولم يحضر اليهم احد سوى بعض قسوس من دول البابا فعند ذلك دعا وكلاءه الى الحضور لديه وأخر عقد المشورة القسيسية لوقت آخر خوفا من

مطلب
اضطرار البابا الى تأخير المشورة

استهزاء اعداء الكنيسة به وسخريتهم منه ولسوء حظر ديوان رومة حصل انه بينما كان المعتزلة يغتنمون كل فرصة تعينهم على الفتك بشوكته رأى الايمبراطور وملك الرومانيين أن مصلحتهما تقتضى أن لا يطلبا حزب المعتزلة بل تستدعى البحث عن استمالتهم باموز جديدة ترضى خاطرهم حتى ان فرديننـد

مطلب
اجتهاد الايمبراطور فى استمالة حزب المعتزلة

ملك الرومانيين لما خالف المعتزلة بمشورة الدييتة فى مدينة سبيره فيما طلبه البابا من عقد المشورة القسيسية بمدينة ترنتة اعانهم على ذلك وأيد قولهم لاحتياجه اليهم فى اعانته على المدافعة عن بلاد المجار فاذن أن تكتب صورة مخالفتهم فى دفاتر مشورة الدييتة المذكورة وايدهم ايضا فى المزايا التى اتحفوا بها فى مشورة الدييتة التى انعقدت بمدينة راتسبونة واضاف اليها مزايا اخرى جديدة حتى صار المعتزلة آمنين لا يخشون بأسا ولا يخافون بطشا فكان مما اتحفهم به أنه علق اجراء فرمان كان صدر من الديوان الايمبراطورى يتضمن الاضرار بمدينة غوسلارة فى نظير كونها انضمت الى عصبة المعتزلة المسماة عصبة سمالكالد وقبضت على ايراد القسوس فى اراضيها والتزاماتها ولم تصرفه اليهم فصدر الى الامير هنرى دوق برونسويك امر بعدم اجراء هذا الفرمان ولكن كان هذا الامير صاحب بدع واوهام وكان من احزاب

(سنة ١٥٤٣)

الكنيسة القاثوليقية وكان عنيدا يستنكف العدول عما صمم عليه وشرع فيه فلم يعبأ بالامر الذى صدر له بعدم العمل بمقتضى الفرمان ولم يزل يشن الغارة على اراضى مدينة غوسلاره فلم يستطع الامير منتخب سكس ولا حاكم هيسه أن تحصل مثل هذه الاساءة لاعضاء عصبة المعتزلة فجمعا قواهما وعساكرهما ودعوا الامير هنرى المذكور الى القتال فجرداه فى ظرف بعض اسابيع عن دوله واراضيه حتى اضطر الى الالتجاء عند حاكم باويرة فترتب على هذه الحادثة الناشئة عن الجبر والقسوة التى كان الغرض منها الانتقام أن ارتعدت فرائص اهل المانيا وظهر أن ارباب عصبة سمالكالد لهم اقتدار على حماية من تعاهد معهم وانضم الى حزبهم

مطلب
حادثة صعبة حصلت من عصبة سمالكالد

فلما قويت قلوب ارباب عصبة سمالكالد بمثل هذه المزايا الكبيرة وباتساع دائرة دينهم وتجدد شوكتهم الدينية بتجدد الايام تظلموا من الديوان الايمبراطورى وابوا أن يقروا احكامه واوامره متعللين بأن هذا الديوان لم يرتب على صورة مستحسنة حسب الامر الصادر من مشورة الدييتة المنعقدة فى راتسبونة وبأن له اغراضا فاحشة فى جميع احكامه وعما قليل فعلوا ما هو اعظم من ذلك حيث تجاسروا على مخالفة امر الدييتة التى انعقدت بمدينة نورمبرغ لاجل المذاكرة فى شأن المدافعة عن بلاد المجار وابوا أن يدفعوا ما خصهم لهذا الغرض قائلين انهم لا يعطون مددا الا بعد ابطال الديوان الايمبراطورى واعطاءهم الامن الكلى فى جميع ما يتعلق بالدين

فى ٢٣ من شهر نيسان (سنة ١٥٤٣)

فهكذا كانت حالة المعتزلة فى الشوكة والاحتراس حين رجع الايمبراطور من مملكة البلاد الواطية واراد عقد الدييتة التى كان طلب انعقادها بمدينة سبيرة ولهيبة الايمبراطور وأهمية المصالح التى كان المراد تمهيدها وانهاءها كثر ارباب تلك المشورة كثرة بالغة حيث حضر جميع المنتخبين وكثير من وجوه القسوس وغيرهم وجميع رسل المدن والعمالات ورأى الايمبراطور أنه لا ينبغى له فى مثل ذلك الوقت أن يغضب المعتزلة بتأييده لدين الكنيسة او يخدش شيء من المزايا التى كانوا يتمتعون بها بل أنه يجب عليه مداهنتهم لينال منهم بعض

مطلب
انعقاد الدييتة بمدينة سبيرة سنة ١٥٤٤

امدادات

(سنة ١٥٤٣)

امدادات يستعين بها وأن يرخص فى شأن الدين اكثر من الاول فمن ثم سعى
فى استمالة قلب كل من الامير منتخب سكس والامير حاكم هيسة وكانا
رئيسى حزب المعتزلة فسلم لهما فى بعض امور ووعدهما بأن يرضى خاطرهما
فى الامور التى لم يسلم لهما فيها فبهذا الوجه سلم من معارضتهما له فى الامدادات
التى كان يريد طلبها ولما احترس بتلك الواسطة رأى أنه صار يمكنه أن يفصح
فى المشورة عما فى ضميره ولا يخشى بأسا فبدأ بمدح همته وسعيه فى غرضين هما
اهم اغراض الملل النصرانية احدهما هو أنه كان يريد عقد مشورة قسيسية
عامة لازالة المشاجرات والمنازعات الدينية التى كان يترتب عليها اذ ذاك
تعكير بلاد المانيا واضطرابها وثانيهما هو الاحتراس من شوكة الدولة
العثمانية وشدة بطشها وابدى أن اغراضه وان كانت صحيحة تعود بالنفع على
الملة النصرانية الا أن طمع فرنسيس افسدها عليه حيث الغى الهدنة التى
انعقدت بمدينة نيسة واضرم نيران الحرب فى بلاد اوروبا بدون سبب
ولا مقتض ومنع القسوس وامناء دين النصرانية عن الحضور بالمشورة
القسيسية ومن حضر منهم لم تمكنه المذاكرة مع الامن والاطمئنان فى المسائل
الخلافية وأنه هو نفسه قد اضطر بتلك الاسباب الى تجهيز قواه وعساكره
للذب عن بلاده من ملك فرانسا ولولا طمع هذا الملك لاعدها لقتال المسلمين
تشريفا للنصرانية وشفاء لغليله من المسلمين الذين هم اعداء دين النصارى
ولا يودون الا دماره ومحقه بالكلية واضاف الى ذلك قوله ان الملك فرنسيس
لم يكتف بافساد مقاصده عليه بل جاء شيأ نكرا حيث جلب الاتراك الى داخل
الدول القاثوليقية وضم جيوشه الى جيوشهم وهجم على دوق ساوة الذى
هو احد اعضاء الايمبراطورية الالمانية وان دونما بربروس العثمانية موجودة
الى الآن فى احدى مينات فرانسا تنتظر فصل الربيع لتهجم فيه على بلاد
النصارى وان من الجنون الشروع فى الهجوم على بلاد الدولة العثمانية
أو فى طرد جنودها من بلاد المجار حيث ان فرنسيس متعاهد معها فبلاده
عند الضرورة ملجأ لها فالاصوب حينئذ البدء باذلال مملكة فرانسا ليحرم

مطلب
طلب الايمبراطور
الاعانة على ملك
فرانسا

(سنة ١٥٤٤)

السلطان سليمان من الفوائد التى يحصلها من معاهدته مع الملك فرنسيس الذى هو مع هذه الضلالات والمنكرات يلقب نفسه بلقب ترك تيان اى عريق فى النصرانية وبالجملة فالحرب مع ملك فرانسا هو عين الحرب مع السلطان حيث ان اضعاف شوكة الاول يترتب عليه اضرار الثانى وانحطاط دولته وتمم الايمبراطور كلامه بطلبه من ارباب المشورة مددا يستعين به على فرنسيس حيث كان يهجم على الجمعية الجرمانية ورئيسها وكان متعاهدا مع المسلمين فهو للنصارى عدو مبين

ثم قام اخوه فرديننند الملقب ملك الرومانيين مؤيدا لقول الايمبراطور فحكى صورة فتح السلطان سليمان لبلاد المجار قائلا ان سبب ذلك هو حرب ملك فرانسا مع الايمبراطور اذ لولا ذلك لاعان بلاد المجار وانقذها من بطش الاسلام ثم قام رسل دوق ساووة واطنبوا فى شرح مافعله بربروس بخطة نيسة وماوقع منه من التخريب والظلم فى تلك الجهة وانضم الى هذه الشكاوى كون اهل اوروبا كانوا فى حنق شديد من الملك فرنسيس لمعاهدته مع المسلمين فأثر ذلك تأثيرا قويا فى قلوب ارباب الديتة ومال اغلبهم الى اعانة الايمبراطور بامدادات جسيمة وكان الملك فرنسيس قد بعث رسلا الى الديتة المذكورة ليعتذروا عنه ويفصحوا عن الاسباب التى حملته الى سلوك هذه المسالك ولكن لم يؤذن لهم بالدخول فى ارض الايمبراطورية فاشاعوا ما كانوا يريدون به براءة سيدهم وحاولوا أن يبرهنوا على حسن سلوكه ومعاهدته مع السلطان سليمان بذكر امثلة مستنبطة من الانجيل ومناقب ملوك النصرانية ولكن لم ينجحوا فى ذلك ولم يفدهم اجتهادهم شيأ حيث كانت عقول الناس اذ ذاك مشحونة بما يغضبهم من افعال هذا الملك فلم تكن مستعدة لقبول شئ من تلك البراهين التى كان الغرض منها براءته والاعتذار عنه

مطلب
اعطاء الايمبراطور مزايا عظيمة للمعتزلة ليستميلهم اليه

فلما رأى الايمبراطور ذلك من اهل المانيا علم أنه صار لا يمنعه عن تنجيز مقاصده سوى استخوان المعتزلة له وخوفهم منه فعزم على ازالة ذلك من قلوبهم فاعطاهم

جميع ما كانوا يتمنونه للامن على انفسهم فصدر منه امر بتعليق الاوامر التي كانت صدرت في شأنهم وعدم اجرائها ووقع الاتفاق على عقد مشورة قسيسية عامة اومشورة ملية بقصد اصلاح حال الكنيسة وازالة المجادلات الدينية وعلى أن الايمبراطور يسعى في عقد تلك المشورة في اقرب مدة وانه قبل انعقادها لا ينبغي التضييق على المعتزلة بوجه من الوجوه في دياناتهم وعباداتهم وان الديوان الايمبراطوري لا يجوز له اضرارهم في اى شئ كان وأن ارباب هذا الديوان بعد انقضاء مدتهم يعوضون باناس صالحين للقيام في هذا المقام ولا يلتفت الى كونهم معتزلة اوقاثوليقية فبهذه الاسباب مال المعتزلة الى الايمبراطور والتزموا له بالانضمام الى بقية ارباب الديانة لاجل محاربة الملك فرنسيس باسم الايمبراطورية وامدوه باربعة وعشرين الفا من المشاة واربعة آلاف من الفرسان وانحط الرأى على أن مصاريف هؤلاء العساكر تكون على طرف عصبة سمالكالد مدة ستة اشهر وضرب ارباب الديانة ايضا مغرما على الرؤس بدون تمييز بين الناس لقصد اعانة الايمبراطور في حربه مع الدولة العثمانية

مطلب
الامداد التي امدت الايمبراطور به مشورة الديانة

وبينما كان شرلكان يدبر امر مصالحه المشكلة في مشورة الديانة ويحاول استمالة اربابها اليه ليعينوه على مشروعاته ومقاصده كان من جهة اخرى يسعى في الصلح مع ملك دانيمرقة فانه وان كان مع معاهدته لفرنسيس لم يعنه بشئ كان الايمبراطور يخشى اعانته لملك فرانسا وكان ايضا يلح على ملك انكلترة بالتضييق على فرنسيس حيث كان عدوا مبينا لهما وكانت مقتضيات الاحوال حينئذ تعين الايمبراطور على نيل مرامه وذلك أن ما حصل بين ملك انكلترة وملك ايقوسيا كان يقوى بغضة فرنسيس في قلب الملك هنرى فان هذا الملك لما عقد مشارطة مع مجلس البرلمان بمملكة ايقوسيا في شأن تزويج ابنه الملكة ماريا ظن أن مرامه قد تم بانضمام ايقوسيا الى انكلترة وهو غرض كان يتمناه اسلافه وجدوا في طلبه ولم ينجحوا * ولكن حصل أن الملكة ماريا دوغيزه ام الملكة ماريا

مطلب
مداولة شرلكان مع كل من ملك دانيمرقة وملك انكلترة

(سنة ١٥٤٤)

والكردينال باتون وغيرهما من احزاب فرانسا بذلوا غاية جهدهم حتى فسخوا عقد هذا النكاح بل اوقعوا العداوة والبغضاء بين اهل ايقوسيا والملة الانكليزية وجددوا عهود المحبة القديمة بين ايقوسيا ومملكة فرانسا ومع ذلك لم يزل هنرى يسعى فى هذا الغرض المهم وازدادت بغضته لفرنسيس ورأى أن اذلاله هو احسن واسطة فى اعادة اهل ايقوسيا الى اقرار هذا النكاح وعدم فسخه وكان مهتما بهذا الغرض كل الاهتمام حتى ان الايمبراطور بمجرد أن عرض عليه ما ربه رآه مستعدا لاعانته فى جميع مشروعاته مع ملك فرانسا وكان يترتب على ما دبراه مع بعضهما فى هذا الشأن ضياع مملكة فرانسا بلا ريب واتساع دول الايمبراطور وازدياد شوكته ونموها بحيث يخشى منها على جميع بلاد اوروبا حيث اتفقا معا على أن يدخل كل منهما فى فرانسا مع جيش يبلغ عدده خمسة وعشرين الفا ويبادر بمحاصرة مدائن الرساتيق والضواحى ثم يجولان فى المملكة ويضمان جنودهما الى بعضها بقرب مدينة باريس

مطلب
افتتاح الفرنساوية فى الحرب باقليم بيمون

وكان الملك فرنسيس باقيا بدون نصير ولا ظهير يعينه على هؤلاء الاعداء الكثيرين الذين كان شرلكان يحرضهم عليه ولكن كان السلطان سليمان لم يزل متعاهدا معه الا أن هذه المعاهدة كانت قد اوقعت بغضة فرنسيس عند سائر الملل النصرانية حتى كان يود أن يفسخها ويترك فوائدها حتى لا يكون مبغوضا عند جميع النصارى فبناء على ذلك صرف بربروس بسفنه بمجرد دخول فصل الشتاء فخرب وهو راجع الى القسطنطينية سواحل طوسكانه ونابلى وحيث كانت قوى فرنسيس لا تعادل قوى الايمبراطور اراد أن تكون سرعته ومبادرته سادة مسد ضعف قواه فبادر بالافتتاح فى الحرب فحاصر بمجرد مجئ فصل الربيع جنراله القوتة دانغيان مدينة كارنيان وهى احدى مدائن اقليم بيمون وكان الملتزم دوغواست بعد أن تغلب عليها فى السنة الاولى من الحرب رآها مهمة جدا فحصنها كل التحصين فبذل القوتة دانغيان جهده فى حصارها حتى خشى عليها الملتزم

دوغواست

(سنة ١٥٤٤)
مطلب
توجه عساكر الامبراطور الى هذه المدينة لاعانتها

دوغواست وكان قد لحقه فى فتحها ما لا مزيد عليه من المشاق فخرج من ميلان قاصدا التوجه اليها وكان هذا لا يخفى على احد فعما قليل وصل الخبر الى معسكر الفرنساوية وكان القونتة دانغيان شابا ذا عنفوان وحمية فكان يود وقوع حرب معه ليختبر طالع حظه وسعده وكان عساكره ايضا يودون القتال مثله الا أن الملك فرنسيس كانت مصالحه اذ ذاك لا تسوغ له الحرب بل كان فى وجل بتذكار المصائب التى حصلت له سابقا فى حروبه مع الامبراطور فنهى القونتة دانغيان عن أن يحارب عساكر الامبراطور ولكن ابت نفسه أن يترك مدينة كارنيان التى كانت مشرفة على التسليم وهو كان يود أن يمتاز فى واقعة مهمة يحوز بها الافتخار والشهرة فارسل من طرفه الضابط مونلوق الى ديوان فرانسا ليفهم الملك ما يترتب على الحرب من الفوائد الجليلة و يوقفه على الطرق التى يرجو بها النصر على الاعداء فأحال الملك فرنسيس هذا الامر على المشورة فانحط رأى الوزراء جميعا على عدم الحرب وعضدوا آراءهم ببراهين قوية وادلة مسلمة وكان مونلوق حاضرا فى المذاكرة فظهر عليه آثار الغم مما كان يسمعه من افواه الوزراء وظهر منه أنه يريد التكلم فتعجب الملك فرنسيس من حركاته واطواره فدعاه وسأله عما عنده من الادلة ليرد به كلام الوزراء المعضد بالادلة الصحيحة المبنية على الحزم والاصابة وكان مونلوق مع شجاعته صافى النية خالص الطوية لا يخفى ما بضميره فبين له حسن حالة العساكر الفرنساوية ورغبتها فى قتال العدو ووثوقها بضباطها وما يلحقها من الخزى والمعرة اذا هى أبت القتال و برهن له على ذلك بعبارة جانب فيها التكلف وسلك فيها مسلك الفصاحة العسكرية المؤذنة بالحماسة والحمية فأخذ بعقل الملك بل واستمال عدة من ارباب مشورته وادرك فرنسيس من الحمية ما كان مستوليا على عساكره وارتعدت فرائصه ثم رفع يديه الى السماء قائلا للنجيب مونلوق بادر بالرجوع الى پيمون وقاتلوا بسم الله فبمجرد سماع هذا الجواب من الملك ازدادت حمية الاشراف والامراء وتسابقوا الى حيازة فخار الحرب وسودده حتى خلا الديوان الملوكى عن اربابه فكل

مطلب
واقعة مدينة سيريزوله

(سنة ١٥٤٤)

من كان له اقتدار على الحرب وكان يريد الامتياز سعى بطوعه واختياره الى اقليم بيمون ليقتسم فخار النصرة فلما وصلوا الى القوتة دانغيان وكانوا عددا كثيرا قوى قلبه ودعا الملتزم دوغواست الى الحرب فأجابه بدون تردد وكان عدد الفرسان مستويا فى الفريقين واما المشاة فكانوا فى فريق الايمبراطور يزيدون على مشاة فرنسيس بعشرة آلاف او اكثر ووقع الاصطدام بقرب مدينة سيريزولة فى سهل متسع خال عن الموانع والعوائق بحيث لم يكن وضع احد الفريقين احسن من وضع الآخر فاصطف الجيشان بهامع غاية السهولة وكانت الصدمة الاولى مع العزم والقوة اللذين يؤمل مثلهما من رجال شبوا وشابوا فى العسكرية وكانت قلوبهم مشحونة بالحقد والشجاعة فحملت خيالة الفرنساوية على العدو مع عزمها المعتاد ودمرت كل من اتى فى طريقها او تعرض لها الا أن المشاة الاسبانيولية اخرت الطائفة التى تصدرت أمامها وردتها بشهامتها وحسن ضبطها وربطها فبقى امر النصرة مجهولا بين الفريقين حتى تكون لمن يحسن الادارة ويسلك مسلك الحزم من الفريقين وكان الجنرال دوغواست بين العساكر التى انحل نظامها فخشى أن يقع فى ايدى الفرنساوية فينتقموا منه فى نظير قتل رانكون وفريغوزة فغاب عقله ونسى أن يقدم طائفة الاحتياطية واما الجنرال دانغيان فابدى من الحزم العجب العجاب وتقدم مع طائفة من الخيالة وشد عضد العساكر الذين كانوا قد اخذوا فى الرجوع القهقرى وكان معه طائفة من عساكر السويسة الذين كانوا لا ينزلون ميدان الحرب الا ويظفرون بالعدو فأمرهم بالاغارة على المشاة الاسبانيولية فترتب على هذا الامر انهاء الحرب وظهر الغالب من المغلوب وكانت مقتلة عظيمة جرح فيها دوغواست فى فخذه ولم ينج الا بسرعة جواده وثبت الظفر للفرنساوية وقتل من عساكر الايمبراطور عشرة آلاف وأسر منهم مقدار جسيم واخذت خيامهم وامتعتهم واسلحتهم وفرح الغالبون بهذه النصرة فرحا عظيما لم تشبه شائبة غم ولا نكد ولم يهلك منهم الا اناس قلائل لم يكن فيهم احد من الضباط الممتازين

١١ من شهر نيسان

(سنة ١٥٤٤)

مطلب
نتيجة هذه النصرة

وهذه الواقعة السعيدة اكسبت الفرنساوية الفخار والسودد وانقذتهم من خطر عظيم وذلك أن دوغواست كان يريد الاغارة مع جيشه على جميع البلدان التى بين نهرى الرون والسون ولم يكن فيهما مدائن حصينة ولا قلاع ولا جيوش منتظمة تقاومه وتصده ولكن لم يكن للفرنساوية اقتدار على اجتناء جميع ثمار هذه النصرة نعم ان دوقية ميلان كان لا يوجد بها من يدافع عنها وكان اهلها منذ زمن طويل يتشكون من حكام الايمبراطور الذين كانوا بها ويتظلمون من جبرهم وصعوبتهم ويودون فرصة تعينهم على انقاذ انفسهم من حكم الايمبراطور وكان القوتة دانغيان قد تقوى قلبه بهذه النصرة فالح على فرنسيس أن ينتهز تلك الفرصة العظيمة ويتغلب على هذه الدوقية التى هى مطمح نظره وكانت السبب الاقوى فى حروبه مع الايمبراطور ولكن كان البحث عن أمن المملكة مقدما على الفتوحات فلذا اضطر فرنسيس الى طلب اثنى عشر الفا من اعظم الجنود التى كانت مع دانغيان لحماية مملكة فرانسا حيث ان الايمبراطور وملك انكلترة كان قد شرع كل منهما فى الهجوم عليها من جهة بجيش كبير ففترت همة الملك فرنسيس ولم يكتسب من نصرته الكبيرة التى ثبتت له فى واقعة سيريزوله الا مدينة كاريان وبعض مدن اخرى من اقليم بيمون

مطلب
افتتاح الحرب فى مملكة البلاد الواطية

وكان الايمبراطور على حسب عادته هو الاخير فى البروز الى ميدان الحرب فظهر فى اوائل شهر حيزران مع جيش جرار لم يسبق له مثله فى الحرب مع مملكة فرانسا حيث كان يبلغ خمسين الفا وكان بعضه قد تغلب على اقليم لوكسمبرغ وبعض مدائن من مملكة البلاد الواطية قبل أن يصل اليه الايمبراطور ثم جمع جيشه الى بعضه وتوجه به الى ضواحى اقليم شمبانيا بفرانسا وكان يجب عليه بمقتضى الاتفاق مع ملك انكلترة أن يتوجه من اول وهلة الى مدينة باريس تخت المملكة الفرنساوية وكان الدوفين قائدا للعساكر الذين كان يعتمد عليهم الملك فرنسيس فى نجاة مملكته ولكن لم يكن للدوفين اقتدار على مقاومة الايمبراطور غير أن نجاح الفرنساوية فى المدافعة عن اقليم بروفنسة

(شهر حيزران)

(سنة ١٥٤٤)

سنة ١٥٣٦ من الميلاد علمهم كيفية مشاغلة العدو الذى يشن الغارة عليهم ففعلوا فى هذه الواقعة كما فعلوا فى واقعة پرونسة حين اغار عليه الايمبراطور فى السنة المذكورة * ولا يخفى ان محصول اقليم شمبانيا فى النبيذ اكثر من محصوله فى القمح وغيره من الحبوب فكان لا يكفى فى مؤنة هذا الجيش الكبير الذى كان مع الايمبراطور وزيادة على ذلك امر الملك فرنسيس قبل حضور الايمبراطور بجيشه أن يخرجوا من هذا الاقليم ما كان يوجد به من مواد القوت والمؤنة ورأى الايمبراطور أن اول وسيلة يجب عليه اتخاذها فى ذلك هى أن يتغلب على بعض قلاع ومدائن حصينة ليأمن على قوت عساكره ومؤنتهم حتى لا يقع فى الشدة والضنك كواقعة پرونسة وكانت مدائن الضواحى غير محصنة ففرح بالتغلب عليها سريعا بدون كبير مشقة فهجم اولا على مدينة لينى ثم على مدينة كومرسى ولم يقاوما الا قليلا ثم حاصر مدينة سنديزيير ولم يكن فيها شئ مما يلزم لتحمل مشاق المحاصرة وان كانت من الثغور المهمة على نهر مارن الا أن القونتة دوسنسير والامير دولاندة القيا بانفسهما فى هذه المدينة مصممين على حفظها لسيدهما الملك فرنسيس والمدافعة عنها بقدر ما فى وسعهما وكان الايمبراطور يعلم اقتدارهما فيئس من اخذ هذه المدينة من اول وهلة فصمم على حصارها محاصرة متينة وحيث كان من طبعه انه لا يعدل عما يشرع فيه سلك فى هذا المشروع مسلك العناد والعنفوان لا الحزم والتدبير

مطلب
محاصرة الايمبراطور لمدينة سنديزيير فى ٨ من شهر تاموز

وكانت تجهيزات ملك انكلترة للحرب قد تمت قبل تجهيزات الايمبراطور لكنه لما كان لا يمكنه أن يهجم وحده على جميع قوى مملكة فرانسا وكان يشق عليه أن تبقى عساكره بدون شغل صمم على الانتقام من مملكة ايقوسيا فارسل اليها الدونما الانكليزية مع طائفة كبيرة من العساكر المشاة كان قائدها القونتة هرتفورد فاجرى هذا القونتة اوامر سيده مع المهارة والنشاط ونهب وحرق كلا من مدينة ايدنبورغ ومدينة ليثة وافسد حال البلاد ورجع سريعا حتى لحق الملك بالدونما عقب دخوله مملكة فرانسا وكان

مطلب
حصار هنرى الثامن لمدينة بولونيا

١٤ من شهر تاموز

الايمبراطور

(سنة ١٥٤٤)

الايمبراطور لم يزل مشغولا بحصار مدينة سنديزيير فبعث رسولا الى هنري يهنيه على وصوله بالسلامة ويحرضه على أن يتوجه من اول وهلة للاغارة الى مدينة باريس حسبما هو منطوق المشارطة المنعقدة بينهما ولكن لما رأى هنري أن الايمبراطور مشغول بفتح مدن لنفسه بحيث لا يترتب على ذلك نفعهما معا تأسى به فى ذلك واخذ يتغلب على مدن لمصلحة نفسه غير ملتفت الى الحاح الايمبراطور فوضع الحصار على مدينة بولونيا وامر دوق نورفولك أن يبذل جهده فى تتميم محاصرة مدينة مونتروى وكان قد حاصرها قبل حضور هنري طائفة من الفلمنكيين واخرى من عساكر الانكليز ولما كان كل من الايمبراطور وملك انكلترة مشتغلا بمصلحة نفسه الخاصة عاد ذلك بالضرر على مصلحتهما العامة فعوضا عن أن يتحدا مع بعضهما ويعول كل منهما على صاحبه لتنجيز مقاصدهما الجسيمة داخلتهما غيرة شديدة من بعضهما وترتب على ذلك وقوع الريبة والوسواس فى قلب كل منهما من الاخر حتى آل الامر الى وقوع التفاقم والشقاق بينهما

مطلب
ماوقع من مدينة سنديزيير من المدافعة العظيمة

واما الملك فرنسيس فقد بذل وسعه حتى جمع جيشا جرارا من صناديد الابطال وفحول الرجال يمكنه به مقاومة العدو وكان الدوفين لحزمه ومهارته يحاول عدم الحرب خشية الهزيمة حيث كان يرى انه بالقتال تكون مملكة فرانسا عرصة للاخطار وانما كان يهجم على جيش الايمبراطور بطائفة من العساكر قصد الاتعابه وعدم اراحته ويقطع الطرق حتى لا تصل اليه الذخائر والزاد ويخرب ما حوله من البلاد ومع ورطة الايمبراطور بهذه الاغارات لم يزل مستمرا على محاصرة سنديزيير ولم يزل سنسير يدافع عنها مع العزم التام ويبدى العجب العجاب فى حمايتها والذب عنها فقد ثبت فى عدة اغارات ودفع جيش الايمبراطور عدة مرات وهو يهجم على المدينة مع العزم والشدة وقتل من جماعته الامير لالندة حيث اصابته كلة مدفع فاهلكته ومع ذلك لم تفتر همته ولم تكل قواه ومكث خمسة اسابيع وهو على هذه الحالة وكان فى وسعه أن يستمر على المدافعة مدة الا أن الكردينال دوغرانويل تحيل عليه حتى

(سنة ١٥٤٤)

حمله على التسليم وذلك أن الكردينال المذكور كان بمكان من السياسة والخداع فعثر على العلامات والاشارات المصطلح عليها فى المخاطبة بين دوق غيزة وسنسير فكتب مكتوبا على لسان دوق غيزة يأمر فيه سنسير أن يسلم المدينة لان الملك فرنسيس وان كان مسرورا منه ومن حسن سلوكه لايستصوب أن يخاطر بنفسه لاجل اعانته فوصل هذا المكتوب الى المدينة على وجه بحيث لاتظهر منه صورة غدر ولا خيانة فاغتر سنسير بهذه الحيلة ووقع فى اشراك المكيدة الا أنه سلم بشروط تلايم شجاعته وشرف نفسه فكان من جملتها أنه عقد هدنة بابطال الحرب مدة ثمانية ايام والتزم أنه يفتح ابواب المدينة للعدو ان مضت تلك المدة ولم يهجم الملك فرنسيس على جيش الايمبراطور ولم يدخل فى المدينة جنودا من عساكره فبتنبت سنسير وحسن مقاومته اوقف الايمبراطور مدة مستطيلة أمام المدينة مع انها لم تكن جيدة التحصين وفى ظرف هذه المدة امكن للملك فرنسيس أن يستعد ويجمع قواه وثبت للامير سنسير الفخر بكون نجاة وطنه كانت على يديه وقل أن يحوز مثل هذا الفخار حكمدار صغير الرتبة غير مطلق التصرف

١٧ من شهر اب
مطلب
دخول الايمبراطور فى وسط فرانسا

وبمجرد تسليم مدينة سنديزيير جال الايمبراطور فى وسط اقليم شمبانيا ولكن لما لحقه من المشقة فى محاصرة هذه المدينة داخله اليأس من الوصول الى باريس حيث كان أمامه مدائن اقوى من تلك المدينة واكثر منها فى الزاد والذخائر والمهمات الحربية وزيادة على ذلك كان مامعه من الزاد يتناقص ويقل كلما بعد عن ضواحى دوله وكان قد هلك من عساكره عدد عظيم فى حصار مدينة سنديزيير وكان جيشه يتناقص كل يوم باغارات العدو عليه من غير أن يشعر او يبيت امرا وكان الفصل قد ذهب معظمه ولم يستول على اراض وقلاع كبيرة من بلاد العدو يقيم بها عساكره مدة فصل الشتاء وكان عليه لعساكره ماهيات عدة اشهر فاخذوا فى التشكى والتظلم ولم يكن عنده اموال حتى يصرف لهم استحقاقهم فجميع هذه الاسباب الزمته بأن يجنح الى الصلح الذى كانت تدعوه اليه اخته ملكة فرانسا وارسلت اليه بصدده سرا مع اثنين

(سنة ١٥٤٤)

من قسوس طائفة الدومينيكان كانا واعظين له ولاخته المذكورة فبناء على ذلك تعين لهذا الغرض اناس من الطرفين ووقعت المفاوضة فيه بقرية شوسة التي هي بقرب مدينة شالون ولكن ارسل شرلكان الجيا من طرفه الى الملك هنرى يطلب منه التوجه الى باريس حسب الاتفاق ولايدرى هل كان قصد الايمبراطور بذلك أن يبذل جهده فى التغلب على مملكة فرانسا او يجعل ذلك وسيلة يتعلل بها فى التخلى عن حليفه هنرى ثم يعقد الصلح مع الفرنساوية فبينما كان ينتظر جواب ملك انكلترة وكانت المذاكرة لم تزل فى قرية شوسة كان لم يزل يتوغل و يجول فى المملكة مع قلة زاده وذخائره فلوفور حظه اونشاطه اوخيانة بعض الفرنساوية هجم بغتة على مدينة ايبرنى ثم على مدينة شاتوتيرى وكان بهما مخازن عظيمة مشحونة بالمهمات والذخائر فلما شاع الخبر باخذ هاتين المدينتين وكانت الثانية قريبة من باريس بحيث لم يكن بينهما الامرحلتان فقط عم الحزن والفزع سكان هذا التخت حيث لم يكونوا مستعدين للمقاومة والمدافعة وداخلهم اليأس والقنوط وصاروا يفرون من سائر الجهات حتى كأن الايمبراطور على ابواب مدينتهم وبعث كثير منهم نساءه واولاده على نهر السين الى مدينة روان و بعضهم ارسل عائلته الى اورليان و بعضهم الى المدائن التى على نهر لوار وحصل للملك فرنسيس نفسه من هذه الحادثة فزع لم يلحقه مثله مدة حكمه وداخله رعب شديد من نصرة عدوه عليه ووصوله الى تخت مملكته ومن الاخطار التى صارت مملكته حينئذ عرضة لها فلم يمكنه أن يضبط نفسه حين طرق هذا الخبر آذانه بل صاح قائلا يارباه ما اعظم ما اعددته لى من المشاق والمصائب فى تظير هذا التاج وقد كنت اظن انك انعمت به على نعمة لارجوع فيها لكنه ندم بعد ذلك على هذه المقالة الناشئة عن الالم والتضجر وتاب واقلع قائلا ما معناه لن يصيبنا الاما كتب الله لنا ثم اطمأنت نفسه وسكن روعه وامر بما يلزم لصد العدو ورده ووجه الدوفين الى باريس ثمانية آلاف من العساكر فاطمأنت بهم قلوب اهلها وادخل كثيرا من المحافظين فى مدينة موكس واسرع

(سنة ١٥٤٤)

فى السير حتى وصل الى مدينة لافرته وكانت بين جيش الايمبراطور والتخت

مطلب اضطرار الايمبراطور الى الرجوع

وكان القحط والمجاعة قد اخذا ثانيا فى الظهور بين عساكر الايمبراطور فلما رأى ان الدوفين يتجنب الحرب معه وكان لا يمكنه الهجوم عليه فى معسكره مع عساكره حيث كانوا فى تعب ونصب وكانت مقاديرهم قد تناقصت جدا اعدل سريعا واخذ فى السير ميمنة قاصدا مدينة سواسون ووصل اليه فى ذلك الوقت جواب من طرف ملك انكلترة يذكر فيه انه لا يترك حصار بولونيا ولا حصار مونترووى لانه قد اشرف على التغلب عليهما فعند ذلك رأى الايمبراطور أنه لا يجب عليه العمل بمقتضى المشارطة المنعقدة بينهما وأنه يجوز له أن يفعل ما يكون فيه مصلحة لنفسه فبناء على ذلك اخذ بجدد المذاكرة فى شأن الصلح وكانت قد بطلت بتغلبه بغتة على مدينة ايبرنى ولم يكن يصعب انعقاد الصلح بينه وبين فرنسيس حيث كان احدهما راغب فيه رغبة تامة والآخر محتاج اليه كل الاحتياج فتمت مشارطة الصلح بمدينة كريسبى وهى مدينة قريبة من مدينة موكس وكان اتمامها فى الثامن عشر من شهر ايلول

مطلب الصلح المنعقد بمدينة كريسبى

وكانت بنودها الاصلية هى أن كلا من فرنسيس والايمبراطور يرد الى خصمه ما انتزعه منه من تاريخ مهادنة نيسة وأن الايمبراطور يزوج بنته البكرية للامير الدوق دورليان بن فرنسيس او يزوجه بنت اخيه فردينند الثانية فان زوجه بنته اعطاه فى الجهاز مملكة البلاد الواطية يتصرف فيها كيف يشاء وتنتقل من بعده الى اولاده الذكور من هذه الاميرة وان زوجه بنت اخيه فردينند اعطاه دوقية ميلان وما يتبعها وأن الايمبراطور مخير مدة اربعة اشهر فيمن يزوجه بها من هاتين الاميرتين وأن الوفاء بشرط الزواج باحداهما يكون اجله سنة من تاريخ المشارطة وأنه بمجرد استيلاء الدوق دورليان على مملكة البلاد الواطية اودوقية ميلان يرد الملك فرنسيس الى دوق سابوة جميع ما كان سلبه منه ماعدا مدينة بينرول ومدينة مونتمليان وأن الملك فرنسيس يترك دعواه فى شأن

(سنة ١٥٤٤)

مملكة نابلى اواقليم الملك واقليم اروازة وأن الايمبراطور يترك ايضا دعواه فى شأن دوقية برغونيا وقونتية كاروليس وأن فرنسيس لاتحصل منه اعانة لملك نوار وأن الايمبراطور وملك فرانسا يضمان قواهما الى بعضها لقتال الدولة العثمانية ولهذا الغرض يجب على الملك فرنسيس أن يرسل من عنده بموجب طلب الايمبراطور اوديوان الايمبراطورية ستة آلاف من الفرسان وعشرة آلاف من المشاة

مطلب
الاسباب التى دعت الايمبراطور الى عقد الصلح

وكان من جملة الاسباب التى حملت الايمبراطور على عقد الصلح مالحق جيشه من الضنك والضيق بنفاد الزاد والذخائر وماادركه من المشقة فى ايابه وفراره من بلاد عدوه وعدم امكان اقامته بعساكره مدة الشتاء فى مملكة فرانسا ومنها ايضا اسباب اخرى قوية وان لم تكن ظاهرة وهى أن البابا كان مغتاظا منه على مااعطاه للمعتزلة فى مشورة الديتة المنعقدة اخيرا ولانه كان قد وعدهم بأن يجتهد فى عقد مشورة قسيسية عامة وكان قد رخص ببلاد المانيا فى المجادلات والمناقشات فيما كان واقعا بين القاثوليقية والمعتزلة من المسائل الخلافية فهذان الامران الاخيران اعنى وعده اياهم بعقد المشورة القسيسية وترخيصه فى المجادلات والمناقشات رآهما البابا من باب الافتيات والتعدى على حقوق الكنيسة فبعث الى الايمبراطور كتابا يتضمن التوبيخ والتعنيف ويؤذن بالتكبر والتعاظم وعباراته موذيه مرة ثقيلة والفاظه جارحة مؤلمة حتى انه ربما كان يؤخذ منه أن قصد البابا به انما هو المشاجرة مع الايمبراطور لا استعطافه واستمالته وقد ازداد غضب البابا من الايمبراطور حين رآه قد تعاهد مع الملك هنرى لان هذا الملك كان من المعتزلة الذين طردتهم الكنيسة عن بابها وحكمت عليهم بالحرمان فظهر له أن معاهدة الايمبراطور معه ليست الا من قبيل الكفر والالحاد فهى كمعاهدة الملك فرنسيس مع السلطان سليمان * ومن جهة اخرى كان كل من ابن البابا وحفيده يتشكى و يتظلم من الايمبراطور حيث كان يناقض فى اعطائهما اقليم برمة واقليم بليزنسة فكان بغضهما للايمبراطور يزيد فى حقد البابا عليه و يضاف الى ذلك ما كان يصدر

(سنة ١٥٤٤)

من فرنسيس من المواعيد المزخرفة والمداهنة لاجل استمالة البابا اليه ثم انه كان الى ذلك الوقت لم يزل مصمما على عدم التعرض لكل من الفريقين حيث كظم غيظه وحاول عائلته التى كانت تحيل فى هذا المعنى وحاول ايضا ملك فرانسا حيث كان يلح عليه بالانضمام الى حزبه الا أنه كان لا يرجى منه أن يستمر على بقائه خليا عن الاغراض مع بغضه للايمبراطور وحثه احبابه واصحابه على ما يخالف ذلك وظهور مصلحته فى الانضمام الى حزب فرنسيس وكان الايمبراطور يعلم أن اتحاد البابا مع ملك فرانسا يخشى منه على دوله التى ببلاد ايطاليا حيث ان البابا كان قدوة لاهل ايطاليا فى السياسة والتدبير فان انضم الى حزب فرنسيس فلابد أن يتبعه اهل البنادقة وكان الايمبراطور قد تعب من معاناة الحرب والقتال فرأى أنه ان تعصبت عليه عصبة افضت بقواه الى الدمار وكان عساكر الدولة العثمانية فى ذلك الوقت لم يجدوا من يقاومهم ببلاد المجار فاخذوا جميع مدائنها وتوغلوا بالسرعة حتى وصلوا الى بلاد الاوسترسيا لاسيما وكان ثم امر آخر يدعو الايمبراطور الى التيقظ وبذل الهمة وهو تقدم مذاهب المعتزلة واتساع دائرة دينهم وازدياد شوكة عصبتهم فكان نحو نصف ألمانيا قد اعتزل عن دين الكنيسة واتبع الدين الجديد وباقى اهلها كان يتردد بين دين الكنيسة ودين المعتزلة وكان اعيان الاوسترسيا قد طلبوا من الملك فردنند أن يرخص ببلادهم فى اتباع دين المعتزلة وكان اهل بوهمية (مملكة چه) لم تزل عندهم آثار دين حنا هوس فكانوا يبذلون وسعهم فى مساعدة مذهب لوتير وكان مطران كولونيا ذا حمية شديدة يندر مثلها فى القسوس فاخذ ينشر الدين الجديد فى ابرشيته فلم تكن تعلم عاقبة هذه الحوادث ان لم يحصل الاهتمام بمنعها وكان الايمبراطور قد عاين بنفسه فى مشورة الديتة المنعقدة اخيرا عتو المعتزلة وتكبرهم ورأى انهم لاعتمادهم على كثرة احزابهم والتئامهم مع بعضهم لا يراعون فى مخاطباتهم طرق الادب كما كانوا اولا حتى ادتهم جسارتهم الى احتقار البابا وعدم الاعتناء به بل كانوا لا يخشون بأس الايمبراطور فرأى أنه لاجل تأييد

الدين

(سنة ١٥٤٤)

الدين القديم وتعضيد شوكة نفسه حتى يقوى بطشه ولا تكون تسميته برئيس الامبراطورية مجرّد اسم بدون مسمى لا بدّ له من بذل الجهد والهمة فى هذا المعنى وذلك متعذر عليه مادام مشغولا بالحرب فى البلاد الاجنبية مع عدو قوى الشوكة والصولة

مطلب
استمرار الحرب بين انكلترة ومملكة فرانسا

فهذه هى الاسباب التى حملت الامبراطور على عقد الصلح الا أنه لحذقه ونباهته دبر امر مشارطة كريسپى على حسب اغراضه ومقاصده فان الشروط التى عقدها مع الملك فرنسيس ترتب عليها حرمان الپاپا من الفوائد التى حملته على ترجيح المعاهدة مع ملك فرانسا وايثارها على معاهدة الامبراطور وفى البند الذى يتضمن الحرب مع الدولة العثمانية لم يكتف الامبراطور بنزع الملك فرنسيس من حزب السلطان سليمان بل الزمه بالحرب معه وهنالك شرط آخر خصوصى لم يكتب فى المشارطة خشية ايقاع الفزع والرعب فى اوروبا وانما وقع الاتفاق عليه بين الملك فرنسيس والامبراطور وهو أن كلا منهما يبذل جهده فى عقد مشورة قسيسية عامة لتصد تأييد شوكتهما ومحق دين المعتزلة من ممالكهما فبهذا الشرط خاب امل عصبة سمالكالد فى الملك فرنسيس ولكن خشى الامبراطور أن يلح ارباب تلك العصبة على فرنسيس او تشتد به الغيرة فينسى ما التزم به فلذا تركه مشغولا بالحرب مع الانكليز حتى لا يمكنه التداخل فى مصالح بلاد ألمانيا

وكان الملك هنرى على غاية من الكبر حتى كان يقوم بنفسه أن شوكته لا شوكة فوقها فاغتاظ من الامبراطور كل الغيظ حيث لم يعتبره اذ عقد الصلح من غير أن يستشيره لكنه بسبب ظفره لم يتأثر من ذلك كل التأثر ثم ان العساكر الفلمنكية قد انفصلت عنه بموجب امر الامبراطور فاضطر الى احضار دوق نورفولك من حصار مدينة مونترووى الا أن مدينة بولونيا كانت

١٤ من شهر ايلول

قد سلمت له قبل انهاء مشارطة الصلح المنعقدة فى كريسپى وبينما كان هنرى مغترا بافتحه من البلدان وكان فى حنق شديد من الامبراطور اذ اتته رسل مملكة فرانسا تعرض عليه الصلح ولم يكن اذ ذاك مستعدا لقبوله مع شروط صحيحة

مقبولة فطلب طلب الغالبين الفاتحين شروطا ثقيلة صعبة حاصلها أن ملك فرانسا ينقض معاهدته مع مملكة ايقوسيا ويدفع اليه ما كان باقيا فى ذمته من الديون القديمة وجميع ماصرف فى الحرب وكان الملك فرنسيس يريد الصلح عن طيب نفس وخلوص طوية و يهون عليه أن يبذل فيه مالا جسيما الا أنه لما رأى حصول الصلح بينه وبين الايمبراطور رفض تلك الشروط الموجبة للمذلة وسافر هنرى الى انكلترة وترك نيران الحرب مضطرمة بين الملتين الانكليز والفرنساوية

مطلب
غم الدوفين من المشارطة المنعقدة فى كريسبي

ثم ان المشارطة التى انعقدت فى كريسبي وان كانت فائدتها جليلة بالنسبة للفرنساوية لكونها هى التى انقذتهم من عدو شديد البطش كان قد جال فى داخل مملكتهم الا أن الدوفين تشكى منها واستدل بها على محبة ابيه الملك فرنسيس لابنه الثانى الدوق دورليان فتظلم من كون ابيه قد ترك فى هذه المشارطة حقوق تاج المملكة الفرنساوية لمجرد مراعاة ابنه الدوق دورليان حيث كان يخصه بالمحبة و يؤثره بالمودة الا أنه لم يرد اغضاب ابيه بامتناعه عن اقرار المشارطة المذكورة مع تصميمه على أن يناقض ذات يوم فيما يضر به من تلك المشارطة فجمع بعض احزابه واخبرهم سرا بأنه لا يقبل هذه المشارطة وأن ما جبر على اقراره منها لاغ لا يعمل به واقتدى به فى ذلك مجلس برلمان مدينة تولوزة والظاهر أن ذلك كان ناشئا عن الحاح احزاب الدوفين على ارباب هذا المجلس واما الملك فرنسيس فانه وضع القرار على تلك المشارطة مع غاية الفرح والسرور وذلك انه لما فرح بانقاذ رعاياه من الاغارة الشنيعة وغره رجاء نيل مملكة لابنه الثانى اى الدوق دورليان ظن أنه غير مغبون فى اشتراء تلك الفوائد الجليلة بتركه امورا غير مأذون فيها شرعا والقا بالم يترتب عليها الى ذلك الوقت الا الخسران ملته ودمارها وحقوقا لم تكن فى يده فكأنها معدومة ثم ان الايمبراطور فى الاجل الذى ضرب لتخييره فى شأن الزواج اظهر أنه يريد تزويج بنت اخيه فرديننـد للامير دوق دورليان ويعطيها دوقية ميلان وكان يظهر من مقتضيات الاحوال اذ ذاك أن الصلح

بينهما يستمر ولا ينقطع فان الايمبراطور كان دائما يتألم من داء النقرس المعروف بداء الملوك فكان لا يظهر أنه ذو اقتدار على الحرب لان ذلك يستلزم قوة البدن والعقل وكان يجد ذلك من نفسه و يتمنى أن يقف عليه الناس وحين كان فى تعب شديد من هذا الداء حضر رسول من مملكة فرانسا الى مدينة بروكسيلة (بروسيلة) ليحضر اقرار مشارطة الصلح فوضع الايمبراطور امضاءه عليها مع غاية المشقة و يده ترتعش قائلا انه لا ينبغى الخوف من نقض هذه المشارطة لان اليد التى لا اقتدار لها على امساك القلم لا يمكنها القبض على رمح اوسنان

مطلب
مقاصد الايمبراطور فى شأن بلاد المانيا

وقد منعه المرض والجأه الى المكث بمدينة بروكسيلة عدة اشهر وكان ذلك سببا ظاهريا فى تأخره عن تنفيذ اغراضه فى شأن اذلال حزب المعتزلة ببلاد ألمانيا وفى الحقيقة كان لذلك اسباب اخرى وذلك أنه وان كانت البواعث التى دعته الى هذا المشروع قوية الا أن مصالحه اذ ذاك وقوة شوكة عصبة المعتزلة كانت تلزمه أن يتبصر و يمعن النظر فيما هو شارع فيه وأن لا يميط دفعة واحدة الحجاب الذى كان يستر به مقاصده واغراضه وكان يرى من المعتزلة مع اعتمادهم على قواهم وتعويلهم على شوكتهم أنهم دائما متحيرون فى امرهم خائفون من صولته و بطشه لكنهم استعدوا للمدافعة عن انفسهم وتجاسروا على ذلك وان كانوا يعلمون انهم بجسارتهم قد عرضوا انفسهم الى الخطر وكان الايمبراطور ايضا متحيرا فى امره بسبب حربه مع الدولة العثمانية فاراد أن يتخلص من هذا الحرب فعزم على أن يبعث اليها سفيرا من طرفه ليتضرع اليها فى طلب الصلح ولكن كانت تلك الدولة لا تبقى على احد ولا يعرف كنه اغراضها ولا حقيقة مآربها فكان ماصدر من الايمبراطور من انضرام نيران الحروب المدنية فى داخل دوله وممالكه قبل أن يقف على حقيقة مقاصد تلك الدولة بمعزل عن الحزم والتدبير

مطلب
طلب البابا انعقاد مشورة قسيسية عامة بمدينة ترنته ١٩ من شهر تشرين الثانى

وفى اثناء تلك الاحوال صدر من البابا بعد صلح كريسپى بقليل فرمان يتضمن الامر بعقد مشورة قسيسية عامة بمدينة ترنته فى اوائل فصل الربيع

(سنة ١٥٤٤)

وحرض فيه جميع ملوك النصارى وسائر الامراء على انتهاز فرصة الاطمئنان والامن الذى كان وقتئذ ببلاد اوروبا وحثهم على أنهم يستعينون بهذه الفرصة على محق دين المعتزلة الذى كان يخشى منه على اسرار دين النصرانية فاظهر الايمبراطور اولا الغم من اسراع البابا وعجلته بهذا الامر وأنه يلومه على ذلك خداعا منه ومكرا فانه عما قليل اقر عقد تلك المشورة القسيسية لانها ربما كانت تعينه على تنجيز مقاصده وتنفيذ اغراضه فعين من طرفه رسلا يحضرونها وامر جميع قسوس دوله وممالكه بالذهاب اليها فى الوقت المعين فى الفرمان

(سنة ١٥٤٥)

مطلب
انعقاد مشورة الدييتة بمدينة ورمس فى ٢٤ من شهر ادار

هكذا كانت مقاصد الايمبراطور حين افتتحت دييتة الايمبراطورية بمدينة ورمس بعد تأخيرها عدة مرات وكان المعتزلة مرخصا لهم فى دينهم وعقائدهم ولكن كان هذا الترخيص معلقا مؤجلا وسندهم فيه واهيا وهو الامر الصادر من مشورة الدييتة الاخيرة وكان للعمل بهذا الامر مدة معلومة مغياة بانعقاد المشورة القسيسية فلذا كان المعتزلة يودون أن يرخص لهم ترخيصا مطلقا غير مؤجل باجل حتى يأمنوا على بقاء انفسهم ودينهم ولكن لم يتعرض احد فى المشورة لما يكون به امنهم وطمأنينتهم بل عرض الملك فرديننذ على اربابها امرين احدهما استمرار الحرب مع الدولة العثمانية والثانى يخص امر الدين قائلا ان الامر الاول متحتم لا بد منه لان السلطان سليمان بعد أن فتح معظم بلاد المجار اخذ يستعد لشن الغارة على بلاد الاوستروسيا وان الايمبراطور الذى هو من مبدء حكمه يخاطر بنفسه فى مدافعة هذا السلطان الشديد البأس القوى الصولة لم يزل مصمما على دفعه عن ابناء النصرانية وحمايتهم منه حتى انه عدل بمحض اختياره عن الحرب مع فرانسا مع انه الغالب الظافر قاصدا معاهدة الملك فرنسيس ليتحزبا جميعا على هذا السلطان الذى هو اشد اعداء النصارى فبناء على ذلك يجب على جميع اهل الايمبراطورية الالمانية أن يعينوا رئيسهم ويساعدوه على سعيه فى تأييد دين النصرانية وحمايته من عصبة الاسلام بأن يمدوه بما هو محتاج اليه

فى تلك

(سنة ١٥٤٥)
مطلب
الحاح فرديننذ على اهل المانيا باقرار المشورة القسيسية والرضاء باحكامها

فى تلك الشدة واما المجادلات الدينية فقد اتسعت دائرتها حتى صار لا يرجى انهاؤها عاجلا وحيث ان الامبراطور قد بذل وسعه وألح على البابا حتى الزمه بالرضاء بعقد مشورة قسيسية عامة وكان المعتزلة وغيرهم يجدون فى طلب عقدها منذ زمن طويل وقد حان الوقت المعين لانعقادها وجب على الفريقين قاثوليقية ومعتزلة أن يرضوا باحكامها ويذعنوا لما يستقر عليه رأيها
فاستحسن من كان فى المشورة من القاثوليقية كلام فرديننذ واجابوا بأنهم يرضون بكل ماطلبه واما المعتزلة فلحقهم من ذلك غم شديد لما أنه مخالف لما حكم به فى شأنهم بمشورة الدييتة السابقة فدققوا فى أن المجادلات الدينية ينبغى أن يبدء بها فى المذاكرة لكونها من اهم الاغراض واجلها وأن بلاد المانيا وان كانت فى فزع ورعب من تقدم العساكر الاسلامية وظفرهم الا أن امر الدين يخص طائفتهم فلا يرضون أن يحاربوا ملة اجنبية ويدعوا نيران الفتن تضطرم فى داخل بلادهم وانهم ان حصل لهم ترخيص فى العمل بمذاهبهم كيف شاؤا وامنوا على انفسهم من جهة ديانتهم بذلوا غاية جهدهم كسائر اهل ألمانيا فى قتال اعداء دينهم ودفعهم عن بلاد النصارى واما اذا كان الخوف على النصارى من الدولة العثمانية شديدا بحيث لا يسوغ الالتفات الى غرض آخر فى هذا الوقت فيلزم التعجيل بعقد مشورة الدييتة لتبت امر المناقشات الدينية وتنهيها على سبيل الابرام ويلزم ايضا توضيح الامر الصادر فى هذا الشان من مشورة الدييتة الاولى وذلك أنه لما حصل الاتفاق فى مشورة الدييتة المنعقدة بمدينة سبيرة على أن المعتزلة يتعبدون بدينهم كيف شاؤا حتى تنعقد مشورة قسيسية عامة على حسب الاصول الصحيحة الشرعية وامر البابا بعقد مشورة قسيسية اخرى وايده الملك فرديننذ بالزامه لهم بالاذعان والطاعة داخلهم الوسواس والريبة وفهموا أن اخصامهم كانوا يحاولونهم فى بعض الفاظ مبهمة متشابهة من امر الدييتة حيث قالوا ان الترخيص لهم فى ديانتهم مؤجل باجل معلوم وهو افتتاح المشورة القسيسية فلاجل اجتناب هذا التأويل ناقضوا فى صحة كل مشورة قسيسية تنعقد خارج بلاد الامبراطورية

الالمانية بعض اوامر البابا و يجعل لنفسه الحق فى الرياسة عليها واظهروا أنهم لايقرون تلك المشورة وانهم الى الآن يعتبرون الامر الصادر من مشورة الدينة السابقة مطلقا محتما لايجرى العمل الا بمقتضاه وانهم لايعدلون عنه ابدا وكان الايمبراطور الى ذلك الوقت يرى أن مصلحته تقتضى مراعاة المعتزلة وانه يفعل معهم مايستميل به قلوبهم فكان يجيبهم الى مايطلبونه وان كان فى الظاهر غير معقول ولامقبول ولكن لما تغيرت مقاصده الزم اخاه الملك فرديند بأن لايتحوّل عما عرضه اوّلا وأن لايتساهل فى شئ يضرّ بشروط المشورة القسيسية او يمنع انعقادها وكان المعتزلة ايضا يشدّدون فى دعواهم كل التشديد فحصل التوقف الكلى من الفريقين ومكثا زمنا طويلا على العناد والشقاق حتى شوهد أن الصلح بينهما صار من قبيل المستحيل ولما برئ الايمبراطور من مرضه ذهب بنفسه الى مدينة ورمس ومع ذلك لم يكن لحضوره تأثير فى نفوس المعتزلة ولم يتساهلوا فى شئ مما طلبوه لانهم كانوا جازمين بأنهم على الدين الحق فالله مولاهم وناصرهم فكان الايمبراطور كلما اراد أن يستميل حزبهم بالتحيل والمداهنة او يزجرهم بالتخويف والتهديد لايزيدهم ذلك الا غضبا وجسارة مظهرين على رؤس الاشهاد أنهم لايعتنون بتزكية انفسهم وتأييد دعواهم فى مشورة متعصبة متحاملة حتى كأنها لم تنعقد للبحث عن المذاهب الدينية لتعرف صحيحها من فاسدها بل انما عقدت لمجرد زجرهم ومعاقبتهم وانهم لايقولون الا ببطلان تلك المشورة القسيسية لكونها منعقدة بامر البابا وهو لايجوز أن يكون حكما فيها لما أنه حكم عليهم من مبدء الامر بأنهم رافضة خارجون عن دين النصرانية وادعى لنفسه الحق فى الرياسة على تلك المشورة ليتمكن من اضرارهم و يعاقبهم بماشاء

وبينما كان المعتزلة يمتنعون من اقرار المشورة القسيسية المذكورة ولايرضون باعانة الايمبراطور فى حربه مع الدولة العثمانية اذ ظهر من بينهم موريس امير سكس وجنح الى الايمبراطور وعضد قوله وذلك انه وان كان فى الباطن لايميل الا الى دين المعتزلة وكان قائما بتعضيده وتأييده الا أنه رأى أن مصالحه

تقتضى

مطلب
حضور الايمبراطور فى مدينة ورمس

مطلب
سلوك موريس امير سكس فى مشورة الدينة

(سنة ١٥٤٥)

تقتضى أن يظهر خلاف ما يبطن فاخذ يوافق الايمبراطور فى اغراضه حتى استماله اليه بالكلية واستعان بمحبة الايمبراطور على تنفيذ اغراضه ومطامعه التى كان مصمما عليها ولكن لم يتأس به احد من المعتزلة ولم يكن لقوله تأثير فى قلب احد منهم حتى فهم الايمبراطور انه لا يمكنه أن يحصل منهم مددا يستعين به على الحرب مع الدولة العثمانية ولا أن يزيل ما قام بقلوبهم من الخوف والريبة منه فى شأن دينهم ولكن لما لم يكن دبر مقاصده واغراضه حق التدبير ولم تكن تجهيزاته كافية بحيث يمكنه قمعهم وادخالهم تحت الطاعة او يعاقبهم على ما ابدوه من المخالفة والعناد اخذ يخادعهم ثانيا حتى لا يقفوا على حقيقة قصده فامر أن تنعقد مشورة الدينية فى اول العام القابل بمدينة راتسبونة لاجل المفاوضة فى المسائل الخلافية وأن يكون ذلك بين بعض افراد من المعتزلة وآخرين من حزب الكنيسة القاثوليقية

مطلب
ارتياب المعتزلة من الايمبراطور

ولكن مع كون الايمبراطور بذل جهده فى مخادعة المعتزلة لم تخف عليهم مقاصده بل ادركوا أن ذلك منه مداهنة ومخادعة حيث لم يمكنه أن يوارى ما بضميره موارة تامة وذلك أن القونتة هرمان مطران كولونيا ومنتخبها كان لفضائله وحسن اخلاقه وكبر سنه ذا اعتبار ووقار وان كانت درجته فى العلم هينة كغيره من الاشراف الذين كانوا حينئذ مقلدين بالمناصب القسيسية والوظائف الدينية العالية فى بلاد ألمانيا فاتفق أنه آثر دين المعتزلة على دين الكنيسة الرومانية واعانه على ذلك فى اوائل سنة ١٥٤٣ كل من ميلنختون وبوسير المتقدم ذكرهما فاخذ ينسخ دين الكنيسة من ابرشيته ويدخل بها دين المعتزلة الا أن الرهبان الذين كانوا فى دائرته رأوا أن الدين الجديد لا يساعدهم لانه يحكم بالتساوى بين الناس قاطبة فهو مضر بمقامهم وثروتهم فناقضوا مطرانهم كل المناقضة لغرضين جسيمين احدهما خوف الاضرار بمصالحهم وثانيهما مزيد رغبتهم فى المحافظة على الدين القديم وبقاء اصوله لكونها تلايم اطماعهم ولكن لم تزد مناقضتهم المطران هرمان الا تصميما وعنادا حيث رأى فى مناقضتهم له ما يدل على فساد الدين القديم ويعود عليهم بالمصلحة

(سنة ١٠٤٥)

والمنفعة ولما رأى هؤلاء الرهبان أن مناقضتهم له لاتجدى نفعا رفعوا شكواهم الى الايمبراطور والبابا لان الاول كان حاكمهم السياسى والثانى كان حاكمهم الدينى فوصلت شكواهم الى الايمبراطور وهو بمدينة ورمس فادخلهم تحت حمايته وامرهم بأن يعاقبوا اشد العقاب كل من مال الى دين المعتزلة وعدل عن دين الكنيسة الرومانية ونهى المطران هرمان عن أن يحدث شيأ فى ابرشيته وامره أن يحضر الى مدينة بروكسيلة فى ظرف ثلاثين يوما ليجيب فيها عما اتهم به

ولم يكتف شرلكان بهذا الامر الذى استدل به المعتزلة على بغضه لهم بل اساء كل من كان يظن فيه أنه على دين لوتير من اهالى دوله الوراثية من مملكة البلاد الواطية وبمجرد حضوره الى مدينة ورمس نهى خطباء المعتزلة عن الخطابة بها بل وادخل فى كنيسته الخاصة به راهبا من رهبان ايطاليا صعد على منبرها وقدح فى الدين الجديد وقال فى حق الايمبراطور ان الله سبحانه وتعالى قد اجتباه واختاره لازالة الكفر ومحو دين المعتزلة الضالين وفى اثناء ذلك بعث الايمبراطور الى القسطنطينية سفراء بصدد الصلح كما تقدم ليسد باب الحرب مع الدولة العثمانية ويتفرغ بكليته الى تأييد الدين ورفع اعلامه المنكسة ولكن لم يخف على المعتزلة سلوكه ولا ما يترتب عليه من العواقب فكان كلما ازداد فزعهم وخوفهم من الايمبراطور ازداد تيقظهم واحتراسهم منه

مطلب
موت الدوق دورليان ابن ملك فرانسا

هذا وكان للايمبراطور دائما الحظ الاوفر على خصمه الملك فرنسيس فقد حصلت حادثة اخرجته من ورطة كبيرة كان لايمكنه أن يتخلص منها بمحض مهارته ونباهته وذلك أن الدوق دورليان عرضت له فى الزمن المعين لزواجه بينت الملك فرديننـد واخذه دوقية ميلان حمى خبيثة افضت به الى

٨ من شهر ايلول

الهلاك فكانت هذه الحادثة سببا فى تخلص الايمبراطور من وجوب اعطاء دوقية ميلان لخصمه اومن المعرة والخزى اذا هو امتنع من اعطائها حيث التزم بذلك وصار معلوما للخاص والعام فكان امتناعه عن الوفاء بما التزم به

يؤدى الى وقوع الحرب بينه وبين مملكة فرانسا ومع ذلك اظهر الغم والحزن لموت هذا الامير الذى لو بقى لكان بينهما نسب وصهر لكنه حاول أن لا يتفوه بشئ فى شأن دوقية ميلان ولم يرد تغيير شئ من مشارطة كريسپى مع أن الملك فرنسيس كان يلح عليه أن يعطيه شيأ فى نظير ماضاع منه من الفوائد بموت ولده ولو كانت مملكة فرانسا زاهية زاهرة كحالتها الاولى لاشهر فرنسيس الحرب مع الايمبراطور بمجرد امتناعه عن اجابته فيما طلبه منه لكن كانت صحته قد ضعفت كشوكته وثروة مملكته وكان مشغولا بمدافعة الانكليز عن بلاده فاضطر الى اخفاء حقده وصمم على الانتقام من الايمبراطور فى وقت آخر يساعده على ذلك وكان من جملة ما تضمنته مشارطة كريسپى أن دوق ساوة ترد اليه دوله بعد وفاء شروط الزواج المقررة فى تلك المشارطة فلما فات الزواج بموت الدوق دورليان خابت آمال هذا الدوق السيء الحظ ولم يترتب على مناقضة مملكة فرانسا فى هذا المعنى الا تجدد الحرب بين فرنسيس والايمبراطور

مطلب
اعطاء البابا دوقية برمة ودوقية بليزنسة لابنه

وقد سبق الى اذهان اهل عصبة سمالكالد أنه سيعقب موت الدوق دورليان منازعات بين الملك فرنسيس والايمبراطور وأنه يترتب على تلك المنازعات الحرب بينهما فيمكنهم مدة اشتغال الايمبراطور عنهم بغيرهم أن يتقووا و يوسعوا دائرة دينهم لكن لم يصادف ظنهم محلا كما لم يصيبوا ايضا فى ظنهم مثل ذلك حين حصلت حادثة اخرى ظنوا منها أنه سيترتب عليها الحرب بين الايمبراطور والبابا وهى أن البابا بولس لما كان دائما يسعى فيما تكون به ثروة عائلته ورفع شأنها قبل أن تضعف شوكة البابات و ينحط مقامهم حسبما كان يظهر له خاطر بنفسه واعطى ابنه بطرس لويز دوقية برمة ودوقية بليزنسة مع جزمه بأن الايمبراطور يغتاظ من ذلك ولا يقره ابدا ولم يكن بطرس لويز المذكور ولد البابا من نكاح شرعى وزيادة على ذلك كان قبيح السلوك منهمكا على المعاصى والمفاسد حتى كان يسخط عليه جميع من كان صالحا مستقيم الحال فتعجب الناس من ارتقائه الى هذا المنصب الجليل وجاب ذلك للبابا سخطا

(سنة ١٥٤٥)

العالم لاسيما وكان معظم اوروبا حينئذ يقدح فى قبح اخلاق القسوس ويشنع عليهم ويصفهم بالمفاسد والمآثم وتطلع المعتزلة من ذلك وعدوه مما يجب نسخه وازالته وكان بعض الكردينالات يميل الى الايمبراطور فناقضوا البابا فى هذا التصرف المنكر الذى يترتب عليه تشتيت اراضى الكنيسة واختلال نظامها ولم يرض ايلجى اسبانيا أن يحضر الجمع الحافل الذى عقد لتولية ابن البابا واما الايمبراطور شرلكان فابى اقرار حجة التولية متعللا بأن برمة وبليزنسة داخلتان فى ضمن دوقية ميلان ولكن لما كان هو والبابا ملتفتين كل الالتفات الى مصالح ألمانيا غلبا المصلحة العامة على مصلحتهما الخاصة واخفيا الحقد والبغضاء لبعضهما ليلتفتا الى ماهو اهم والزم

مطلب اضرام هنرى امير برونسويك نيران الحرب فى بلاد ألمانيا

وفى ذلك الوقت اغار الامير هنرى دوق برونسويك على بلاد ألمانيا فعكر هدوءها وراحتها وذلك أن هذا الامير كان قد حرم من بلاده حيث ضبط عليها الايمبراطور حتى يقع الصلح بينه وبين اهل عصبة سمالكالد ومع ذلك كان لم يزل معتبرا مهابا فى ألمانيا فوعد الملك فرنسيس أن يجمع له من بلاد ألمانيا طائفة كبيرة من العساكر ليستعين بها على الحرب مع الانكليز واعطاه فرنسيس من الاموال المبالغ المتفق عليها بينهما فجمع الامير هنرى العساكر ولكن لم يذهب بها الى فرانسا بل انقض بها على بلاده مؤملا استرجاعها قبل أن يصل اليه جيش يعوقه ويمنعه عنها فتحير اهل عصبة سمالكالد وكان الملك فرنسيس اكثر منهم تعجبا من هذه الحيلة التى تزرى بالامراء ولا تليق بمقامهم وجمع امير هيسة مع السرعة العجيبة ما امكنه جمعه من العساكر لصد عساكر هنرى واعانه عليه صهره الامير موريس واتاه مدد آخر من طرف الامير منتخب سكس فانتصر عدة مرات على هنرى وكان هنرى المذكور مع ماهو عليه من الجسارة والسرعة لدى المشروعات يعجز ويتردد عند تنجيزها فاضطر الى التسليم مع ابنه البكرى ووضع فى سجن ضيق حتى تغيرت الاحوال وخلى سبيله

وبنجاح

(سنة ١٥٤٥)

مطلب
نشر دين المعتزلة في اقليم بلاطينة المسمى عند اهل النمسا بيفالذ

وبنجاح امير هيسة في هذه الواقعة ازدادت شهرة المعتزلة ودخل دينهم في اقليم بلاطينة فقويت بذلك شوكتهم وعظمت صولتهم وذلك أن الامير فريدريق الذي حكم على هذا الاقليم بعد اخيه لويز كان الناس يظنون فيه أنه يميل الى دين المعتزلة فلما مات اخوه لويز وتولى حكومة الاقليم المذكور اظهر على رؤس الاشهاد أنه من حزب المعتزلة وأنه لا دين له سوى دينهم ولكن لما كان يؤمل أن مشاور الدينة والمذاكرات الطويلة التي كانت تحصل في شأن الدين ستجر الى ادخال دين المعتزلة في اقاليمه لم يرض أن يخاطر بنفسه ويسعى في نشر الدين الجديد في بلاده الا أنه سئمت نفسه من طول مدة الانتظار ولم ير في ذلك فائدة فاخذ يعضد دين المعتزلة ويبذل الجهد في تأييده لا سيما وكان رعاياه يلحون عليه بنشره في بلادهم لانهم باختلاطهم مع المعتزلة تمكنت من قلوبهم اصول الدين الجديد وعقائده وكانت حمية المعتزلة المتجاوزة الحد قد خمدت نيرانها وتناقصت عن حالها الاول ومع ذلك فانتشر الدين الجديد باقليم بلاطينة مع النظام التام حتى لم يحصل منه خلل اصلا ونسخت العبادة القديمة وخلفتها الجديدة بدون ظهور محنة ولا تعكير ومع ذلك كله فقد تأسى الامير فريدريق بالامير موريس حيث تباعد عن عصبة سمالكالد ولم يرض بالدخول في زمرتها

١٠ من شهر كانون الثاني

مطلب
انعقاد المشورة القسيسية بمدينة ترنتة

وقبل انتشار الدين الجديد في بلاطينة ببعض اسابيع افتتحت المشورة القسيسية بمدينة ترنتة مع الاحتفال والرونق المعتاد وكانت الدول القاثوليقية قد عولت على هذه المشورة وقصرت رجاءها عليها حتى انها من مبدء ظهور دين المعتزلة كانت تظن أن هذه المشورة هي اعظم واسطة في تعضيد دين الكنيسة وتأييده ولكن كان هناك اناس كثيرون يخشون أن لا يترتب على تلك المشورة فائدة للكنيسة لان الدواء اذا تأخر عن الداء صار الداء عضالا وقلما عادت عليه المعالجة بالنفع وكان قد مضى على دين المعتزلة ثمان وعشرون سنة وهو آخذ في الانتشار والازدياد حتى تمكن من قلوب العباد ومع أن البابا ذكر في الفرمان الاخير الذي صدر منه بعقد المشورة القسيسية أن اول مجلس لتلك المشورة

يكون فى شهر ادار كانت مقاصده مباينة لمقاصد الايمبراطور فمضت السنة تمامها تقريبا والمذاكرة على حالها لم تنقض وذلك أن الايمبراطور كان يخشى أن تشديد اوامر المشورة القسيسية ينفر نفوس المعتزلة و يحملهم على التأهب للمدافعة عن انفسهم وربما حملتهم شدة الحنق والغيظ على ايقاع فتنة كبيرة فبذل غاية جهده فى تأخير افتتاح تلك المشورة حتى يجهز ما يلزم من المواد والمهمات ليأمن من عصبة المعتزلة ان حصل منهم قيام وعصيان و يجبرهم على قبول الاوامر التى تصدر من تلك المشورة القسيسية واما البابا فانه بادر ببعث رسله الى مدينة ترنتة لتكون لهم الرياسة على المشورة نيابة عنه وخوفا من أن يكون عرضة للازدراء والاحتقار او يسيء الناس فيه الظن اذا هو لم يسع فى عقد المشورة القسيسية حيث كانت الكنيسة اذذاك عرضة للخطر وذلك يستدعى منه فرط الهمة ومزيد السعى فبناء على ذلك دقق فى أن تنقل المشورة القسيسية الى مدينة من مدائن ايطاليا اوتؤخر الى وقت آخر او تبدأ حالا فى المذاكرة بدون مهلة ولاتراخ فلم يرض الايمبراطور بالامرين الاولين لانه يترتب عليهما اغضاب اهل ألمانيا من قاتوليقية ومعتزلة ولما رأى أنه لا يمكنه المحاولة فى الامر الثالث امر بعقدها بشرط أن يبدأ فيها بالمذاكرة فيما يخص العقائد الدينية وكان ذلك اعظم ما يخشاه ديوان رومة حتى كان قصده من محاولاته فى ذلك انما هو منع البحث فى هذه المواد حيث كانت تخشى عواقبه *ومع أن البابا بولس كان دون اسلافه من البابات فى التدقيق والتشديد فى عقد المشورة القسيسية لم يكن اقل منهم غيرة على شوكته وصولته فرأى أنه ان بدئت المشورة بالمذاكرة فى هذه المواد تشفى فيه المعتزلة ورأى ايضا أنه اذا كانت المشورة القسيسية تجعل تلك المواد مطمح نظرها ولا تلتفت الى غيرها وأن قسوس الدرجة الثانية يتصرفون كيف شاؤا و يرتبون اصولا وقوانين يعمل بمقتضاها القسوس الذين هم اعلى منهم منصبا واعظم شوكة واقوى صولة اضر ذلك بالكنيسة كل الاضرار واوقعها هذا الامر فى المذلة والصغار فبناء على ذلك لم يصغ لقول الايمبراطور وافاد نوابه أنهم يفتحون المشورة فورا

(سنة ١٥٤٥)
١٨ من شهر كانون الثانى

فمضى اول مجلس منها فى بيان طرق المذاكرة وكيفية انعقاد المشورة وفى المجلس الثانى حصل الاتفاق على أن الاهم والالزم هو تحرير دفتر يشتمل على سائر العقائد التى تأمر الكنيسة باعتقادها والتصديق بها وأن يبحث عن الوسايط التى يترتب عليها تحسين اخلاق القسوس وحملهم على الاستقامة وحسن السلوك فبمجرد أن سمع المعتزلة ذلك من نوّاب البابا ورأوا أنهم نطقوا به على وجه يشعر بالتكبر والامر لا على وجه ابداء الرأى وأن اغلب ارباب المشورة قد اظهروا الانقياد والامتثال لقول هؤلاء النوّاب علموا ما سيصدر فى حقهم وما سيحكم به عليهم فى هذه المشورة وتعجبوا كل العجب حيث رأوا اربعين قسيسا من الاعيان (لانه لم يعهد مثل هذا القدر فى مشورة اخرى) يجعلون انفسهم نوّابا عن الكنيسة ويحكمون بطريق النيابة عنها فى المشكلات من العقائد الدينية بل لحق المشورة نفسها من الخزى والخجل من تلك الوقاحة وعدم الحشمة ما افضى بها الى البطئ والتراخى فى المذاكرة حتى مكثت مدة وهى بهذه المثابة وبمجرد ما بلغ عصبة سمالكالد افتتاح تلك المشورة نشروا تقريرا جديدا يشتمل على تظلمهم وتشكيهم من انعقادها وعلى الاسباب الحاملة لهم على عدم اقرارها والرضاء باحكامها ومع ذلك كان كل من الايمبراطور والبابا لا يأمر بالاسراع فى المذاكرات حتى ظهر أنهما مشغولان بمصلحة اهم من ذلك واعظم

مطلب اعمال المشورة القسيسية

مطلب خوف المعتزلة

ولكن كان المعتزلة لا يمكنهم ان يغفلوا عن حركات الايمبراطور والبابا واطوارهما بل كانوا يرتابون من ذلك وتزايدت بهم الوساوس والاوهام بما كان يبلغهم من سائر الجهات من اخبار العصب التى كانت تدبر فى شأنهم فقد اخبرهم ملك انكلترة بأن الايمبراطور مصمم منذ مدة طويلة على محق دينهم وابطال عقائدهم ولا شك أنه فى هذا الوقت ينجز ذلك الغرض لان بلاد ألمانيا فى صلح وامن خالية عن الفتن والتكديرات فليس له فرصة فى هذا المعنى اعظم من ذلك* وكذا تجار مدينة اوكسبورغ التى كانت حينئذ من أعظم المدائن التجارية اخبرهم مراسلوهم الذين كانوا ببلاد ايطاليا وكانوا يميلون باطنا

(سنة ١٠٤٥)

الى دين المعتزلة بأن الايمبراطور والبابا قد تعصبا مع بعضهما على المعتزلة عصبة خطرة وبلغهم ايضا من مملكة البلاد الواطية أن الايمبراطور قد أمر بجمع عساكر منها ومن غيرها من دوله لكن مع الاحتراس التام فى اخفاء هذا الامر فكمل ذلك قوى الريبة والوسواس فى نفوس المعتزلة حتى جزموا بأن الايمبراطور قد نوى لهم نية سيئة وداخلهم الرعب والفزع فاجتمع وكلاء عصبة سمالكالد بمدينة فرنكفورت واخبر بعضهم بعضا بما عنده حتى تيقنوا أنهم صاروا عرضة للاهوال والاخطار ولكنهم لم يكونوا فى الالتئام والاتحاد مع بعضهم بقدر ما كانت تقتضيه الاحوال اذ ذاك ولا ما تستلزمه التجهيزات الجسيمة التى كان اعداؤهم يتأهبون بها فان تلك العصبة وان كانت موجودة منذ عشر سنوات الا أن اراضى اغلب الامراء الذين كانوا من اربابها كانت متداخلة فى بعضها وكانت العائلات متزوجة من بعضها وكان بين تلك البلاد معاملات ومخالطات كثيرة فاوجب ذلك أن صارت كل بلدة تدعى على الاخرى وكل امير يدعى على الآخر وكل عائلة تريد اثبات حقها على الاخرى وحصل الشقاق والتنافس بينهم فكان بعضهم يميل مثلا الى دوق برونسويك ويلوم حاكم هيسة على اساءته لهذا الدوق القليل الحزم والحظ ومعاملته له بالقسوة والصعوبة وكان بعضهم يتهم كلا من الامير منتخب سكس والامير حاكم هيسة رئيسى العصبة بأنهما لاسرافهما وعدم تدبيرهما قد اوقعا المتعصبين فيما انفقت به اموال كثيرة ومبالغ جسيمة بلا فائدة وكان هذان الاميران العظيمان لقوة شوكتهما وصولتهما يحكمان على العصبة ويتصرفان فيها بما ارادا ولكن كانت مقاصدهما متباينة واغراضهما مختلفة حتى فترت همتهما حين كانت الاحوال تقتضى مزيد الالتفات والتيقظ * اما حاكم هيسة فكان مع جسارته وعدم اكتراثه بالاهوال واقتحام الاخطار لا تنسيه غيرته الدينية مصالحه الخصوصية واغراضه السياسية فقال ان اعظم واسطة تقى المعتزلة مما هم عرضة له من الاخطار هو سعيهم فى الدخول تحت حماية ملك فرانسا وملك انكلترة اومعاهدتهم مع اقاليم المعتزلة من بلاد السويسة

مطلب
مذاكرة المعتزلة

فانها

(سنة ١٥٤٥)

فانها تعينهم كل الاعانة واما منتخب سكس الذى كان اعظم اهل ذلك العصر عدلا واستقامة فكان لا يعجز عن الحكم مع الحزم والحذق فى اوقات خالية عن الفتن والتعكيرات الا أنه كان شديد التولع بدين لوتير حتى حمله ذلك على بغض من كان يشك ولو فى عقيدة واحدة من عقائد هذا الدين فأفضت به غيرته وحميته على الدين الجديد أن صار لا تسعه المدافعة عنه فى اوقات الفتن والتعكيرات وكان يعتقد أن امور الدين تقتضى اصولا وقواعد مغايرة لاصول السياسة فضل بتعويله على آراء لوتير الذى كان لا معرفة له بالاصول السياسية بل كان يحتقرها ولا يعبأ بها فلذا كان هذا الامير شديد العناد وطال لجوج عناده الى الاضرار بحزب المعتزلة ولما كان بهذه الصفة ابى أن يدخل فى المعاهدة مع الملك فرنسيس متعللا بأنه كان يجحف بحزب المعتزلة الذى هو على الحق وابى ايضا أن يتعاهد مع ملك انكلترة حيث كان يرى أنه اشد كفرا وضلالا من البابا وامتنع من معاهدة اهل السويسة لانهم كانوا يخالفونه فى بعض عقائد من دين المعتزلة كان يراها صحيحة لا بد للدين منها ولا تخفى عاقبة اختلاف هذين الاميرين وتباين آرائهما فى مثل هذا الغرض المهم فان كلا منهما كان يلوم الآخر ويشنع عليه سرا * أما حاكم هيسة فكان يرى أن عقل منتخب سكس ضيق قاصر قد استولت عليه الاوهام الفاسدة والعقائد الكاسدة وهذا لا يليق بامير كان صدر حزب المعتزلة ورئيس عصبتهم واما منتخب سكس فكان يتهمه بالتساهل وان له اغراضا مبنية على الطمع لا تليق بهذا الغرض المحترم المتعلق بامر الدين الذى تصديا لتعضيده وتأييده ومع أن تدقيق منتخب سكس منع من انتهاز الفرصة فى الاستعانة بالاجانب وكذلك ما كان بين الامراء من الغيرة والمنافسة منع من ضرب اجل آخر للعصبة لان اجلها المعين كان قد قارب التمام اجمع اهل تلك العصبة لما قام بهم من الفزع على امور اخرى يحترسون بها فاتفقت كلمتهم على أن لا يقروا انعقاد المشورة بمدينة ترنتة ولا يرضوا باضرار مطران كولونيا فى نظير كونه اراد ادخال الدين الجديد فى ابرشيته

(سنة ١٥٤٦)

مطلب
مداولات المعتزلة مع الايمبراطور

ولما اراد حاكم هيسة أن يقف على حقيقة مقاصد الايمبراطور وكان يعلم أن الامير غرانويل لا تخفى عليه تلك المقاصد كتب اليه يفيده عن بعض حوادث اوقعت الشك والريبة فى قلوب المعتزلة من الايمبراطور وطلب منه أن يخبره بحقيقة الحال حتى يعلم المعتزلة مالهم وما عليهم فأجابه غرانويل بأن ما بلغ المعتزلة فى شأن تجهيزات الايمبراطور لا يخلو عن مبالغة وأن فزعهم لم يصادف محلا وانما الواقع أن الايمبراطور لمجرد قصد حفظ ضواحى ممالكه وانها من تعدى مملكة فرانسا ومملكة انكلترة صدرت منه اوامر بجمع عساكر قليلة من مملكة البلاد الواطية وهو لا يود الا بقاء الصلح والامن فى بلاد ألمانيا

ولكن لم تكن حالة الايمبراطور موافقة لهذا الخبر لانه عوضا عن أن ينتخب اناسا مشهورين بحسن الاخلاق وطيب النفس للمدافعة عن الدين القاثوليقى فى المذاكرة التى انحط الرأى عليها انتخب اناسا تولعهم بدين القاثوليقية اكبر من تولع منتخب سكس بدين المعتزلة فحصل اليأس والقنوط من امكان الاصلاح بين الفريقين وذلك أنه تكفل بتأييد الدين القاثوليقى قسيس من قسوس اسبانيا يقال له مالوانده فدافع عنه سالكا فى ذلك مسلك العلماء المتفلسفين الذين من دأبهم التدقيق فى المحاورات والمناظرات لاجل افحام الخصم لا لاظهار الحق فغضب المعتزلة من مشاغبته وسفسطائيته وتظلموا من عدم انصاف القوانين التى امر الايمبراطور بالعمل بمقتضاها فى هذه المذاكرة وتركوا المجلس وفسخوا المشورة على وجه خشنى جازمين بأن الايمبراطور لم يقصد الاتحاد عنهم ومشاغلتهم حتى يتسع معه الوقت ويدبر أمره كيف شاء

انتهت المقالة السابعة

المقالة الثامنة

من اتحاف ملوك الزمان * بتاريخ الايمبراطور شرلكان

مطلب
موت لوتير

وبينما كانت الاخطار تزداد بتداول الايام حتى اشرفت النكبات أن تنال المعتزلة اذ اخترمت المنية لوتير واستراح من رؤية تلك الشدائد والنكبات المفزعة

(سنة ١٥٤٦)

وذلك أنه كان ضعيف الصحة و بلغه وقوع فتنة فى مدينه ايسلبان التى هى اصل غرسه ومسقط رأسه فتوجه اليها فى شدّة القرّ والبرد قاصدا اطفاء نيران هذه الفتنة وكانت بين قونتات مانسفيلد فاصيب بالتهاب شديد فى الامعاء افضى به الى الموت بعد ايام قليلة فى السنة الثالثة والستين من عمره

١٨ من شهر شباط

ولما كان قد اعدّه الله سبحانه وتعالى لتنجيز حادثة من اعجب الحوادث التى نقلها الينا التاريخ اختلفت آراء معتدى مناقبه قدحا ومدحا اختلافا لم يقع لاحد قبله وذلك لاضطراب آراء اهل عصره فى شأنه فكان بعضهم لشدّة غضبهم منه لكونه تجاسر على نسخ جميع ما كانوا يودّون بقاءه لاوهامهم الباطلة اولمصالحهم الخصوصية و يعدّونه من الاركان المقدّسة التى لا يجوز هتك حرمتها يصفونه بأنه جامع بين فواحش الانسان وخبائث الشيطان وكان بعضهم يحبه و يثنى عليه و يقول انه مصباح الدين ورافع اعلام حرّيته و ينسب اليه من الفضائل ما هو فوق طاقة البشر حتى كان يعتبر جميع افعاله ويحترمها الاحترام الذى لا يحظى به الا الانبياء والاصفياء ولكن لا ينبغى لاهل هذا العصر من الافرنج أن يحكموا عليه بموجب قدح معاصريه اومدحهم فان ذلك لا يخلو عن مبالغة بل الحكم عليه بموجب سلوكه وافعاله فيقال ان لوتير كان له تولع كبير بما وقع فى ذهنه أنه الحق فنشره مع الهمة العجيبة ودافع عنه مع الحدّة والمهارة التى كانت فيه بالطبع اواكتسبها من مطالعة الكتب العلمية وكان لا يكل ولا يمل من تأييد مايعتقد أنه الحق وتعضيده وكان فى هذه الصفات على اعلى درجة حتى ان اعداءه لم يمكنهم منازعته فيها و يزاد على ذلك انه كان مهذب الاخلاق

مطلب
طبع لوتير

وكان يسلك مسلك التقشف والتعفف الذى يليق بامثاله من المشرّعين المتصدّين لازالة المفاسد والمآثم وكانت معيشته تلايم مذهبه وتدينه ولتنزهه عن الاغراض وتسويته بين الناس كان لا يشك احد فى حسن نيته وصفاء باطنه وخلوص طويته و بالجملة فكان لا يعتنى بمصالحه الخصوصية بل يحتقر الرفاهيه وانواع الزينة والملاذ فترك المناصب والوظائف الدينية وتنزه عن الايرادات القسيسية لاحزابه واتباعه واكتفى بوظيفته الاولى وهى وظيفة الوعظ بمدينة

ويتانبرغ حيث كان موظفا بالتدريس فى مدرستها واكتفى بالماهية القليلة
التى كانت مرتبة لهذه الوظيفة غير أن هذه الصفات العجيبة كانت مشوبة ببعض
مثالب لا يسلم منها النوع البشرى وان كانت لا تدل على خبث نفسه ولا سوء
سريرته لانها ناشئة عن افراطه فى الفضائل وحميد الخصال افراطا تجاوز فيه
الحد وذلك أنه بالطبع كانت له حمية شديدة فكان اذا حصل مقتضيها
فى مقصد جسيم او مشروع عظيم تخرجه عن اطواره وتورثه شدة عجيبة وقوة
غريبة تتعجب منها العقول الضعيفة وتستغربها النفوس التى ليست بالهمة
موصوفة ويفزع منها كل من لم تلحقه نكبات الدهر وخطوبه ويجزع منها من
لم تلم به صروف الزمان وكروبه فقد كانت بعض صفاته المحمودة تتجاوز حدودها
فتفضى به الى ارتكاب ما يلام به عليه حيث كان تيقنه وجزمه بصحة آرائه
واصول مذهبه يجره الى التكبر والازدراء بغيره وكان اهتمامه بتقديم هذه الاراء
وتوسيع دائرتها انما هو مخاطرة ومجازفة وكان تثبته فى تأييدها ليس الاعنادا
ومخالفة ولم تكن حميته فى افحام اخصامه الاجنونا يترتب عليه مسبات شنيعة
وانتقاصات خشنية فظيعة ولما كان طبعه ترجيح ما يرى أنه الحق على الباطل
واحترامه غاية الاحترام كان يلزم غيره بأن يحترمه مثله ولا يلتفت الى قصور
عقول الناس ولا الى ما هو متمكن فى نفوسهم من العقائد الباطلة والاوهام
العاطلة فكان يحتقر من لا يعتقد اعتقاده ويقدح فيه ويشنع عليه واذا
تعرض احد من اخصامه للقدح فى مذهبه اساءه ولم يوقره غير ملتفت الى كونه
خطيرا او حقيرا ولا الى كونه من ذوى الفضل او غيرهم الا ترى مسبته لملك
انكلترة والعالم اراسم بما سب به من دونهما وهو تتزيل واكسيوس
ولكن لا ينبغى أن يقتصر على نسبة تلك الاساآت والمسبات الى مجرد حميته وحدة
طبعه بل ينسب ذلك ايضا من بعض الوجوه الى فساد اهل عصره وجهالتهم
فان الناس كانوا حينئذ خشنين لا معرفة لهم بالاصول التى تمنعهم عن شهواتهم
وتردعهم عن اهوائهم فتحسن بها الجمعيات البشرية وتكتسب بها التزين بزينة
الانس واللطافة فكانوا فى مقام المجادلة تبلغ بهم الحمية منتهاها الان ما يقوم

بانفسهم

بانفسهم الخشنية تفصح عنه السنتهم بما هي متعودة عليه من عدم الرقة والملاطفة وكانت حينئذ جميع تآليف العلماء باللغة اللاطينية وكانوا يستهزؤن فيها باخصامهم استهزاء فاحشا ويشنعون عليهم اقطع تشنيع فاقتدى بهم فى ذلك لوتير وغيره الآن الاساءة بلغة مهجورة كهذه اللغة يظهر أنها اقل فحشا مما اذا كانت باللغات المشهورة المستعملة لان الفاظ تلك اللغات لتداولها بين الناس وكونها مطروقة على السنتهم تظهر بها الاساءة الفحش واشنع مما اذا كانت بالفاظ اللغات المهجورة

واذا اردت الوقوف على طبيعة انسان فاحكم عليه بما تقتضيه اصول عصره واحكام زمنه لان الفضائل والرذائل وان كانت لا تتغير بتداول الازمان الآن الاخلاق والعوايد يلحقها التغيير والتبديل فما يظهر لنا الآن مذموما فى افعال لوتير لم يكن بهذا الوصف عند اهل عصره بل حصل أن بعض الافراطات التى نلومه عليها الآن قد اعانه على تنجيز مشروعاته ومقاصده فكان لا بدّ من شدّة الحمية وفرط الجسارة فى ايقاظ هؤلاء الناس اذ الذين غفلات الجهالة ونشلهم من اوحال الاوهام واما اللين والرفق فكانا لا يؤثران شيأ فى تلك النفوس الابية فلو كان هنالك من هو اكثر فقاما من لوتير واقل منه حمية لخشى أن يخاطر بنفسه ويعرّضها للهلاك فيما اقتحمه لوتير من الاخطار وظفر فيه بمرامه وفى اواخر عمره لم تفتر همته ولم تنقص معارفه بسبب ضعف صحته بل ازدادت حميته واشتدّت غيرته وصار اقرب للغم والغضب ولا يجد فى نفسه صبرا عند المجادلات وقد حظى بنجاح حميته حيث رأى انتشار دينه واتساع دائرة مذهبه فى جزء عظيم من بلاد اوروبا ورأى تزلزل اساس شوكة البابات واضطراب صولتهم ولم يسلم من العجب والكبر بسبب اظهار بعض ما قام بنفسه ولولا ذلك لخرج عن دائرة البشر لما نجزه من المشروعات الجسيمة والمقاصد العظيمة

وقبل موته بمدّة احس بانحطاط قواه وتناقص صحته وضعف بنيته لانه مع كثرة مصالحه كان مشغولا آناء الليل واطراف النهار باداء وظائفه ولما قاساه مدّة عزلته

(سنة ١٥٤٦)

وخلوته من التعب فى التأليف حتى بلغت مؤلفاته مجلدات ضخمة ولما قربت وفاته لم يزل على عزمه المعتاد فكان يتحدث مع احبابه واصحابه فى شأن السعادة الابدية المدخرة لاهل الحق والعدل فى الدار الاخرة وبعد أن تضرع الى الله سبحانه وتعالى أن يجعل له حظا فى تلك السعادة شهق شهقة فارق بها الحياة وفرح القاثوليقية كل الفرح حين بلغهم خبر موته وفترت همة احزابه لان كلا من المعتزلة والقاثوليقية كان لا يظن أن الدين الجديد قد تمكن حتى يمكن بقاؤه بعد فقد من وضع اساسه وقد صنع له منتخب سكس جنازة غريبة ذات ابهة واحتفال واعقب لوتير عدة اولاد من زوجته كاترينة بورة التى عاشت بعده وفى اواخر القرن الاخير كان يوجد ببلاد سكس من ذريته من هو مقلد ببعض الوظائف السامية والمناصب الجليلة العالية

مطلب
سعى الايمبراطور فى مخادعة المعتزلة

ثم ان الايمبراطور لم يزل على منهجه القديم من خداع المعتزلة ومحاولتهم فكان يداهنهم ليزيل ما فى قلوبهم من الرعب والخوف ولاجل اتقان المخادعة والمداهنة اختلى مع حاكم هيسة وكان اشهر عصبة المعتزلة واشدهم احتراسا من الايمبراطور فلما اجتمعا فى الخلوة افاده الايمبراطور أن آماله متعلقة بتحصيل السعادة والراحة لبلاد ألمانيا وأنه يبغض سلوك مسالك الشدة والعنف وان وأنه لم يعقد عصبة لاضرار المعتزلة ولم يجهز تجهيزات توجب رعبهم وفزعهم واكد ذلك حتى ان حاكم هيسة خرج من عنده وهو على غاية من الامن والاطمئنان فترتب على هذه الحيلة ما كانت آمال الايمبراطور متعلقة به وذلك أن حاكم هيسة بعد هذه المقابلة التى حصلت بينهما بمدينة سبيرة توجه فورا الى مدينة ورمس وكان ارباب عصبة سمالكالد مجتمعين بها فبالغ لهم فى حسن مقاصد الايمبراطور وحكى لهم ما شاهده منه فرأوا أنه لا فائدة فى التعجيل بالاحتراس من خطر بعيد الوقوع او وهى لا حقيقة له وسبب ذلك أن دأب اهل ألمانيا وطبيعتهم التوانى وفتور الهمة او أن عقولهم غلب عليها البطؤ والتردد الذى لا تسلم منه المشاور والجمعيات الكبيرة لدى المفاوضة والمذاكرة

٢٨ من شهر ادار

ولكن

(سنة ١٥٤٦)

مطلب
ما حكمت به الجمعية القسيسية فى شأن المعتزلة

٨ من شهر نيسان

١٦ من شهر نيسان

ولكن عما قليل حصلت حوادث جديدة ازالت اعتقاد المعتزلة فى صحة مواعيد الامبراطور وذلك أن المشورة القسيسية المنعقدة فى ترنته مع أنه لم يكن فيها الا عدد قليل من قسوس ايطاليا واسبانيا ولم يحضرها احد من رسل المعتزلة ارادت لحزبها من مكثها زمنا طويلا بلا بدون تحيز شئ أن تنهى بعض مسائل مهمة فامتحنت اولا الغرض من المنازعة والشقاق بين الكنيسة وحرب المعتزلة وحكمت برأيها التى تعبر عنه بأنه المنزه عن الخطأ والزلل أن الكتب الدينية التى كانت محكوما عليها الى ذلك الوقت بانها منكرة ولا تقرها الكنيسة تكون من الآن فصاعدا معتبرة معمولا بها كسائر كتب العهد القديم والجديد المعتبرة دستور العمل فى زمن بنى اسرائيل واوائل النصرانية وأن الروايات المحفوظة فى الكنيسة المأثورة من عصر الحواريين تكون ايضا معتبرة محترمة كتآليف المصنفين من القديسين وأن الكتاب المسمى وولغاتة وهو ترجمة الكتب المقدسة باللغة اللاطينية للقديس جيروم يجرى عليه العمل فى سائر الكنائس والمدارس ويكون الاعتماد عليه والرجوع اليه وأنه صحيح الترجمة محرر العبارة ودعوا باللعنة على من يناقض فى صحة ما حكموا بصحته فلما رأى المعتزلة أن هذا الحكم يضر بدينهم علموا ما ستحكم عليهم به تلك المشورة حين ترى لذلك فرصة وتمتحن عقائدهم تفصيلا

وكما اسرعت تلك المشورة فى الحكم بخطأ عقائد المعتزلة اسرع البابا بعقاب من كان يعتقدها ويعمل بها وذلك أن رهبان كولونيا رفعوا شكواهم فى مطرانهم الى ديوان رومة فاتخذ البابا ذلك وسيلة فى اظهار بطشه وصولته ليرى قسوس ألمانيا أن مقاومة الكنيسة الرومانية انما هى غرور ومخاطرة فلما مضت المدة المعلومة ولم يحضر المطران ولا من ينوب عنه حكم عليه بأنه من المعتزلة الخوارج وصدر منه فرمان بكفر هذا المطران وحرمانه من نعم الكنيسة وعزله عن مناصبه القسيسية ومعافاة رعاياه مما يجب له عليهم من الاذعان والطاعة من حيث كونه حاكمهم السياسى وكان هذا الفرمان مبنيا على أن المطران المذكور قد استحق هذا الحكم لكونه تصدى لمحاماة دين لو تير

والانتصار له ومع ما كان يبذله البابا من الجهد فى المدافعة عن حقوق الكنيسة والاذلال من تجاسر على هتك حرمتها لم يعتقد المعتزلة أنه قد تجاسر من تلقاء نفسه على فعله ذلك بهذا المطران الذى هو ملك عدة دول ومعدود من منتخبى الايمبراطورية بل جزموا بأنه معوّل فى ذلك على ذى شوكة قوية حتى تجاسر ونفذ اوامره فى هذا المعنى وغضبوا اكل الغضب من هذا الفرمان ورأوا أنه دليل على خبث طوية البابا والايمبراطور فى حق حزبهم وجماعتهم

مطلب بدء الايمبراطور فى اظهار عداوته للمعتزلة

وقد ازدادت حميتهم بما ظهر لهم من أن الايمبراطور كان يسلك معهم سبل المخادعة والمداهنة وقد رأى الايمبراطور ايضا أنه يلزم كشف المخبأ واظهار مقاصده ولما لم يكن مستعدا حق الاستعداد بما يلزم لتنجيز اغراضه صار يحاول ويخادع حتى اتسع معه الوقت واخذ اهبته وكان البابا بحكمه على منتخب كولونيا وبالاوامر الصادرة من المشورة القسيسية قد غير احوال المصالح حتى كان لابد من وقوع التفاقم والشقاق بين المعتزلة والايمبراطور فبناء على ذلك لم يبق للايمبراطور الا أن يفعل احد امرين اما أن يناقض الكنيسة الرومانية فى الاحكام الصادرة عنها او يقوم بتعضيدها وتأييد دين القاثوليقية على دين المعتزلة ولكن لم يكتف البابا بكون هذه الافعال قد الزمت الايمبراطور باظهار

مطلب مداولات الايمبراطور مع البابا

مقاصده بل اخذ يلح عليه باضرار المعتزلة وتدميرهم ووعده أنه يساعده بكل واسطة تعينه على النجاح والظفر بهم فانظر الى البابا كيف افضت به حميته الشديدة الى نسيان قاعدة سياسية من قواعد الكنيسة وهى منع الشوكة الايمبراطورية عن أن تتعدى حدودها وأنه لقصد محق المعتزلة اتخذ له سيدا عاد عليه وعلى سائر بلاد ايطاليا بالضرر

مطلب المهادنة المنعقدة بين الايمبراطور والسلطان سليمان

وكان الايمبراطور حينئذ لا يخشى أن تفسد عليه الدولة العثمانية مقاصده وتعوقه عن تنجيزها لان المداولات كانت لم تزل مستمرة بينه و بين هذه الدولة منذ انعقد صلح كريسپى وكانت تلك المداولات قريبة الانتهاء على احسن حال وكان ملك فرانسا يريد انقاذ نفسه مما وعد به الايمبراطور من الانضمام معه لقتال السلطان الذى كان حليفه من قبل وذلك أنه لما كان انضمامه الى الايمبراطور

(سنة ١٥٤٦)

لقتال السلطان الذى كان حليفه من قبل وذلك أنه لما كان انضمامه الى الامبراطور لقتال هذا السلطان ممايزرى به ويخدش عرضه بذل جهده فى ايقاع الصلح بين السلطان والامبراطور فرضى السلطان بمهادنة خمس سنوات رعاية لخاطر فرنسيس لاسيما وكان الاهم له اذذاك تحويل قواه الى محاربة العجم لانهم كانوا يحاولون الهجوم على دوله وكان البند الاصلى فى مشارطة هذه الهدنة هو أن كلا من الفريقين يبقى مستوليا على ماهو تحت يده من بلاد المجار والتزم فرديننـد أن يدفع للسلطان كل سنة خمسين الف ايكو على سبيل الجزية

مطلب
استمالة الامبراطور للامير موريس وغيره من اعيان امراء المانيا

ولكن كان الامبراطور يعتمد كل الاعتماد على الامداد الذى كان يرجوه من بلاد ألمانيا لانه كان يعلم أن الجمعية الجرمانية لكبرها واتساع بلادها يتعذر عليه قمعها وقهرها اذا اتحدت والتأمت مع بعضها فلا يمكنه أن يدخلها تحت الطاعة الا اذا اوقع الشقاق بين اهلها وسلط بعضهم على بعض ولوفور حظه كانت الروابط حينئذ بين اعضاء هذه الجمعية ضعيفة واهية فكانت اجزاؤها تحاول الانفصال عن بعضها حتى كان من المستحيل أن تنضم الى بعضها لتنجيز غرض مهم اومشروع جسيم لتراكم اسباب التفاقم والشقاق وتكاثرها بينهم وذلك أن القاثوليقية الرومانيين لما رأوا أن اعلام دينهم قد تنكست فى عدة اقاليم ورأوا أنه صار قريب الزوال فى عدة اقاليم اخرى قامت بهم حمية عجيبة حتى ظهر عليهم أنهم مستعدون لان يبذلوا جهدهم فى اعانة من يهم بتدمير المعتزلة ويسعى فى محو دينهم وكان قد اشتد الغضب بالامير حنادوبرانديورغ والامير ألبيرت دوبرانديوغ وغيرهما من امراء ألمانيا لما صنعه اهل عصبة سمالكالد مع الامير دوق دوبرونسويك فكانوا جميعا ينتظرون مع القلق التام فرصة تعينهم على اخراجه من السجن والانتقام له من اعدائه وكان الامبراطور شرلكان يزداد فرحا كلما ازدادوا عداوة فلما رأى أنهم صاروا مستعدين لقبول مايعرضه عليهم ظن أن الاوفق به تسكين غضبهم واخماد نيران حميتهم لااضرامها

(سنة ١٥٤٦)
مطلب
انعقاد مشورة الدينة بمدينة راتسبونة

فهكذا كانت حالة المصالح واحتراس الايمبراطور من جميع الحوادث حين افتتحت مشورة الدينة بمدينة راتسبونة وقد حضر فى هذه المشورة اغلب اعضائها من القاثوليقية بانفسهم واما ارباب عصبة سمالكالد فارسل عدة منهم اليها نوابا متعللين بأنه لا يمكنهم تحمل المصاريف فى هذه المشاور التى لا فائدة فيها * ولكن السبب الحقيقى الذى منعهم عن الحضور بها انما هو ارتيابهم من الايمبراطور وخوفهم من أن يحصل لهم فيها الزام واكراه على اقرار ما يعرض على ارباب المشورة ومع ذلك فقد افتتح الايمبرطور المذاكرة فيها بخطبة سلك فيها مسالك الخداع والتحيل والمكر وذلك أنه اتى فيها بالفاظ مجملة مبهمة توهم رغبته فى تحصيل سعادة الجمعية الجرمانية وأنه لغرض نشر الامن والاطمئنان بها ترك مصالحه التى تخص نفسه وابى أن يقبل قول رعاياه من الاسبانيول وغيرهم فى الحاحهم عليه بالاقامة عندهم والمكث فى بلادهم ثم قال مع الحماسة والغضب انه قد تخلف جماعة من اعضاء المشورة عن الحضور بها مع حسن نيتى وطيب سريرتى وقد حضرت فيها بنفسى وتركت مصالحى الخصوصية ثم تكلم فى شأن المصائب الحالة بالناس بسبب ما وقع بينهم فى الدين من النزاع والشقاق وتشكى من كون ما بذله من الجهد فى تسكين هذه الفتن قد ذهب سدى وصار عديم الجدوى وتشكى ايضا من خروج المعتزلة مغضبين من المذاكرة الاخيرة وختم الخطبة بطلبه من ارباب المشورة أن يتذاكروا و يبدوا آراءهم بما يكون به ازالة هذا النزاع الواقع فى الدين ببلاد ألمانيا وما يكون به ايقاع الالفة والاتفاق بين عقول الالمانيين فى العقائد والاصول الدينية حتى تصير العقيدة عند الجميع واحدة ويكونوا على سنن آبائهم واسلافهم حيث كانوا يرون أن هذا الاتحاد يعود بالنفع على مصالحهم السياسية حسبما يقتضيه دين النصرانية الذى كانوا يتدينون به و يعملون بمقتضاه

فبهذه الطريقة الخداعية التى سلكها الايمبراطور فى طلب آراء ارباب المشورة عوضا عن أن يلزمهم برأيه ترآى من حاله أنه على غاية من التواضع فحاول بذلك

(سنة ١٥٤٦)

أن يعرب عما فى ضميره مظهرا أنه لا يثبت لنفسه حقا سوى كونه ينجز ما يحكم به ارباب تلك المشورة لكنه لم يظهر الاذعان لما تحط عليه آراؤهم الا لجزمه بأنها تلايم اغراضه ومقاصده اتم الملايمة فاجابه القاثوليقية لحميتهم على دينهم اولما يعهدونه فيه من الاعانة لحزبهم بأن المشورة القسيسية المنعقدة فى ترنتة ستحل كل اشكال من المسائل الخلافية وأن كل نصرانى يجب عليه أن يذعن اليها ويمتثل لاوامرها من جهة كونها احكاما دينية منزهة عن الخطأ والزلل ثم ترجوا الامبراطور أن يستعمل ما انعم الله به عليه من الصولة وعظيم السطوة فى حماية هذه المشورة وحمل المعتزلة على الاذعان لما تحكم به هذا وقد قدم المعتزلة تقريرا ذكروا فيه مناقضتهم فى شأن مشورة ترنتة ثم ذكروا أنه لا سبيل الى انهاء المنازعات والمجادلات الا اذا انعقد فى ألمانيا مشورة قسيسية اوملية وحضر بها مقدار معلوم من قسوس الفريقين ليبحثوا فى المسائل الخلافية ويحكموا فيها كما يرون ثم ذكروا أن عدة من مشاور الديتة قد ساعدتهم فى هذه الامور حين عرضوها عليها حتى املوا أن المنازعات سيكون انهاؤها على احسن حال وناشدوا الامبراطور ان لا يخلف وعده لانه بتضييقه وتشديده فى الامور الدينية وحمل الناس على اعتقاد ما لا تقبله عقولهم يوقع بلاد ألمانيا فى مصائب وشدائد بمجرد تصورها يشحن بالفزع والانزعاج قلب كل من احب الوطن حبا صادقا فتلقى الامبراطور هذا التقرير وهو يتبسم كالمستهزئ ولم يعبأ به ابدا الا انه كان قد صمم على ما اضمره منذ زمن طويل فلما رأى أنه لا يمكنه قمع المعتزلة الا بالقوة والجبر بعث كردينال ترنتة الى رومة ليعقد مع البابا معاهدة كانت شروطها معلومة قبل عقدها وامر فى مملكة البلاد الواطية بجمع طائفة من العساكر لتتوجه الى ألمانيا وامر عدة ضباط بجمع عساكر من بعض اقاليم الامبراطورية ثم اخبر الامير حنا دوبراندبورغ والامير ألبيرت دوبراندبورغ بأنه قد آن اوان المساعدة وأن هذا الوقت بعينهما على خلاص حليفهما الامير هنرى دوبرونسويك

(١٩ من شهر حزيران)

ولم تخف هذه الامور على المعتزلة لأن من اودعوا هذا السر كانوا كثيرين كثرة

مطلب
فزع المعتزلة

(سنة ١٥٤٦)

بالغة ومع أن الايمبراطور كان لم يزل يتحيل فى اخفاء مقاصده كان ضباطه لا يسلكون فى ذلك مسلك الاحتراس اصلا بل كانوا يتحدثون بتلك المقاصد أمام حلفائه ورعاياه فلحق رسل المعتزلة فزع كبير من التجهيزات الحربية التى كانت نصب اعينهم والتمسوا من الايمبراطور أن يأذن لهم فى الدخول عنده وسألوه على لسان ساداتهم عن العساكر التى جمعها هل هى باوامره وما قصده بجمعها ولأى عدو اعدها ومثل هذا السؤال الصريح فى وقت لا يمكن فيه انكار الواقع كان يستلزم جوابا صريحا خاليا عن الابهام والمحاولة فمن ثم اعترف الايمبراطور بأن جمع العساكر انما هو بامره ولكن ليس قصده بذلك اضرار احد فى شأن الدين ممن احسن السلوك ولم يخرج عن طاعة ملكه وأفاد أنه يريد تعضيد الحقوق والمزايا الايمبراطورية بعقاب بعض امراء من ارباب الفتن والدسائس الذين لقبح سلوكهم يخشى منهم نقض ترتيب الايمبراطورية وافساد قوانينها القديمة فبهذا الجواب المبهم لم يفصح الايمبراطور عمن يريد اذلالهم ومع ذلك ظهر من حاله أنه يريد بذلك كلا من منتخب سكس وحاكم هيسة حتى ان رسلهما رأوا أن كلامه هذا ليس الا طلبا للحرب وسافروا حالا من مدينة راتسبونة

مطلب المشارطة المنعقدة بين الايمبراطور والبابا ٢٦ من شهر تاموز

واما كردينال ترنتة الذى ارسله الايمبراطور لعقد المعاهدة مع البابا فلم يجد صعوبة فيما كان مبعوثا بصدده وذلك أن البابا كان مسرورا بعدم رد الايمبراطور لاغراضه ومقاصده فرضى عن طيب نفس بجميع ما عرض عليه من طرفه حتى تم امر المعاهدة بعد دخول الكردينال فى رومة بايام قلائل وكان سبب عقد هذه المعاهدة خطر الاعتزال الواقع ببلاد ألمانيا وعناد المعتزلة وامتناعهم عن اقرار المشورة القسيسية المنعقدة فى ترنتة وضرورة ابقاء الكنيسة على احترامها وعزتها ونصوا فى المشارطة على أنه لاجل منع ازدياد المصيبة وعقاب من سعى فى نشرها يلزم أن الايمبراطور يبرز الى ميدان الحرب بجيش يكفى فى قمع من ابى اقرار المشورة القسيسية وعدل عن دين ابائه واسلافه والزامه بالدخول تحت طاعة الكنيسة الرومانية حيث

(سنة ١٥٤٦)

انه مكث زمنا طويلا وهو يسلك طريق الرفق ولين الجانب ولم يجد ذلك نفعا والتزم الاعبراطور ايضا بأنه لا يعقد مع المعتزلة هدنة بستة اشهر الا بعد رضاء البابا بذلك وبعد أن يعين له قسما من البلاد التى يأخذها منهم فى الحرب بل وبعد انقضاء مدة تلك الهدنة لا يقع بينه وبينهم اتفاق يضر بمصالح الكنيسة او بدينها والتزم البابا بأنه يضع فى بانكة جمهورية البنادقة مبلغا من الدراهم يكفى مصاريف الحرب وأن يقوم بمصاريف اثنى عشر الف رجل من المشاة وخمسمائة من الخيالة مدة ستة الاشهر المذكورة وأن يعطى للاعبراطور نصف ايراد سنة مما يتحصل من ايرادات اسبانيا المعدة للوظائف القسيسية وأن يرخص له بموجب فرمان يصدر اليه من عنده أن يتصرف من اراضى اوقاف الكنيسة التى ببلاد اسبانيا فيما يبلغ ايراده خمسمائة الف ايكو والتزم له ايضا بأن يحكم بالنفى والطرد والحرمان وسائر عقوبات الكنيسة على كل من تصدى لنقض اجراء هذه المشارطة من الامراء بل ولا يقتصر على ذلك بل يشهر معهم الحرب والقتال

مطلب
الحيل والخادعات التى سلكها الاعبراطور ثانيا فى مقاصده عن المعتزلة

ومع أن التعلل فى الحرب كان مبنيا على ازالة الابتداع ومحو دين المعتزلة اراد الاعبراطور أن يثبت عند اهل ألمانيا أنه لا يضيق عليهم ابدا فى دينهم وعقائدهم وأنه لا يقصد الا عقاب بعض العصاة من ارباب الجبر والقساوة الذين لا يمتثلون اوامره حق الامتثال فكتب الى اغلب الامراء والمدائن الحرة التى كانت على دين المعتزلة مكاتيب مطابقة لما اجاب به رسل المعتزلة فى مدينة راتسبونة حيث يذكر فيها انه لم يستعد للحرب لاجل غرض دينى بل لمنع الفتن الداخلية وأنه لا يأخذ الطائع من رعاياه بذنب العاصى الذى لعتوه وبغيه نسى ما يجب عليه من الطاعة لرئيس الجمعية الجرمانية (يعنى نفسه) ولا يخفى أن ذلك منه حيلة ظاهرة يعرفها من تأمل فى سلوك الاعبراطور وامعن النظر فى احواله ومع ذلك فقد ظن أنها مما لا بد منه وسلك فيها مسلك المكر والتدبير حتى يدرك بها ما كان يؤمله من الفوائد الجسيمة اذ لو اظهر مرة واحدة أنه مصمم على ازالة دين المعتزلة وادخال بلاد ألمانيا كلها تحت حكم الكنيسة

(سنة ١٥٤٦)

الرومانية كما كانت سابقا التعصب عليه جميع الامراء وسائر المدائن التى كانت متمسكة بالدين الجديد ولما تجاسر احد منهم على اعانته فى مثل هذا المشروع لكنه بانكاره لمقاصده واخفائه لاغراضه منع وقوع التعصب بين دول المعتزلة ولو تعصبت تلك الدول وانضمت الى بعضها لظهرت عليه وظفرت به ومن جهة اخرى جعل للخائفين من حزب المعتزلة حجة يتمسكون بها فى الاهمال والتراخى وجعل لارباب الطمع منهم اسبابا يتعللون بها فى الانضمام الى حزبه من غير أن يجلب لهم ذلك المعرة والخزى بارتدادهم عن دينهم ورفض عقائدهم او بانضمامهم الى اعداء دينهم واعانتهم على نسخه وابطاله وكان الايمبراطور يرى أنه متى امكنه باعانة المعتزلة له خفض شوكة كل من منتخب سكس وحاكم هيسة صار حزب المعتزلة فى قبضته يتصرف فيه كيف شاء حين يقع بين اهله بعد ذلك الشقاق واختلاف الكلمة وتنحط شوكتهم فيندمون حيث لا ينفع الندم على كونهم وثقوا بقول الايمبراطور وتخلى بعضهم عن بعض

مطلب كشف البابا الاسرار الايمبراطور

ولكن البابا عجل بكشف هذا السر وافشائه اظهارا لحميته على الكنيسة وغيرته على دينها فافسد على الايمبراطور ما كان يدبره مع غاية الاحتراس والحذر وذلك أنه لما رأى نجاح مساعيه داخله الكبر والعجب وفرح فرحا عظيما حيث توهم أن العصبة التى عقدها مع الايمبراطور سيترتب عليها محق دين المعتزلة وازالته بالكلية فيثبت له الفخار بازالة البدع والضلالات مدة حكمه على الكنيسة فنشر بنود المشارطة المنعقدة بينه وبين الايمبراطور ليظهر بها حسن قصدهما وحميد اغراضهما فى شأن الدين ويظهر بها ايضا ما التزم به فيها من الامور الجسيمة لحفظ دين الكنيسة من اهل الزيغ والضلال واشاع بعد ذلك بقليل فرمانا يتضمن الغفران لكل من تصدى لهذا المشروع الذى وصفه بالمقدس المحترم حيث انه من باب تأدية فرض النهى عن المنكر وحرض فيه جميع من كان من ابناء النصرانية لا يمكنه الاعانة فى هذا المشروع على أن يتضرع الى الله سبحانه وتعالى ويدعوه باخلاص أن ينصر حزب

القاثوليقية ولكن لم يكن الحامل له على اظهار خلاف ما كان يتعلل به الايمبراطور في تجهيزاته الحربية مجرد حميته الدينية وغيرته على دين الكنيسة الرومانية بل دعاه الى ذلك ايضا ما كان قائما به من الايمبراطور من الغيظ والريبة في اخفاء مقاصده وكتمان اغراضه حتى كأنه في خجل من قيامه بنصر الكنيسة وتأييد دينها وفي كونه يجاهد العدو باسلحة السياسة مع أنه لا شيء اشرف من الافتخار باظهار الجهاد لاجل الدين والقيام بتعضيده فكان كلما حاول الايمبراطور اخفاء الغرض الحقيقي من المعاهدة يبادر البابا بافشائه قاصدا بذلك ايقاع الشقاق والبغضاء بينه وبين المعتزلة حتى لا يمكنه التخلي عن حزب الكنيسة اذا لاح له في الصلح مع المعتزلة فرصة تعود عليه بالمنفعة

ثم ان الايمبراطور مع غيظه من البابا حيث حمله عدم تبصره في العواقب او مكره وخبث طويته على افشاء سره لم تفتر همته في تتميم مقاصده والسعي في تنجيز مرامه بل مازال يلقي في قلوب المعتزلة ويثبت عندهم أن مقاصده هي عين ما اخبرهم به وليس له غرض سوى ذلك حتى ان بعض دول المعتزلة لاغترارهم بكلامه رأوا أنه يسوغ لهم امداده واعانته

مطلب تجهيزات المعتزلة للمدافعة عن انفسهم

واما معظمهم فلم يغتر بهذه الحيلة بل لم يزل ارباب السياسة والحزم منهم جازمين بأن الايمبراطور ليس قصده من التجهيزات الحربية الا اذلال حزبهم وأنه لو قدر على تنجيز مقاصده كما هجس في نفسه لمحق دين المعتزلة ومحا معه الحرية من بلاد ألمانيا فلذا تأهبوا للمدافعة عن انفسهم حتى لا يحيدوا عن طريق الحق الذي يقولون ان اهتداءهم اليه انما هو بتوفيق الله وارشاده لهم على وجه عجيب ولا يتساهلوا في الحقوق والمزايا التي توارثوها عن آبائهم واسلافهم ولما توجه رسل المعتزلة بعد سفرهم من مدينة راتسبونة مغضبين الى مدينة هولم ليدبروا امرهم انعقدت المذاكرة بهذه المدينة مع غاية الهمة وكمال الاعتناء والالتئام حسبما يستدعيه ما كانوا يتوقعونه من شدة الخطر وكان مقدار ما يخص كل انسان من المتعاهدين من القوى والعساكر مبينا في المشارطة فصدرت اوامر بأن كل امير يخرج فورا الى الحرب من يخصه من العساكر

(سنة ١٥٤٦)

ورأى المتعاهدون أن وثوق بعضهم بقول الايمبراطور وعدم تبصر البعض الآخر فى العواقب قد منعا هم زمناطويلا عن المعاهدة مع الدول الاجنبية ليستعينوا بها عند الضرورة وبادروا بطلب الاعانة من اهل البنادقة واهل السويسة

مطلب استعانة المعتزلة باهل البنادقة

فاخبروا اهل البنادقة أن الايمبراطور قد عزم على نقض قوانين بلاد ألمانيا وأن يجعل شوكته فيها قوية مطلقة التصرف باعانة البابا وهذا المشروع يضر بحرية ايطاليا لان الايمبراطور متى صار مطلق التصرف فى احدى هاتين الدولتين (ألمانيا وايطاليا) يصير بالضرورة مطلق التصرف فى الاخرى ولكن لما لم ير المعتزلة اعانة من اهل البنادقة ترجوهم أن لا يأذنوا بالمرور من بلادهم لعساكر البابا الذين هم اعداؤهم كغيرهم حيث انهم باذلا لهم لبلاد ألمانيا يخشى منهم على سائر بلاد اوروبا وكانت هذه الملحوظات لا تخفى على اهل البنادقة لحذقهم ونباهتهم فبذلوا جهدهم فى منع البابا عن المعاهدة مع الايمبراطور الذى لا ينكر طمعه لان معاهدته معه تزيده طمعا كما تزيده شوكة وصولة الا أن البابا كان مصمما كل التصميم على تنجيز مقاصده فلم يلتفت الى قولهم * ومع معاينتهم للخطر تعرضوا له ولم يحترسوا بما يكونون به فى امن منه بل اجابوا ارباب عصبة سمالكالد بأنه لا يمكنهم منع عساكر البابا عن المرور من بلادهم الا اذا جمعوا جيشا كبيرا يكفى فى سد الطرق عليهم ولكن مثل هذا الفعل يغضب الايمبراطور والبابا معا ويصيرون به عرضة لحقدهما وبطشهما ولهذا السبب ايضا امتنعوا من اعطاء منتخب سكس وحاكم هيسة مبلغا من الدراهم للاستعانة به على الحرب

مطلب استعانة المعتزلة باهل السويسة

واما اهل السويسة فلم يقتصر المعتزلة على التضرع اليهم فى سد طرق ألمانيا على العساكر الاجنبية بل كانوا يؤملون من هذه الملة التى كانت اقرب اليهم مما عداها وبهذا كانت متعاهدة مع الايمبراطورية أن تبذل غاية جهدها فى المدافعة عن حرية بلاد ألمانيا وأن لا تحتمل ادنى ظلم اواقيات فى حق الملة الالمانية وكانت الاقطار المعتزلة من بلاد السويسة مستعدة للانضمام

(سنة ١٥٤٦)

الى اهل عصبة سما لكالد الأن ارباب الجمعية السويسية كان بينهم تفاقم وشقاق عظيم فى شأن الدين حتى ان المعتزلة منهم كانوا لا يتجاسرون على فعل شىء الا اذا شاوروا اهل الاخطاط القاثوليقية هذا وكان البابا والامبراطور قد بعثا رسلا الى اهل السويسة لم يزالوا يلحون عليهم حتى وعدوا بأنهم فى هذا الحرب يكونون بمعزل عن الفريقين ولا ينضمون الى احد من الحزبين

مطلب
استعانة المعتزلة بالملك فرنسيس الاول والملك هنرى الثامن

فلما خابت آمال المعتزلة من هاتين الجهتين بادروا الى الاستعانة بملك فرانسا وملك انكلترة وكان منتخب سكس كاسق لا يرضى بالمعاهدة مع هذين الملكين ولكن لما الح عليه المعتزلة وصارت الاخطار نصب عينيه تساهل عن تشديده الاول فى شان المعاهدة معهما وكانت مقتضيات الاحوال اذ ذاك تسوغ للمعتزلة أن يطمعوا فى نيل مرامهم من هذين الملكين وذلك أن الحرب كان قد مكث مدة بين الانكليز والفرنساوية بعد مشارطة الصلح المنعقدة بمدينة كريسبي حتى سئمت منه نفوس الفريقين ورأوا أنه خال عن الفائدة والفخار فأنهوا هذه المشاجرة بمشارطة صلح انعقدت بينهم فى قرية كاسية قريبا من مدينة أردروس ولحق فرنسيس ما لا مزيد عليه من التعب والمشقة فى ادخال اهل ايقوسيا فى تلك المشارطة وكانوا حلفاءه وقتئذ حتى انه لهذا الغرض تساهل فى امور كثيرة والتزم أن يدفع الى هنرى مبلغا جسيما كان يدعيه عليه من جهات عديدة بل رهن ملك فرانسا عنده اقليم بولونيا حتى يؤدى هذا المبلغ ومع أن الصلح كان قد انعقد بين هذين الملكين وصار يمكنهما التصدى لمصالح ألمانيا لم يحصل المعتزلة منهما فائدة وذلك أن هنرى كان لا يرضى بالمعاهدة معهم الا على شروط بمقتضاها تكون له الرياسة على عصبتهم بحيث يتصرف فيها كيف شاء وكانت نفوس المعتزلة تأبى ذلك ولا تطيقه لان عقائده الدينية كانت مباينة جدا العقائد معتزلة ألمانيا فلم يتأت الالتئام والاتحاد بينه وبينهم واما فرنسيس فكانت له مآرب سياسية كان مستعدا بها الاعانة المعتزلة اكثر من هنرى وكان يرى أن قوى مملكته قد ضعفت بسبب

(سنة ١٠٤٦)

الحروب الطويلة التي حصلت بينه وبين اعدائه فلم يتجاسر على اعانتهم لاسيما وكان يخشى غضب البابا بانضمامه الى حزب قد حكم بكفره فانظر الى هذا الملك حيث افضت به هذه الاسباب الواهية الدينية الى ضياع فرصة عظيمة لم يسبق له نظيرها مدة حكمه اذ بها كان يمكنه أن يوقع خصمه الايمبراطور في الورطة والارتباك ويقمعه ويجرّعه كؤس المذلة والهوان ولو بدت له هذه الفرصة قبل ذلك مع وجود الاسباب المذكورة لاتهزها مع الهمة وبادر باجتناء ثمارها الجمة

مطلب تجهيز المعتزلة لجيش كبير برزوا به الى ميدان الحرب

ولكن مع عدم نجاح المعتزلة في مداولاتهم مع الملل الاجنبية جمعوا مع السهولة جيشا يكفي في الحرب مع عدوهم وذلك أن ألمانيا كانت اذذاك عامرة جدا وكانت القوانين الالتزامية فيها باقية على اصلها من النفوذ والعمل بها فكان يمكن للاشراف او الاعيان أن يجمعوا اتباعهم الكثيرين ويسوقوهم الى الحرب متى شاؤا وكذلك تولع الالمانيين بالحرب لم يزل فيهم حيث لم يكن دخل عندهم يومئذ تجارات ولا فنون بل كانوا قد ازدادوا مهارة واستعدادا بسبب الحروب المستمرة التي مكثوا فيها نصف قرن على طرف الايمبراطرة او على ملوك فرانسا فبمجرد أن اقتضى الحال حمل السلاح سعوا الى الحرب من كل جهة وكلما وقع بصرهم على راية حربية اتوا اليها افواجا وكان ثم ما يقوى حميتهم الطبيعية وهو غيرتهم على الدين وذلك ان أصول دين المعتزلة كانت قد تمكنت من قلوبهم كتمكن الحق من يقين المحق وامتزجت بارواحهم حتى استعد والتأييد هذا الدين والذب عنه مع العزم الملايم لهذه الحمية العظيمة التي كانت قائمة بهم وزيادة على ذلك كان هؤلاء الابطال الحربيون يرون أن اظهار الخمول في هذا الوقت يعود عليهم بالمعرّة والفضيحة وكانت المدافعة عن الدين تدعوهم الى حمل السلاح وقد حصلت حادثة اعانت على جمع العساكر وتجنيدهم وهي أن ملك فرانسا لما كان قد اشرف على عقد الصلح مع ملك انكلترة طرد من عساكره عددا عظيما من الالمانيين الذين كان قد استأجرهم للحرب فانضموا الى بعضهم وصاروا طائفة واحدة كبيرة ودخلوا تحت اعلام المعتزلة فلهذه الاسباب امكن

لامراء

لامراء عصبة سمالكالد أن يجمعوا فى طرف اسابيع قليلة جيشا جرارا مشتملا على سبعين الفا من المشاة وخمسة عشر الفا من الخيالة ومائة وعشرين من المدافع وثمانمائة عربة موسوقة بالمهمات والذخائر الحربية وثمانية آلاف من دواب الاحمال وستة آلاف من القازمه جية ومع أن هذا الجيش كان من اكبر الجيوش التى جمعت ببلاد اوروبا فى ذلك العصر لم يشترك فى جمعه كل المعتزلة وانما جمعه منتخب سكس وحاكم هيسة والامير دوق دوتامبرغ وامير أنهالته ومدينة اوكسبورغ ومدينة هلم ومدينة سترسبورغ واما منتخب كولونيا ومنتخب براندبورغ وحاكم اقليم پلاطينه فلخوفهم من الامبراطور واغترارهم بزخرف قوله لم يكن لهم دخل فى حزب المعتزلة وكذلك الامير حنادو براندبورغ باريطه والامير ألبيرت دوبراندبورغ انسباخ فانهما وان كانا على دين لوتير من مبدا ظهوره الا أنهما انضما الى حزب الامبراطور متعللين بأنهما قد وعدا بعدم المدافعة عن الدين الجديد وتأسى بهما فى ذلك الامير موريس دوسكس

مطلب كون الامبراطور لم يكن عنده من العساكر من يكفى فى مقاومة المعتزلة

فلما رأى الامبراطور عظم جيش المعتزلة واسراعهم فى جمعه تحير فى امره حيرة كبيرة حيث لم يكن مقتدرا على مقاومة مثل هذا الجيش الجرار وكان اذ ذاك بمدينة راتسبونة ولم تكن تلك المدينة حصينة وكان اغلب اهلها معتزلة فكان عرضة للغدر به ولم يكن معه الا ثلاثة آلاف من العساكر الاسبانيولية المشاة كان قد احضرهم من ثغور بلاد المجار وكان معه ايضا خمسة آلاف من الالمانيين احضرهم من عدة اقاليم من الامبراطورية الالمانية فداخله الرعب والفزع حين بلغه أن الاعداء صاروا على قرب منه وكانت عساكره قليلة واما العساكر الذين ارسلهم البابا لاعانته فكانوا لم يدخلوا وقتئذ ارض ألمانيا كما أن العساكر التى طلبها من مملكة البلاد الواطية لم يكن تم جمعها وكانت حالته اذ ذاك تستدعى سرعة الاعانة ولا تسوغ له الاعتماد على العساكر الآتية اليه من طرف البابا ولا من مملكة البلاد الواطية لان وصولها اليه كان غير محقق

(سنه ١٥٤٦)

مطلب
اشتغال المعتزلة بالمداولة عوضا عن الحرب

ولكن لوفور حظ الايمبراطور لم يعرف المعتزلة أن يدبروا امرهم ويجنوا ثمار هذه الفرص العديدة وذلك أن الناس فى الحروب المدنية لابد أن يبدؤا امرهم بالتردد فى الاقدام والاحجام ويقوم بانفسهم اولا الرعب والهيبة فيظهرون العدالة لاستمالة النفوس وتكثير سواد احزابهم باظهار الاحترام للرسوم الجارية والقوانين المقررة ولا يتجاسرون من اول وهلة على هتك حرمة القوانين والرسوم القديمة التى كانت تحترم اذ ذاك كل الاحترام فى ازمان الصلح الخالية عن الفتن والتعكيرات فلذا تجد المشروعات المستدعية للعزم والسرعة فى الغالب ضعيفة ذات تراخ وبطء وحيث ان هذه الملحوظات لها وقع عظيم فى القلوب للزومها لراحة الرعايا واطمئنان الدول الرمت المعتزلة أن لا ينسوا ما يجب عليهم من الطاعة للايمبراطور من حيث كونه رئيس ايمبراطور يتهم وافهمتهم انهم بعصيانه والقيام عليه قبل أن يطلبوا منه العدل والانصاف فى شأن ما يتظلمون منه ويستشهدوا عليه الملة الالمانية بتمامها يكونون قد تجاوزوا الحدود وهتكوا حرمة القوانين فحرروا للايمبراطور تقريرا ولاهالى ألمانيا تقريرا آخر نشروه فى سائر البلاد الالمانية وكان مضمون التقريرين واحدا وذلك أنهم برهنوا فيهما على امانتهم للايمبراطور وقيامهم بحقوقه فيما يخص السياسة وذكروا أنهم باقون معه على الاتحاد والالتئام واعترفوا له بمراعاته بحسن معاملته لهم وذكروا أن الدين هو السبب فى الحرب الذى صمم الايمبراطور على فعله معهم وما ذكروه من البراهين كان قويا بحيث يؤثر كل التأثير فى العقول الضعيفة حتى لا تغتر بحيل الايمبراطور ومداهنته وانهوا تقريرهم بأنهم قد صمموا على اقتحام الاهوال والاخطار لتأييد دينهم الجديد وأنه ربما جر ذلك الى دمار الجمعية الجرمانية ان غلب الايمبراطور مصلحته على عصبة المعتزلة

١٥ من شهر تاموز

مطلب
حكم الايمبراطور بالنفى على رئيسى عصبة المعتزلة

ومع أنه كان ينبغى للايمبراطور أن يتساهل فى مثل هذه الاخطار دقق كل التدقيق وسلك فى هذا المعنى مسلك التشديد حتى كأنه فى هذه المرة له اقتدار على قمع المعتزلة والزامهم بما شاء فكان جوابه لهم عن التقرير الذى قدموه اليه

وعن

(سنة ١٥٤٦)

وعن التقرير الذى نشروه فى بلاد ألمانيا أن أمر بنفى كل من الامير منتخب سكس والامير حاكم هيسة اللذين هما رئيسا عصبة المعتزلة وصدر منه امر آخر بنفى كل من تجاسر على اعانتهما وامدادهما بشئ وهذا الحكم كان اصعب شئ تقرر فى قوانين ألمانيا لعقاب الخائنين الذين يغدرون بالوطن وكانت صورة الحكم عليهما فى الفرمان الصادر من الايمبراطور هى ان هذين الاميرين قد عصيا وبغيا وسلكا مسالك العدوان والطغيان فجزاؤهما أن يحرما من المزايا والخصائص الثابتة لهما بوصف كونهما من اعضاء الايمبراطورية وأن تضبط اموالهما واملاكهما وأن يرخص لرعاياهما فى الخروج عن طاعتهما ولمن شاء فى شن الغارة على اراضيهما انتهت ولكن طائفة الاشراف والمدائن الحرة التى رتبت قوانين الجمعية الجرمانية اوحسنتها وجعلتها على اكمل حال كانت لم تهمل فى امن بلاد ألمانيا حتى تتغافل عن الايمبراطور اذا اصدر منه مثل هذا الحكم فانه كان لا يمكن نفى احد من اعضاء الايمبراطورية الا بموجب حكم ارباب مشورة الدييتة فلم يلتفت الايمبراطور الى هذا القانون معتمدا على أنه ان نجح فى الحرب وظفر باعدائه لم يتجاسر احد على مطالبته بمخالفة هذا القانون ولم يتعلل فى حكمه بالنفى على الاميرين السابقين بكونهما خرجا عن طاعة الكنيسة واعتزلا دينها بل تعلل باسباب سياسية عبر عنها بالفاظ عامة مبهمة ولم يبين عين الذنب الذى استحقا به العقاب فظهر أن حكمه بذلك محض ظلم وعدول عن الانصاف وتعبيره عن هذه الاسباب بعبارات مبهمة يدل على أنه لم يتجاسر على الافصاح عن سبب حكمه بنفيهما لانه كان يخشى أنه ان ابدى الاسباب التى بنى عليها هذا الحكم وبينها اتم البيان جر ذلك الى غيرهما من امراء المعتزلة الذين كان يحسن معاملتهم لمراعاة مصلحته واستمالتهم الى الانضمام اليه والدخول فى حزبه او التخلى عن الفريقين بحيث يكونون لا له ولا عليه

فلما يئس المعتزلة من الصلح بينهم وبين الايمبراطور بالتى هى احسن رأوا أنه لم يبق لهم الا اختيار احد امرين اما انقيادهم للايمبراطور فيما شاء او حربهم معه بدون

(سنة ١٥٤٦)

تراخ ولا مهلة وكانوا فى هذه المرة بمكان من العزم وفرط الهمة حيث انهم بعد صدور الفرمان بنفى منتخب سكس وحاكم هيسة بايام قلائل بعثوا سفيرا الى المعسكر الايمبراطورى يطلب الحرب والقتال وابطلوا بيعته ونقضوا العهود التى كانوا محافظين عليها الى ذلك الوقت فى حق الايمبراطور وانكروا ايمبراطوريته ورياسته وقبل طلبهم للحرب كان بعض عساكرهم قد بدأ فى القتال وذلك أن مدينة اوكسبورغ جمعت طائفة كبيرة من العساكر وجعلت رئيسها الشهير سيباستيان شرتيل وكان من الضباط ذوى الثروة والسعة لانه كان مع جيش الايمبراطور فى نهب مدينة رومة فغنم من ذلك مغنما عظيما فلثروته وكثرة اعتباره لتقادم عهده فى الخدمة كان معدودا فى درجة اعيان ألمانيا واكابر اشرافها وامرائها ولما كان هذا البطل على الهمة زائد الشجاعة اراد قبل انضمامه الى جيش المعتزلة أن يفعل امرا يلايم شهرته وصيته لتتحقق فيه آمال ابناء وطنه حيث اختاروه وقلدوه الرياسة فبينما كانت عساكر البابا تتقدم مع السرعة جهة بلاد تيرول لتدخل فى ألمانيا من جبال ألبه اذ سبقها شرتيل وتغلب على كل من اهرامبرغ وكوفستين وهما قلعتان حصينتان كانتا متمكنتين من الحلوق والعقبات الكبيرة من جبال ألبه ثم توجه سريعا الى قلعة أنسبروك ولو تغلب عليها لامكنه أن يسد الطرق على جيش البابا لانه اذا كان فيها عدة من المحافظين ولو قليلة امكنهم أن يقاوموا كل جيش ولو بلغ فى الكثرة ما بلغ الآن كستيلانو حكمدار ترنتة لما رأى أنه اذا سدت الطرق والسبل على العساكر الآتية لاعانة الايمبراطور خابت آماله وضاعت مساعيه سدى جمع مع السرعة طائفة صغيرة ودخل القلعة المذكورة ومع ذلك لم يرجع شرتيل عن مشروعه فبينما هو يستعد لشن الغارة على هذه القلعة اذ بلغه أن عساكر البابا قد قربوا منها وجاءته اوامر من منتخب سكس وحاكم هيسة بالحضور فاضطر الى العدول عن هذا المشروع فصارت المسالك برجوعه مفتوحة للسالك فدخلت عساكر البابا بلاد ألمانيا من غير أن تجد عائقا سوى المحافظين الذين كان اقامهم

مطلب
مبدء حرب المعتزلة

(سنة ١٥٤٦)

شرتبل فى قلعة اهرامبرغ وقلعة كوفستين ولكن لما ايسوا بادروا بالتسليم واستولى العدو على القلعتين

مطلب
عدم ادارة الرؤساء

وقد اخطأ المعتزلة فى دعاء شرتبل كما اخطأوا فى جعل رياسة الجيش لمنتخب سكس وحاكم هيسة فعما قليل ادركوا أن اشراكهما فى تلك الرياسة مضر جدًا وذلك أن منتخب سكس وان كان يبذل مهجته فى جانب المصلحة العامة الا أنه كان ذا بطء لدى المذاكرت وتردد فى المشروعات ويؤثر الاحتراس والتأنى على التجاسر والاقدام واما حاكم هيسة فكان اكثر منه نشاطا واسراعا فكان يصمم على المشروعات المهمة على حين غفلة ويظهر العزم التام فى تجهيزها ويختار دائما من الوسايط ما يكون ملايما لما صمم عليه الا أن كلا منهما كان قد تصدى لهذا الحرب لمآرب مباينة لمآرب الآخر فاختلفت كلمتهما فى الحرب لاختلاف مآربهما وتباين الاسباب الحاملة لهما على ذلك فوقعت بينهما الغيرة والعداوة وتفاقم امرهما المباينة طباعهما غير أن ارباب العصبة الذين كانوا تحت تبعيتهما بمحض اختيارهم خرجوا عن طاعتهما حين رأوا ما وقع بينهما من الاضطراب واختلاف الكلمة فكان جيش المعتزلة اشبه بدولاب كبير اجزاؤه غير محكمة التركيب وليست فيه الآلة اللازمة لتنظيم حركاته فعملياته قليلة بدون ثمرة

مطلب
وصول عساكر البابا الى الامبراطور

ولما كان الامبراطور يخشى أنه مادام مقيما بمدينة رانسبونة لا يمكن لعساكر البابا الوصول اليه ارتحل من هذه المدينة وتوغل فى السير مع الجسارة وقوة القلب حتى وصل الى لندسهوت على نهر ايزير ومكث المعتزلة عدة ايام وهم يتذاكرون فى شأن لحوقه باراضى الدوق دو باويرة وكان هذا الدوق بمعزل عن الفريقين وبعد التوقف الكلى اخذوا فى السير الى معسكر الامبراطور لكنهم عدلوا على حين غفلة عن هذا المشروع وصمموا على الهجوم على مدينة رانسبونة وكان الامبراطور لم يدع فيها من المحافظين الا طائفة قليلة وفى اثناء ذلك وصل عساكر البابا بتمامهم الى لندسهوت ووصل اليهم ستة آلاف من العساكر الاسبانيولية القديمة كانت قد جمعت من بلاد نابلى ومن التفت

(سنة ١٥٤٦)

الى مبدا امور المعتزلة حيث امروا شرتبل بالعدول عن مشروعه المهم رأى انهم كانوا يريدون أن السبل تبقى مفتوحة أمام هذه العساكر لتصل الى المحل الموعود مع الامن والاطمئنان مع أنه كان الواجب عليهم أن يهجموا على هذه العساكر او على الامبراطور قبل وصولها اليه وكان الجيش الامبراطورى اذ ذاك يبلغ ستة وثلاثين الفا ولكنه كان مهولا يخشى بأسه لضبطه وربطه وشجاعة رجاله وقد ذكر الشهير آويله حكمدار القنطرة (احدى مدن اسبانيا) وكان ثقة معتبرا شهد جميع حروب الامبراطور وخدم فى الجيش الذى انتصر فى وقعة باويا والجيش الذى فتح تونس واغار على مملكة فرانسا أنه لم يرا صلا جيشا مهولا مثل هذا الجيش الذى اعده الامبراطور لقتال معتزلة ألمانيا وكان الامير اوكتاوه فرنيز حفيد البابا قائد العساكر البابابا عانه ضباط ماهرين كانوا قد تمكنوا وتمرنوا بالتجاريب وتقادم العهد فى الحروب الطويلة التى وقعت بين الامبراطور ومملكة فرانسا وكان بمعيته اخوه الكردينال فرنيز بوظيفة النيابة عن البابا وكان هذا الكردينال يرى أن الحرب مع المعتزلة جهاد فى سبيل الله فطلب أن يسير امام الجيش وتحمل أمامه صورة الصليب وأن يتحف بالمزايا والخصائص كل من اعانه كما وقع نظير ذلك فى الغزوات الصليبية مع الاسلام ولكن لم يرض الامبراطور بهذه الامور لانها تخالف ما وعد به المعتزلة الذين انضموا الى حزبه فلما رأى الكردينال أن التدين بدين المعتزلة مباح فى معسكر الامبراطور مع أن القصد من الحرب انما هو ازالته ومحو اثره امتزج بالغضب وسافر الى بلاد ايطاليا

ولما وصلت عساكر البابا الى الامبراطور زاد فى عدد محافظى مدينة راتسبونه فايس المعتزلة من التغلب عليها وقصدوا انغولستادة وهى مدينة على نهر طونة وكان الامبراطور معسكرا هناك وكانوا لم يزالوا يتظلمون منه لكونه هتك حرمة قوانين الامبراطورية واحتقر رسومها ودعا الاجانب لتخريب اراضيها واعدام حريتها وكان المعتزلة اذ ذاك يبغضون كنيسة رومة اشد البغضاء حتى كانوا يفزعون من كل مشروع يسمعون فيه اسم البابا فشاع

بين

سنة (۱٥٤٦)

بين الناس أن البابا بولس لم يقتصر على قتال المعتزلة بل بعث رسلا من طرفه الى بلاد ألمانيا ليحرقوا امدا تنهم ومخازنهم ويضعوا السم فى الآبار والعيون

وهذه الاشاعة وان كانت تستبعدها العقول الرجيحة والافهام الصحيحة ولا يصدقها الاعوام الناس وجهلتهم الا أنها رسخت فى اذهان الرؤسا فنشروا تقريرا ذكروا فيه أن البابا قد ارتكب هذه الامور لاتلافهم واهلاكهم وان كان هنالك ما يعتذر به عنهم فى ظنهم هذا الظن فليس الاقبح سلوك عساكر البابا حيث كانوا يعتقدون أنه يسوغ فعل كل شئ فى حق من اعتزل وكفر بدين الكنيسة فلم تبق فاحشة الا فعلوها ولا كبيرة الا ارتكبوها ببلاد المعتزلة وازدادت مصائب الحرب المعتادة بما كانت تسوله عادة الحمية الدينية للعقول

مطلب
تقدم المعتزلة جهة جيش الامبراطور

ولكن اعمال الجيشين لم تكن بقدر ما كان فى قلوب الفريقين من العداوة والبغضاء الشديدة وذلك أن الامبراطور لحزمه صمم على اجتناب القتال مع المعتزلة حيث رأى أن جنودهم اكثر عددا من جنوده وادرك أن مثل هذه العصبة المؤلفة من اناس لا التئام بينهم لابد من انحلالها وتبدد امرها ما لم يحصل الهجوم عليها فانها فى هذه الصورة تستيقظ ويضطر اربابها الى الالتئام واتفاق الكلمة وكان المعتزلة يعرفون أنهم ان سلكوا فى هذا المشروع مسلك المهلة والتراخى خسروا كل الخسران ومع ذلك فلضعف رؤسائهم اولتفاقم الامر بينهم لم يبذلوا فى تنجيز امورهم ما كانت تستدعيه احوالهم اذ ذاك من فرط الهمة ولا ما كان قائما بقلوب العساكر من الغيرة وشدة الحمية وذلك انهم لما وصلوا الى مدينة انغولستادة وجدوا الامبراطور نازلا هنالك فى معسكر غير محكم الوضع فى حد ذاته وليس حوله من التحصينات والمتاريس الا اشياء واهية قليلة وكان أمام هذا المعسكر سهل واسع جدا بحيث يسع جيش المعتزلة بتمامه وتبقى لهم مسافة كبيرة تكفيهم فى حركاتهم العسكرية وعملياتهم الحربية وبالجملة فجميع المقتضيات اذ ذاك كانت تستدعى أن المعتزلة ينتهزون تلك الفرصة ويهجمون على معسكر الامبراطور حيث كانوا اكثر منه جندا وكانت عساكرهم اشد حمية من عساكره

۱۹ من شهر اب

(سنة ١٥٤٦)

فانهم كانوا لا يودون الا القتال وكان فيهم من المشاة الالمانية صناديد ابطال وفحول رجال لا يرهبون القتال ويثبتون فى المعركة كرواسخ الجبال فكل ذلك كان يثبت لهم النصر ويعينهم على الظفر بعدوهم وكان حاكم هيسة يرغب فى القتال على اى حالة كانت حيث قال انى لو كنت مطلق التصرف لالتقى الجمعان وظهر الغالب من المغلوب ولكن كان منتخب سكس يفكر فى شجاعة العدو وحسن ضبطه وربطه لاسيما ووجود الايمبراطور بين عساكره مما يزيدهم حمية ونشاطا وضباطهم امهر ضباط ذلك العصر فقال انه ليس من الصواب القتال مع رجال قد شبوا فى العسكرية وشابوا الاسيما وقد انتخبوا معسكرهم على حسب مرغوبهم فهو وان كانت تحصيناته قليلة الا أنه يعينهم اتم الاعانة على عدوهم ومع ذلك انحط الرأى على أن يتقدم جيش المعتزلة صفاصفا الى معسكر الايمبراطور ويضرب عليه بالمدافع نارا شديدة لعل العساكر الايمبراطورية تتزحزح عنه وتخرج منه ولكن كان حزم الايمبراطور يجل عن أن يوقعه فى مثل هذه المكايد فلم يزل مصمما على ما كان عازما عليه فوضع عساكره خلف التحصينات وامرهم بالتأهب للقاء المعتزلة ان هجموا عليهم وانتظر عسكر العدو حتى يقربوا منه وهو فى غاية الامن والسكون ونهى عساكره أن يفعلوا شيأ مما يكون به تحريك الحرب او يبعث على القتال وانما كان ينتقل من صف الى آخر ويخاطب عساكره المجموعة من ملل مختلفة كل ملة بلغتها ويقوى قلوبهم بالبشاشة وثبات القلب فى هذه الاخطار ويلقى بنفسه فى المحال التى كانت عرضة لنيران المدافع اكثر من غيرها ولم يكن معه الى ذلك الوقت من المدافع ما يساوى عدد مدافع المعتزلة فلما رآه عساكره بهذه المثابة تأسوا به ولم يتجاسر احد منهم على الخروج من الصف بل كان الشجاع منهم يرى ان اظهار الخوف أمام هذا الايمبراطور العلى الهمة مما يوجب له الخزى والمعرة ولقوة قلب الايمبراطور كان يظهر أن امتناعه عن الحرب ليس ناشئا عن خوفه من العدو وانما هو من باب الحزم وحسن السياسة فان المعتزلة بعد أن مكثوا مدة وهم يضربون بالنار على معسكر الايمبراطور ولم يروا فى ذلك فائدة ولم يترتب عليه ما كانوا يقصدونه من تحريض العساكر

مطلب
امتناع الايمبراطور عن القتال

(سنة ١٥٤٦)

الايمبراطورية على الحرب رجعوا الى معسكرهم وتركوا القتال واما الايمبراطور فانه قضى تلك الليلة وهو يحصن معسكره حتى ان المعتزلة فى اليوم الثانى لما ارادوا الهجوم عليه رأوه على غاية من التحصين فندموا كل الندم حيث امهلوه حتى تقوى عليهم باحكام التحصينات واتقانها

مطلب
وصول العساكر الفلمنكية الى الايمبراطور

وبعد هذا السعى الذى لم يترتب عليه الا اظهار تردد المعتزلة وثبات الايمبراطور اشتغل المعتزلة بمنع امداد جسيم كان قادما الى الايمبراطور من مملكة البلاد الواطية مع قونتة بورين وحاولوا صده عن الوصول اليه وكان هذا المدد يبلغ عشرة آلاف من المشاة واربعة آلاف من الخيالة وهذا القونتة وان كان قد اضطر الى السير من طريق طويلة فى خلال بلدان كان بعضها يميل الى حزب المعتزلة وكان يمكن للمعتزلة بمجرد اخبارهم بقدومه أن يأخذوا سرية من جيشهم الجرار ويقضوا بها عليه ويفتكوا به الا أنه حث السير مع احكام الحركات العسكرية وبطء المعتزلة وعدم حزمهم حتى وصل بجيشه الى معسكر الايمبراطور من غير أن يلحقه ادنى ضرر

١٠ من شهر ايلول

وكان الايمبراطور يعول على الفلمنك ويعتمد عليهم كثيرا فبمجرد وصولهم اليه تغيرت الاحوال وعزم على أن يبدأ بالهجوم فى هذه المرة كما بدأ المعتزلة فى المرة الاولى غير أنه لم يزل يتجنب الحرب مع غاية الهمة فتغلب على مدينة نوبورغ ومدينة ديلنجان ومدينة دوناورطة التى على نهر طونه وتغلب ايضا على مدينة نوردلنغ وعدة مدائن اخرى موضوعة على اكبر النهيرات التى تصب فى هذا النهر الكبير ولكن فى اثناء تغلبه على هذه البلدان العديدة وقع بينه وبين المعتزلة مقاتلات شديدة لم يكن هو فقط الغالب فيها دائما ومضى فصل الخريف على هذه الحال من غير أن يظفر احد الفريقين بالآخر بل ولم تظهر علامات تدل على عاقبة الحرب وغايته وانما كان الايمبراطور فى الغالب يقول انه لابد من حصول التفاقم والشقاق بين المعتزلة ومتى نفدت الاموال من عندهم اضطروا الى التفرق فتنحل عصبتهم ويتبدد شملهم وكان يلهج بذلك كثيرا ويترقبه مع أنه لم يكن هنالك من العلامات ما يدل على أنه قريب الوقوع بل اخذت ذخائره

مطلب
حالة الجيشين

(سنة ١٥٤٦)

وعلف دوابه فى التناقص حتى ان اهل الاقاليم القاثوليقية امتزجوا بالغضب حين رأوا العساكر الاجنبية فى داخل الايمبراطورية وصاروا لا يعطون الجيش الايمبراطورى ما يحتاج اليه من المهمات والذخائر الامع غاية الاشمئزاز والنفور واما معسكر المعتزلة فكانت تكثر به سائر المهمات واللوازم بهمة سكان الاقطار التى بجواره وقد حلت الامراض بعسكر الايمبراطور بسبب تغير القطر والمطعم حتى صار مقدار جسيم من الاسبانيول والايطاليين لا يصلحون للخدمة العسكرية وكانت ماهيات العساكر الايمبراطورية متأخرة لهم ومن حين خروجهم الى الحرب لم يدفع لهم منها الا القليل فحصل للايمبراطور فى هذه المرة ما حصل له فى كثير من امثالها وهو أن شوكته كانت اوسع من ايراده فكان يمكنه لقوة شوكته أن يجند الجنود الكثيرة ولا يمكنه أن يصرف عليها لقلة ايراده وقد ادرك أنه يصعب عليه ابقاء جيشه فى ميدان الحرب حتى ان بعض ضباطه الماهرين كالاميردوق ألبه الذى كان لا تكل له همة ولا يفزع من المشروعات الخطرة المهمة اشاروا عليه بتوزيع عساكره الى مساكن الشتاء ولكن كان من طبعه أن لا تستميله الاسباب القوية متى كان عازما على شئ فلم يقبل منهم صرفا ولا عدلا بل مازال مصمما على اتعاب المعتزلة بالصبر والمواظبة حيث كان يجزم بأنه ان شتت شملهم فى هذه المرة وخابت مقاصدهم فيها لا يعودون الى مثلها ابدا هذا وكان لا يعلم من يسأم من الفريقين قبل الآخر فكان لا يدرى هل تفتر همة الايمبراطور اولا او تضعف حمية المعتزلة قبله ولا من تختلف كلمته من الفئتين ويقع فيه التفاقم والشقاق فتظفر به الفئة الاخرى وبينما كانت العواقب مجهولة بهذه المثابة اذ حصلت حادثة على حين غفلة فافسدت مآرب المعتزلة وخيبت مساعيهم

مطلب
مآرب موريس دوسكس

وهى أن الامير موريس دوسكس كان قد اخذ بلب الايمبراطور بما ابداه له من المخادعات التى سبق ذكرها فبمجرد حصول الحرب بينه وبين المعتزلة فرح هذا الامير وامل النجاح فى تنجيز مقاصده الواسعة التى كان مصمما عليها وذلك أنه لطمعه كان غير قانع بالحصة التى اخذها من ميراث ابائه فى بلاد سكس فكان يود حصول حرب مدنى وفتن داخلية لان مثل هذه الفتن يظفر فيها ارباب

الجسارة بمرامهم ولا ينبغى اضاعة فرصتها لما أنها نادرة الوجود وقل أن يظفر بمرامه فى غيرها جاسر طماع وحيث كان هذا الامير لا يجهل حال الفريقين ويعلم ما عليه رؤساؤهما من المعارف لم يتردد فى الانضمام الى الفريق الذى رآه اوفق بمصلحته واليق بمنفعته فصمم على الانضمام الى حزب الايمبراطور وبادر بذلك ليكون اول من انضم اليه ليحظى منه بالخيرات الجزيلة والنعم الجليلة فتوجه لهذا الغرض الى مدينة راتسبونة فى شهر ايار متعللا بأنه يريد حضور مشورة الدينية التى كانت منعقدة بها وبعد أن وقعت بينه وبين الايمبراطور ووزرائه مذاكرات طويلة انعقدت بينهما مشارطة سرية التزم فيها موريس بأنه يخدم الايمبراطور مع الانقياد والامتثال كآحاد رعاياه المطيعين والتزم له الايمبراطور بأن يجعله محل الامير منتخب سكس ويقلده مناصبه ويعطيه اراضيه وسائر ماله من المزايا والخصائص وقل أن يرى فى التاريخ مثل هذه المشارطة من حيث ما تضمنته من هتك حرمة الاصول والقوانين التى عليها مدار نظام العالم وانظر الى موريس مع حبه وشدة غيرته على الدين الجديد كيف انضم الى حزب الايمبراطور لاعانته فى حرب كان الغرض منه محق هذا الدين ومحو اثره بالكلية والتزم فيه بمحاربة حاكم هيسة الذى كان بمنزلة ابيه لانه كان ابا زوجته وتجريد منتخب سكس عن دوله ومناصبه مع أنه كان من اقرب الناس اليه وبالجملة فقد انضم هذا الامير الى حليف لا يعتمد عليه ولا يوثق به لاجل قتال امير له عليه المنة والفضل باسداء النعم الجزيلة التى كانت قريبة العهد من عقد تلك المشارطة (وهو منتخب سكس) ومع ذلك لم يكن الامير موريس من ارباب السياسة الذين لعدم حيائهم يحتقرون ما يجب احترامه متى اقتضت ذلك مصلحتهم ويهتكون حرمة القوانين والشعائر التى يزرى عدم مراعاتها بالمروءة ويدنس العرض واذا لم نلتفت الا للسياسة رأينا أن سلوكه كان مبنيا على الحزم والتبصر وذلك أنه دبر اموره مع ابداء ما يلايم المروءة والادب حتى لم يظهر عليه ادنى خلل يستوجب به اللوم والتوبيخ

(سنة ١٠٤٦)

فموجب سلوكه هذا المسلك كان يترآى من حاله أنه حسن النية خالص الطوية من جهة دين المعتزلة وأنه لا يلام عليه الامن حيث اغتراره بمواعيد الايمبراطور وتعويله عليها ولا ريب أنه كان فى ذلك كغيره ممن اراد التوغل فى مسالك السياسة فضل فى اودية الخسران حيث أنه اراد أن يغش غيره فغش نفسه وخابت مساعيه

مطلب
مخادعته ومحاولته فى اخفاء مقاصده

وكان اقصى مرامه اخفاء ماالتزم به للايمبراطور فاتقن الخداع والمكر فى هذا المعنى حتى ان المعتزلة وان ابى الانضمام اليهم ولازم الايمبراطور لم يتشكوا منه ولم يستخونوه بل فوض اليه منتخب سكس فى مبدأ الحرب حين ارتحاله الى حرب المعتزلة امر دوله وبلاده وجعلها تحت حمايته فاظهر له من المحبة والمودة مالامزيد عليه ووعده بأنه يدافع عنها حق المدافعة ولكن بمجرد سفر الامير منتخب سكس وبعده عن دوله اخذ موريس يدبر امره سرًا مع ملك الرومانيين ليتغلب على هذه الوديعة التى استودعها وجعلت تحت امانته فعما قليل ارسل اليه الايمبراطور نسخة من فرمان نفى الامير منتخب سكس والامير حاكم هيسة وكان الواجب عليه أن يحمى هذه الدول التى استأمنه عليها منتخب سكس حيث كان اقرب الورثة اليه الا أن الايمبراطور الزمه بأن يقبض على تلك الدول ولم يتعرض فى ذلك لمراعاة مصلحة موريس الخصوصية وانما ذكر أنه يجب عليه ضبط الدول المذكورة امتثالا لامره لانه رئيس الايمبراطورية واخبره بأنه ان أبى اجراء هذا الامر الايمبراطورى اشركه مع قريبه منتخب سكس فى الذنب والعقوبة

والظاهر أن هذه الحيلة كان قد املاها الامير موريس الى الايمبراطور لكى يرى أن قبضه على دول منتخب سكس انما هو بطريق الاكراه والامتثال لامر الايمبراطور لا من باب الافتيات والتعدى على قريبه ولكنه قصد أن يخفى مقاصده واطماعه بعمل حيلة اعظم من الاولى مكرا وتدبيرا فجمع عند رجوعه من مدينة راتسبونه مشورة مأموريته وقال لارباها حيث ان الحرب لابد من وقوعه بين الايمبراطور وعصبة سمالكالد فانا محتاج لان تبدوا آراءكم

فى هذا المعنى وتفيدونى ما ينبغى لى فعله فى تلك المادة وكان ارباب هذه المشورة يعرفون غرضه حق المعرفة قبل ذلك ومستعدين لاجابته فيما يريد فاشاروا عليه أن يتصدى للاصلاح بين الفريقين فان امتنع احدهما من قبول الصلح عقد مع الايمبراطور مشارطة على أنه لايضر بدين المعتزلة وبعد عقدها يطيع الايمبراطور ويعمل بمقتضى مرامه وفى اثناء ذلك وصله الامر الايمبراطورى مع خبر الحكم على كل من منتخب سكس وحاكم هيسة بالنفى فجمع المشورة ثانيا وعرض على اربابها الاوامر الصادرة له من الايمبراطور وتهديده له بالعقاب اذا هو لم يمتثل وافهمهم ايضا أن المعتزلة لم يرضوا بتوسطه فى الاصلاح بين الفريقين وأن الايمبراطور وعده بمواعيد مستحسنة فى شأن عدم الانسرار بالدين الجديد وذكر أن مصلحته تقتضى أنه يدافع عن اراضى دوقية سكس وأن استيطان الاجانب بها يضره كل الضرر ولما رأى أن رعاياه يجنحون الى مثل غرضه اراد أن يفعل فى هذه الصورة الصعبة بمقتضى مايشيرون عليه به فعوّل ارباب هذه المشورة على مواعيد الايمبراطور حيث كانت تتضمن أنه لايضيق على الناس فى شأن الدين الجديد وعرضوا على اميرهم موريس أن الاصوب أنه قبل شروعه فى الاستيلاء على بلاد سكس يكتب عن لسان المشورة الى منتخب سكس ما معناه ان احسن واسطة فى تسكين غضب الايمبراطور ومنع استيلائه على دوله بطريق التغلب اونظمها فى سلك الجفالك هو أن يرضى بكون موريس يستولى عليها بدون حرب ولا قتال فكتب بذلك كتابا من طرفه الى الامير حاكم هيسة والى زوجته فلما بلغ ذلك منتخب سكس امتزج بالغضب ونبذ الكتاب واحتقره لما اشتمل عليه من هذا الخبر المسيء فكتب حاكم هيسة الجواب الى موريس يلومه فيه ويوبخه على ما عزم عليه من الخيانة والافتيات على منتخب سكس مع اغداقه عليه بالخيرات والنعم وأخبره أن تعلله بتنفيذ اوامر الايمبراطور لم يصادف محلا فان الحكم الصادر منه بالنفى لاغ لايعمل به لعدم استكماله للشروط اللازمة ولكونه لم يصدر الاعن مجرد اختياره ومحض ارادته وختم الكتاب بكونه ترجاه أن لاتغره موجبات الطمع حتى ينسى ما توجبه عليه

(سنة ١٥٤٦)

شعائر المروة وشرف العرض وشروط الصداقة والمحبة فيغدر بدين المعتزلة حيث ثبت باقرار البابا أن القصد من الحرب انما هو محق هذا الدين بالكلية حتى لا يبقى له رسم ولا اسم ببلاد ألمانيا

مطلب
تغلب موريس على دول منتخب سكس

ولكن كان موريس قد تعاهد مع الايمبراطور من قبل معاهدة اكيدة بحيث لا يمكنه العدول عنها بزجر ولا توبيخ ولا اقامة براهين جلية فلم يلتفت الا الى تنجيز ما كان دبره بالحيلة والخداع وسلك مسلك الجسارة فى تنجيز مقصده كما سلك مسلك التحيل فى تدبيره فجمع جيشا يبلغ اثنى عشر الف مقاتل وهجم به على جزء من بلاد سكس وهجم الملك فرديننند على الجزء الآخر مع جيش جمعه من اهل بلاد چه والمجار فغزا موريس غزوتين عظيمتين هزم فيهما العساكر التى كان ابقاها منتخب سكس فى دوله لاجل حمايتها والمدافعة عنها وتغلب على جميع بلاد سكس ماعدا مدينة ويرتانبرغ ومدينة غوطه ومدينة ارزناخه لان محافظى هذه المدن كانوا بمكان من الشجاعة والمهارة فابوا التسليم وعما قليل وصل خبر ذلك الى كل من معسكر الايمبراطور ومعسكر المعتزلة وترتب على هذا الخبر فى المعسكر الاول غاية الفرح والسرور واما المعسكر الثانى فاغاظ ذلك اهله غيظا شديدا وهالهم امر هذا الخطب وصاروا يلعنون موريس بكل لسان فكنت لا تسمع اسمه الا مقرونا بالسخط والتشنيع والقدح والسب الفظيع فتارة يقولون انه جاحد منافق قد رفض الدين الجديد ونقض عهوده واخرى يقولون انه خائن غادر بالحرية الجرمانية وطورا تسمعهم يقولون هو قليل المروءة مخدوش العرض لهتكه حرمة الحقوق الواجبة الاحترام كحق القرابة وحق شكر النعم وبالجملة فلم يبق شئ من انواع المذام والهجو والقدح الاقيل فى حق هذا الامير فكنت تسمع من افواه المعتزلة ما تقصر عن الافصاح به العبارة من المذام والمسبات ولكن كان موريس معولا على مكره وخداعه طامعا أنه يبرأ بذلك عند الناس فنشر عريضة تشتمل على جميع الاسباب الضعيفة والعلل الواهية التى تعلل بها اولا بحضور ارباب مشورة مأموريته وذكرها فى المكتوب الذى ارسله الى حاكم

هيسة

سنة ١٥٤٦

مطلب
عرض المعتزلة الصلح على الايمبراطور

هيسة
ولما بلغ منتخب سكس أن موريس اغار على بلاده اراد أن يتوجه اليه بالعساكر اللازمة لانقاذ دوله واعانتها فاجتمع وكلاء عصبة سمالكالد فى مدينة هلم والحوا عليه كل الالحاح حتى حملوه على ايثار المصلحة العامة وترجيحها على مصلحة دوله فعدل عن هذا القصد الا أن رعاياه كانوا على مدى الاوقات يكتبون اليه بالحضور عندهم لينقذهم من ظلم موريس وقسوة المجار الذين كانوا يفعلون معهم ما كانوا يستحلونه فى حربهم مع الدولة العثمانية من السلب والنهب والقتل ونحو ذلك فازدادت حمية الامير منتخب سكس وألح كل الالحاح حتى لم يمكن وكلاء عصبة سمالكالد أن يمنعوه فى هذه المرة ويحملوه على العدول عن التوجه الى بلاده وان كانوا يرون أن انفصاله عن جيش المعتزلة تكون عاقبته سيئة مشؤومة عليهم ولكنهم قبل أن يحكموا بشئ فى شأن ارتحاله اومكثه توجهوا الى معسكر المعتزلة فى جيانجان على نهر برانتزه ليشاوروهم فى هذا الامر فتحير المعتزلة فيما يبدونه فى ذلك فكانوا من جهة يفزعون من تخلى بعض حلفاء حزبهم وفتور همة الباقين ويخافون أن اثقال الحرب وشدائده لا يكابدها الا اهل الحمية الدينية الذين يخاطرون باموالهم وانفسهم فى حماية الدين وكانوا من جهة اخرى قد فترت همتهم حيث لم يمكنهم تحصيل مدد من الملل الاجنبية وكان فصل الشتاء قد اشتد عليهم حتى ان معظم العساكر بل والضباط كان يضطر الى ترك الخدمة فبجميع هذه الاسباب رأى المعتزلة أنه لم يبق لهم وسيلة سوى الهجوم بغتة على الجيش الايمبراطورى ليحملوه على الحرب او المداولة مع الايمبراطور بقصد الصلح ولكن كان الفزع قد استولى على قلوبهم وداخلهم الرعب وفتور الهمة فرجحوا اسهل هذين الامرين واوقفهم ما بهم وفوضوا لوزير الامير منتخب براندبورغ أن يتداول مع الايمبراطور فى شأن الصلح نيابة عنهم

مطلب
امتناع شرلكان عن الصلح

فلما لاحظ الايمبراطور أن هذه العصبة المتكبرة التى كان يخشى منها أن تطرده من بلاد ألمانيا قد تنازلت حتى بدأت بطلب الصلح ظن انها قد ضاعت

شوكتها وفترت همتها وحميتها وزال مابين اربابها من الاتحاد والالتئام فأخذ يسلك معها مسلك الغالب القاهر حتى كأن المعتزلة قد صاروا فى قبضته يتصرف فيهم كيف شاء واخبر أنه لا يقبل الصلح معهم الا اذا سلم له الامير منتخب سكس امره ودوله يتصرف فيه وفيها كيف يشاء ولو فرض أن الايمبراطور طلب هذه الشروط فى وقت قنوط المعتزلة ويأسهم لما اطاقتها نفوسهم فمن ثم رفضوها اوردوها على الايمبراطور مع الكبر والعنفوان حيث لم يكونوا عاجزين مغلوبين وانما كانوا فى ورطة وارتباك مما وقع بين ارباب عصبتهم من الاختلاف والشقاق ولكنهم مع امتناعهم من اجابة الايمبراطور فيما طلب لم يبذلوا اهتمهم فى التشبث بوسيلة لم يكن لهم سواها اذ ذاك فى حفظ حريتهم واستقلالهم وهى اتحاد عصبتهم والتئامها وعدم تفرق اعضائها فان ذلك وحده كان السبب فى فزع العدو وخوفه منهم حتى ان حزب الايمبراطور كان قد عزم على الرجعة غير مرة فلو استقر المعتزلة على الاجتماع والاتحاد لارهبوا الايمبراطور وخشى بأسهم وصولتهم مع ما حصل لهم من الخسران فى بلاد سكس ولكنهم لما صمم الامير منتخب سكس على الذهاب الى دوله لينقذها ممن افتات عليها وألح عليهم فى ذلك كل الالحاح رضوا له بالذهاب اليها وانفصلوا عن بعضهم وتشتت جيشهم ولم يبق منه الا تسعة آلاف فى اقليم ويرتامبرغ لاجل حمايته وحماية المدائن التى بأقصى بلاد ألمانيا وتوجهت منه طائفة كبيرة مع منتخب سكس ورجع الباقى الى بلاده مع رؤسائه وتشتتوا فيها عن آخرهم

مطلب
شتات عساكر المعتزلة

و بمجرد شتات جيش المعتزلة صارت عصبتهم غير مهابة ولا مخوفة ودا خل كل واحد من اربابها الرعب والفزع حيث صار وحيدا وعرضة لفتك الايمبراطور وحقده بعد أن كان آمنا على نفسه اعتمادا على اتحاد العصبة والتئامها ولم يمهلهم الايمبراطور حتى يتداولوا مع بعضهم ويعقدوا عصبة اخرى بل بمجرد تفرق جيشهم توجه بعساكره مصمما على القتال واتنهاز تلك الفرصة التى كان ينتظرها منذ زمن طويل مع شدة القر والبرد اذ ذاك ففتحت له ابواب عدة قلاع صغيرة مع أنه كان بها محافظون من طرف المعتزلة وعما قليل دخل تحت طاعته

مطلب
دخول اغلب ارباب عصبة المعتزلة تحت طاعة الايمبراطور

مدينة نوردلنغ ومدينة روتامبرغ ومدينة هالة وكلها من المدائن الايمبراطورية الكبيرة ولكن لم يمكنه أن يمنع منتخب سكس عند رجوعه من ضرب مغارم جسيمة على مطران ماينسة وقسيس فولد وغيرهما من الامراء القسيسية غير أنه تسلى عن ذلك بتسليم مدينة هلم التى هى من اعظم مدائن سوابه وكانت ممتازة عن غيرها بشدة الميل الى عصبة المعتزلة وبمجرد تسليمها تأسى بها سائر ارباب عصبة المعتزلة حيث اراد كل منهم أن يبادر بالدخول تحت الطاعة قبل غيره ليفوز من رضاء الايمبراطور بالحظ الاوفر ويكون صلحه معه على شروط سهلة مستحسنة وكان الامير منتخب بلاطين قد وعد أن يكون بمعزل عن الفريقين ومع ذلك فقد بعث الى عصبة المعتزلة اربعة آلاف فرس وهذا المدد وان كان قليلا فى حد ذاته ولا يعد من الاعانات المعتبرة الا أن الايمبراطور استعظم ذلك وعده ذنبا كبيرا من هذا الامير فالزمه فى تطير ذلك بامور افضت به الى الهوان والمذلة واستولى الرعب والفزع على قلوب اهل مدينة اوكسبورغ حين رأوا انهزام المعتزلة من سائر الجهات فطردوا من مدينتهم الشجاع شرتيل ورضوا بالشروط التى الزمهم بها الايمبراطور

واما الامير دوق ويل تانبرغ فانه وان بادر بالدخول تحت الطاعة الا أنه لم يكتسب العفو بالسهولة بل اضطر الى طلب العفو من الايمبراطور وهو جاث على ركبتيه بين يديه ولم ينل العفو منه الا بشق الانفس

سنة ١٥٤٧

ولما رأت مدينة ماميخان وغيرها من المدائن الحرة التى فى اقليم سوابة أن اعظم حلفائها واقواهم شوكة قد تركها وتخلى عنها لم تجد وسيلة فى الامن على نفسها الا انقيادها للايمبراطور فبادرت بالدخول تحت طاعته وكذلك مدينة استراسبورغ ومدينة فرنكفورت اللتان على نهر مان فانهما وان كانتا بعيدتين عن هذه الاخطار بادرتا بالتسليم فبذلك تشتتت فى ظرف مدة قليلة عصبة المعتزلة وتفرق اعضاؤها بعد أن كانت لقوة شوكتها يخشى منها على الكرسى الايمبراطورى ولم يبق احد من اربابها مشهرا الحرب الا حاكم هيسة

سنة ١٥٤٧

ومنتخب سكس ولكن لم يعتن الايمبراطور بادخالهما تحت الطاعة حيث كان قد بدأ الامر بالانتقام منهما هذا وينبغي أن ننبه على أن من دخل تحت طاعة الايمبراطور لم ينل منه العفو الا على شروط صعبة لانه لما رأى أن يده فوق ايديهم سلك معهم مسلك الكبر والعنفوان فاضطر جميع الامراء وارسل المدائن الى الوقوف بين يديه موقف الذل والانكسار وتضرعوا اليه يسألونه العفو والصفح عنهم فضرب عليهم مغارم جسيمة لانه وقتئذ كان محتاجا الى الاموال فاعطوه مافرضه عليهم بدون توقف فدفع اليه الامير دوق ويرتانبرغ ثلثمائة الف ايكو ومدينة اوكسبورغ مائة وخمسين الفا ومدينة هلم مائة الف ومدينة فرنكفورت ثمانين الفا ومدينة ماسيخيان خمسين الفا وكل دولة اومدينة دفعت من الاموال على حسب ثروتها وقدر ذنبها فى الخروج عن الطاعة والزمت زيادة على ذلك بالتخلى عن عصبة المعتزلة وباعانة الايمبراطور اذا استعان بها فى تنفيذ الفرمان الذى صدر منه بنفى منتخب سكس وحاكم هيسة ولكن مع الزامه لهم بهذه الشروط لم يتعرض لشئ مما يخص الدين * وقد اشتد الرعب والفزع بقلوب ارباب عصبة سمالكالد حتى نسوا الغيرة التى كانت تقوى قلوبهم الى ذلك الوقت فى شأن الدين وصاروا لا يشتغلون الا بما فيه امنهم على انفسهم خاصة ولم يجسر احد منهم على أن يتعرض للكلام فى شأن الدين لعدم تعرض الايمبراطور لذلك الا أن اهل مدينة ماسيخيان خاطروا بانفسهم وطلبوا من الايمبراطور أن يعدهم بالحماية وعدم التعرض لهم فى التمسك بدين المعتزلة فقبل وزراء الايمبراطور تقريرهم فى هذا المعنى على وجه لزمهم به ترك هذا الغرض والسكوت عنه

مطلب
الزام الايمبراطور للمعتزلة بشروط صعبة

وكان منتخب كولونيا مع الحكم الصادر فى شأنه من البابا لم يزل باقيا على منصب المطرانية برضاء الايمبراطور واقراره فلما ثبت الظفر لشرلكان حمل الامير المذكور على الامتثال لحكم البابا وتنفيذ امره فلعفته وزهده نزل عن منصبه بالطوع والاختيار حقنا لدم رعيته ومنعا لجعلهم عرضة لاهوال الحرب والقتال وآثر العزلة والتمسك بدينه على ايقاظ الفتنة والتعكير على الناس

٢٥ من شهر كانون الثانى

(سنة ١٥٤٧)

بتصديه للحرب رغبة فى حفظ منصبه مع أن الحرب مجهول العاقبة لايدرى هل يتم له اوعليه

مطلب
رجوع الامير منتخب سكس الى بلاده واستيلائه عليها

واما الامير منتخب سكس فوصل الى ضواحى دوله ولم يتيسر للامير موريس أن يجمع العساكر اللازمة لمقاومته ومنعه فاستولى فى اقرب وقت على بلاده واخذ من بلاد الامير موريس اقليم ميسنية وجرده عن سائر اراضيه ماعدا مدينة درسده ومدينة ليبسيك لانهما كانتا منيعتين حصينتين فلما اضطر موريس الى ترك الحرب والالتجاء الى مقر حكومته صار يبعث الى الايمبراطور بريدا بعد آخر ليوقفه على ماحل به من الاخطار والح عليه فى المسير اليه لاعانته على عدوه وكان الايمبراطور وقتئذ مشتغلا باشتراط الشروط على عصبة سمالكالد فرأى أنه يكفى فى ذلك أن يرسل الى بلاد سكس الامير ألبيرت ملتزم براندبورغ أنسباخ مصحوبا بثلاثة آلاف من العسكر وكان هذا الملتزم يصلح لمثل هذا المشروع اتم الصلاحية ومع ذلك حضر اليه منتخب سكس وقتل معظم عساكره وشتت شمل الباقى بل واخذه اسيرا فازدادت بذلك حيرة موريس واختل نظامه وكان لابد من الظفر به والظهور عليه لو عرف منتخب سكس أن ينتهز هذه الفرصة النفيسة التى اسعفه بها الدهر ولكن كان من طبعه البطء والتردد سواء استقل بالحكم على الجيوش اوشاركه فى ذلك غيره فلم يحصل منه همة ولانشاط الا فى مفاجأة الملتزم ألبيرت وعوضا عن كونه يبادر بالسير الى موريس بعد انهزام هذا المدد الذى جاءه من طرف الايمبراطور رضى بما عرضه عليه موريس فى شأن الصلح لعدم حزمه وقلة تبصره فى العواقب فان موريس لخداعه لم يكن غرضه من طلب الصلح الا المشاغلة وتطويل امد الحرب حتى يسعفه الدهر بالاعانة

مطلب
عجز الايمبراطور عن الهجوم على منتخب سكس وحاكم هيسة

وكانت مقتضيات الاحوال اذ ذاك لاتسوغ للايمبراطور أن يتوجه لاعانة حليفه موريس وذلك أنه بعد شتات جيش عصبة المعتزلة سرح قونتة بورين مع العساكر الفلمنكية لتخف عليه المصاريف معتقدا أن العساكر

(سنة ١٥٤٧)

الاسبانيولية والالمانية بانضمامها الى عساكر البابا تكفى فى قمع المعتزلة واذلالهم ولكن كان البابا بولس قد ندم على معاهدته مع الايمبراطور وكان اهل البنادقة لحزمهم لم يرضوا الدخول فى تلك المعاهدة ونصحوا البابا آن لا يتعاهد مع الايمبراطور فلم يقبل نصيحتهم ولم يتيقظ من غفلته فى هذا المعنى الا بتقدم الجيش الايمبراطورى وتدمير عصبة المعتزلة فى اقرب وقت لانه لما رآى ذلك نسى جميع ما كان يؤمله فى ظفره على المعتزلة من الفوائد والمنافع ولم ير نصب عينيه سوى الخطأ الذى ارتكبه باعانة الايمبراطور على توسيع شوكته حتى ظلم اهل ألمانيا واضعف شوكتهم وفتح له طريقا فى التغلب على بلاد ايطاليا والتصرف المطلق فيها فلما ادرك عدم اصابته فى ذلك اجتهد فى اصلاح ما فات فصدرت اوامره الى حفيده الامير فرنيزة بدون أن يعلم الايمبراطور أن يعود بمن معه من العساكر سريعا ورجع فى الاذن الذى كان صدر منه للايمبراطور أنه يأخذ من اسبانيا بعض الاراضى القسيسية وكان ثم للبابا اسباب يتمسك بها فى اخذ عساكره * منها أن مشارطته مع الايمبراطور كان اجلها ستة اشهر وقد انقضى ومنها أن عصبة المعتزلة تشتت وتفرقت بالكلية مع أن الغرض من معاهدته مع الايمبراطور انما هو ابادتها وتدميرها ومنها أن الايمبراطور فى مفاوضاته ومداولاته مع من دخل تحت طاعته من المدائن والامراء لم يشاور البابا ولم يتفكر فى اعطائه شيأ من البلاد التى فتحها ولا من الاموال الجسيمة التى جمعها ومنها أنه لم يسع اصلا فى ازالة الاعتزال ولا فى نشر الدين القاثوليقى فى البلاد التى كان بها منبوذا ممنوعا مع أن هذين الامرين كانا هما الغرض للبابا حين عاهد الايمبراطور وأعانه بالرجال والاموال وهذه الاسباب وان كانت مقبولة مسلمة الا أن الايمبراطور لم تخف عليه مقاصد البابا بل علم أن السبب الحقيقى فى ذلك انما هو غيرته منه وكان الامر الصادر من البابا برجوع العساكر امرا مبرما بتيا فلم يمكن منعهم عن السفر فاخذ الايمبراطور يتشكى ويتظلم من خيانة البابا وغدره حيث تخلى عنه بدون موجب ولا مقتض وتركه حين اشرف على تتميم حرب انعقد بطلبه والحاحه

مطلب
اخذ البابا لجنوده

ويترتب

(سنة ١٥٤٧)

و يترتب عليه لو تم فخار الكنيسة وتأييد دينها وزيادة على ذلك كان يهدد البابا و يلومه و يشنع عليه فلم يكن لذلك كله تأثير عند البابا بل استمر عساكره على المسير الى بلاد ايطاليا وقد نشر البابا ايضا عريضة يبرئ فيها نفسه و يرد على الايمبراطور كلامه وقدحه وذكر فيها مايدل اتم الدلالة على رغبته عن الايمبراطور وخوفه من ازدياد شوكته * فلما رأى شرلكان أن جيشه قد قل عدده بارساله منه جملة الى محافظة المدائن التى سلمت اليه وانفصال عساكر البابا عنه رأى أنه يلزمه أن يجمع عساكر جديدة قبل أن يتوجه بنفسه الى بلاد سكس

ولاشك أن الايمبراطور كان يمكنه بشهرته وعظم وقعه فى القلوب بما حازه من النصرة أن يجمع من البلاد التى تغلب عليها من يلزم له من العساكر فى قمع منتخب سكس وقهره ولكن منعه عن ذلك الفتنة التى وقعت فى جنويرة على حين غفلة وكان قد حصل قبلها تقلبات كبيرة مجهولة الحال فاضطر الايمبراطور الى البحث عن معرفة اصلها والوقوف على الغرض منها قبل أن يشرع فى اضرام نيران حرب جديد ببلاد ألمانيا وذلك أن صورة الحكومة التى ترتبت فى جمهورية جنويرة حين رد اليها الامير اندره دوريه حريتها كانت مستحسنة مقبولة بحيث تصلح لازالة ماكان يهدد الجمهورية من الفتن والتعكيرات وكان قد رضى بها اهل جنويرة كافة وحلت منهم محل القبول والاستحسان فلما مضى عليها عشرون سنة قام بعض اهل تلك الجمهورية الذين من دأبهم التعكير واضرام نيران الفتن وأبى تلك الصورة وامتنع من قبولها وكان المنوط بادارة المصالح اذذاك عائلات مخصوصة من عائلات الاشراف والاعيان فنشأت الغيرة من ذلك فى قلوب سائر الاشراف وودوا أن ترتب الحكومة الاهلية ثانيا لتعودهم عليها وكان الامير دوريه لعفته وخصاله الحميدة وعدم اغراضه وكثرة معارفه وفضله محترما مهابا بينهم ومع ذلك غار منه بعض الناس حين رأوا أن كلمته هى العليا فى جميع مشاور الجمهورية وكان يجب على ابناء وطنه بمقتضى سنه وعفته وشدة ميله الى الحرية أن يعتقدوا فيه انه

مطلب
الفتنة الحاصلة فى جنويرة لقصد تغيير حكومتها

مطلب
قصد العاصين وغرضهم

(سنة ١٧ ٥٤١٧)

لا يتعدى ابدا حدود شوكته ولا يرتكب ما يدنس آخر عمره بهدم اركان الحكومة اللطيفة التى قضى حياته فى اقامة دعائمها وتشييدها وقصر فخاره على تقويتها وتأييدها ولكن خشى الجنويزية أن الحكومة مادامت جمهورية وربما تغلب عليها انسان غير اندره دورية اكثر منه طمعا واقل منه عفة وفضيلة فيضر بالملة كل الضرر ولقد حصل ذلك من رجل تعلقت آماله بنيل هذا الامر وبداله ما اطمعه فيه وهو جياتينو دورية وذلك أن عمه الامير اندره دورية كان قد وعده بأن يوصى له عند موته بسائر امواله فطمع أن يخلفه فى الحكم على جنويزة ايضا وكان من الجبابرة العتاة والسفهاء البغاة بحيث لا يصلح أن يكون وارثا لحكومة ملوكية فضلا عن حكومة جمهورية كحكومة جنويزة وكان اكثر الجنويزية حزما وفطنة واعظمهم تبصرا بالعواقب فكانوا يخشون بأسه ويبغضونه ويعدونه عدوا للحرية التى ابتهالهم عمه وله بها عليهم الفضل والمنة ولكن كان أندره دورية قد اعمته عن عيوبه المحبة الغير الاختيارية التى تنشأ عادة فى قلوب الشيوخ لاصغر ابناء عائلاتهم فكان يرأف به كثيرا ويرفق به اتم الرفق حتى كان يظهر منه أن همته فى بقاء سعادة الجمهورية دون همته فى ترقية قريبه جياتينو المذكور

مطلب
كون الامير فييسك قونتة لوانة هو رئيس العصبة

ولكن مع اساءة الناس الظن فى مقاصد دورية واغراضه وقدحهم فى صورة الحكومة التى كانوا عليها يومئذ نقول ان هذه الاسباب لا يترتب عليها سوى التشكى والتظلم من طرف الاهالى لو لم يكن هنالك الامير حنالو يزدو فييسك قونتة لوانة فان هذا الامير كان يترقب ازدياد غم العصاة وينتظر شدة قلقهم واضطرابهم لينتهز من ذلك فرصة فى ارتقاء نفسه فعزم على مشروع يعد من اعظم المشروعات التاريخية وذلك أن هذا الامير الشاب كان اغنى رعايا الجمهورية واكثرهم امتيازا وكان بمكان من الصفات الجميلة التى تستميل القلوب وتستوجب الاحترام والمحبة فكان رونق الظرف والبهاء يلوح على وجهه وكان لافراطه فى العطاء يبلغ كرمه حد الاسراف فكان لا يمنع عن اصحابه شيأ

بل كان يعرف مقاصدهم فيمنحهم بالعطية قبل السؤال وكان يعطى الاجانب فوق الامل وكان له تحيل غريب فى استمالة القلوب اليه وكان بشوشا بالطبع يسلك فى معاملة الناس مسلك الرفق ولين الجانب من غير تكلف فى ذلك ولكن كان وراء هذه الصفات الجميلة التى هى زينة النوع الانسانى وحليته صفات اخرى يصلح صاحبها لرياسة الاحزاب الخطرة وادارتها وتدبيرامرها فكان لشدة طمعه لا يهنأ له عيش وكان بمكان من العزم والشجاعة بحيث لا يكترث بالاهوال ولا يبالى باقتحام الاخطار وكان بالطبع يستنكف الانقياد والتبعية لغيره فمثل هذه الانفة لا تطيق أن تكون تحت حكم احد فحسد هذا القوتة الامير دورية على ماله من الشوكة ونفوذ الكلمة وكان كلما تفكر أن هذه الشوكة ستنتقل من بعد دورية الى قريبه جيانتينو ازداد غما وحزنا وتواردت الافكار على هذا الرجل الجسور الطماع حتى تمكنت منه واستولت على قلبه فعزم على هدم هذه الحكومة التى كان لكبره وعتوه لا يطيقها ولا يستطيع الانقياد اليها

مطلب
دسائس العصبة وتجهيزاتها

ولاجل أن ينجح فى مشروعه ظن أنه يجب عليه من مبدأ الامر أن يعقد المعاهدة مع الملك فرنسيس الاول فعرض هذا الغرض على رسول هذا الملك الذى كان اذ ذاك بمدينة رومة وكان قصده بذلك أنه يطرد الامير دورية والخفر الامبراطورى باعانة الملك فرنسيس ثم يدخل جمهورية جنوزة تحت حماية فرانسا مؤملا أن الملك فرنسيس يكافئه على هذه الخدمة بتقليده اول منصب من مناصب الجمهورية واناطته بادارة مصالحها لكنه لما عرض هذا الغرض على بعض اصدقائه كان من جملتهم رجل قد جارت عليه صروف الدهر ومع ذلك كان جديرا بتنجيز المشروعات العظيمة والمقاصد الخطرة الجسيمة وهو ويرينا فافهمه أن تعرضه لمثل هذا الخطر العظيم الذى لا يعود بالمنفعة عليه بل على غيره من باب الجنون وعدم سداد الراى وحرضه على السعى فيما يكون به تولى امر الحكومة بنفسه وافهمه أن ذلك سهل مستقرب الحصول لكونه عريق الحسب والنسب محبوبا عند ابناء وطنه ولكثرة احبابه

(سنة ١٥٤٧)

واصدقائه فاعجبه كلام ويرينا ووقع منه بموقع عظيم فعدل عما كان مصمما عليه من الاستعانة بملك فرانسا واتبع ما اشار به عليه ويرينا ولم يتجاسر احد من الحاضرين على معارضة ويرينا فيما ابداه من الرأى حيث رأوا أن فيسك قد اعجبه ذلك واستحسنه مع أنهم كانوا جازمين بأن هذا المشروع على غاية من الخطر وانحط الرأى فيما بينهم على قتل الامير اندره دورية والامير جيانتينو واعيان حزبهما وعلى تولية الامير فيسك على الجمهورية ولكن كان يلزم لاجراء هذا المقصد مدة من الزمن وفى اثناء التجهيز لهذا الغرض كان فيسك يحترس كل الاحتراس فى اخفاء مقاصده وكتمان اغراضه حتى لا يطلع عليه احد فسلك فى ذلك مسلكا عجيبا حيث اظهر الانهماك على اللذات والشهوات فكان فى الظاهر يصرف زمنه فى الحظوظ واللهو واللعب ولا يتراأى عليه أن فكره مشغول بغير ذلك وهو فى الواقع يدبر اموره مع الحزم والاعتناء وبذل الهمة سالكا فى ذلك مسلكا وسطا بين البطء والعجلة التى تنشأ عن الجزع وعدم الصبر واستمرت المفاوضة بينه وبين رسول فرانسا الذى كان بمدينة رومة فى شأن طلب حماية الملك فرنسيس عند الحاجة اليها فيما بعد ولم يوقفه على حقيقة مقاصده بل تعصب سرا مع الامير فرنيزدوق برمة وكان هذا الدوق حاقدا على الايمبراطور لكونه ابى تقليده منصب الدوقية على برمة فكان مستعدا الاساءته فى نظير ذلك بالانتقام من عائلة دورية حيث كانت تحبه وتجنح اليه وكان ايضا يسعى دائما فيما يكون به اضعاف شوكة الايمبراطور ببلاد ايطاليا وكان فيسك يعلم أن جنويزة كغيرها من الدول البحرية يلزم فيها الاستيلاء على البحر حتى يتم هذا المشروع المهم فطلب من البابا اربعة اغربة وكان البابا يعرف قصده بطريق الظن والتخمين ولكن لم يلمه عليه وانما تعلل بكونه يريد تجهيز غراب من هذه الاغربة لقتال الدولة العثمانية فجمع فيسك جملة عظيمة من اتباعه ومن الطوائف الفارة التى كانت غير مستخدمة بسبب المهادنة المنعقدة بين الايمبراطور والسلطان سليمان فكان لا يتيسر لها القوت والمؤونة

(سنة ١٥٤٧)

ومع اشتغال الامير فيسك بهذه الاحتراسات واجتهاده فيها كان لايترا أى عليه أن آماله متعلقة بغير اللهو واللعب فانه كان ملازما المنادمة كل من الامير دورية والامير چياتينو فكان يداهن دورية الذى كان حسن الطوية لايسىء الظن باحد ويخادع چياتينو مع ماكان عليه من المكر والارتياب من الناس لما كان مصمما عليه فى نفسه من الدسائس والفتن ولم يزل فيسك على هذه الحالة حتى دبر اموره على اتم وجه ولم يبق عليه الا الاهتمام بتجيزها وطالما تفاوض مع اصحابه فيما يكون به نجاح عصبته ثم استقر رأيهم اولا على قتل الامير اندره دورية والامير چياتينو مع اكابر حزبهم وقت الصلاة فى الكنيسة ولكن لما كان اندره دورية لايحضر الصلاة الا نادرا لهرمه وطعنه فى السن عدلوا عن هذا الرأى واتفقوا على أن فيسك يصنع وليمة فى بيته ويدعو فيها چياتينو وعمه اندره دورية وسائر احبابهما واصحابهما وبذلك يسهل الفتك بهم ولكن اتفق أن چياتينو خرج من المدينة لقضاء بعض اوطاره فى اليوم الذى اعد لتجيز هذا الغرض فلزمهم أن يعدلوا عن هذه الطريقة الى طريقة اخرى فصمموا على أن يسلكوا فى ذلك مسلك القوة جهرة حيث ان طرق الحيلة لم تجد نفعا واجمعوا على تنجيز هذا الامر فى الليلة الثانية او الثالثة من شهر كانون الثانى وكان الوقت يساعدهم حيث كانت العادة عندهم أن الدوج اى الحاكم يتغير كل سنة فى اوائل هذا الشهر وأنه لايمكن انتخاب حاكم جديد يقوم مقام القديم قبل مضى اربعة ايام من الشهر المذكور ففى هذه المدة تكون جمهورية جنويزة خالية عن الحاكم فبذلك يسهل على الامير فيسك التغلب على حكومتها

مطلب
اجتماعهم لاجل تنجيز مقصدهم

وفى صباح اليوم الموعود زار فيسك جميع احبابه واصحابه وكان يرى عليه البشاشة والاطمئنان كعادته ثم ذهب فى المساء الى اندره دورية وچياتينو وخاطبهما مع التعظيم والتبجيل على عادته معهما وتأمل حركاتهما واطوارهما مع مايقتضيه الحال من مزيد التدقيق ففرح حين رآهما على غرة

وجهل بمقصوده وفي امن كلي من جهته وليس لهما علم بامر العصبة المتحزبة عليهما منذ زمن طويل

ثم خرج من سرايتهما مسرعا الى سرايته وكانت منعزلة على حدتها في حوش كبير تكتنفه حيطان عالية وكان قد فتح ابوابها من الفجر واذن بالدخول لكل من اراد سواء كان حقيرا او خطيرا ولكنه وضع على الابواب خفرا لمنع من اراد الخروج واما وربنا وغيره من ارباب العصبة الذين كانوا يعلمون حقيقة الحال فانهم بعد أن دخلوا السراية ومعهم حزب فيسك وعساكره البحرية خرجوا وانتشروا في المدينة مع السكون وعدم اللغط واخبروا اعيان الاهالي الذين كانوا يبغضون حكم الامير اندره دورية ويميلون الى ايقاظ الفتنة والانضمام الى من يضرم نارها بأن الامير فيسك قد صنع وليمة وارسلهم ليدعوهم الى حضورها وكان اغلب من حضر في السراية لا يعلمون القصد من جمعهم فتعجبوا حين رأوا الحوش مشحونا برجال متسلحة وابصروا محال السراية مشحونة بمهمات الحرب وادواته مع انهم انما دعوا الى الوليمة فصار ينظر بعضهم الى بعض بعين التحير والفزع ولا يدرون حقيقة الحال

مطلب
خطاب الامير فيسك الى احزابه

وبينما كانوا في هذه الحيرة والقلق مما شاهدوه في السراية اذ ظهر الامير فيسك بينهم مع البشاشة وطلاقة الوجه وثبات القلب واخذ يخاطب الاعيان منهم بقوله اعلموا أني ما دعوتكم لاجل الاجتماع على وليمة بل لتقاسموني فخار حادثة عظيمة ثمرتها اثبات الحرية لبلاد جنويزة وتخليد ذكر من تصدى اليها وبالغ لهم في شدة ظلم الامير اندره دورية واجحافه في الحكم وافادهم أن هذا الظلم لا ينفك عنهم بل يزداد وتتسع دائرته حيث ان الحكومة تنتقل بعد هذا الامير الى رجل شديد الطمع وهو جيانتينو لاسيما والامبراطور شرلكان بعضده ويؤيد عائلته لانها مشتغلة دائما بخدمته ومراعاة مصلحته معرضة عن مصالح وطنها ثم قال لهم وانتم ايها الاماجد مقتدرون على ازالة هذه الحكومة الظالمة ومحو اثرها فبادروا بنا الى الفتك بالظلمة وتدميرهم وقد جهزت

(سنة ١٥٤٧)

لكم ما يلزم لاهلاكهم واتخذت حلفاء اشدّ بهم عضدى عند الضرورة واحترست من كل شئ غاية الاحتراس والظلمة نائمون على فراشهم آمنون على انفسهم لانهم لاحتقارهم لابناء وطنهم لا يعتنون بهم ولا يحترسون منهم كما يحترس عادة من ارتكب ذنبا اوسلك مسالك البغى والطغيان بحيث يكون على غاية من التيقظ والحذر خوفا من أن ينتقم منه خصمه فى نظير ما فعل فهلموا بنا ايها الاخوان وابذلوا الجهد معى لننقذ وطننا من ايدى هؤلاء الظلمة ولا تخشوا بأسا ولا تخافوا خطرا انتهى فاثر هذا الكلام المصحوب بالحيثة العجيبة التى تقوم عادة بالنفس عند تفكرها فى مثل هذه المقاصد الجليلة فى قلوب السامعين كل التأثير وكان اتباع فيسك مستعدين كل الاستعداد لان يتوجهوا حيث يوجههم فاقروه على مقصده واجابوه الى تنجيز غرضه وكان فى الاهالى كثير ممن جار عليهم الدهر واساءتهم صروف الزمان ففرحوا بذلك مؤملين أن هذه الفتنة تعينهم على استرجاع سعتهم وثروتهم واما غيرهم ممن كان اعلى منهم درجة لفضائلهم اوعلو مقامهم فلم يمكنهم اظهار ما قام بانفسهم حين عرفوا حقيقة مادعوا اليه لان كلا منهم كان يخشى أن يكون من بجانبه عارفا بالقضية راضيا بها من قبل فكان يظن أنه بين اقوام قد اجمعوا على غرض واحد فان تفوّه بشئ يخالف ما اجمعوا عليه هلك لوقته فبناء على ذلك اقروا جميعا ما عزم عليه الامير فيسك واستحسنوه واظهروا استحسانه

مطلب
مخاطبة فيسك زوجته

و بمجرّد أن رتب الامير فيسك اموره على هذا الوجه وقوّى قلوب احزابه بادر قبل أن يأمرهم بشئ الى المحل الذى به زوجته وكانت من عائلة سيبوا الشهيرة وكان يحبها كثيرا لحسنها وجمالها وعفتها وكمالها ولما سمعت غاغاء العساكر المتسلحين ونظرتهم وقد ملأوا حوش السراية علمت أن هنالك فتنة تخاف على زوجها فلما وصل اليها رآها قد غرقت فى بحار الفكر والفزع فبادر باعلامها بحقيقة الحال واخبرها بالقصد من جمع الرجال فازدادت حيرتها واشتدّ رعبها وادركت عواقب هذا المشروع الخطر فاخذت تبكى وتتضرّع اليه لعله يعدل

(سنة ١٥٤٧)

عن ذلك فلم يرث لحالها بل لما تعذر عليه تسكين روعها وازالة الرعب من قلبها قطع كلامه معها بغتة وتركها وانصرف مصمما على تنجيز ما فى ضميره قائلا لها استودعتك الله فانك بعد ذلك اما أن لا تنظرينى ابدا او تصير جمهورية جنوية غدا تحت حكمك انتهى

مطلب هجوم المتحزبين على المدينة

وبمجرد وصوله الى احزابه امر كلا منهم بما اراد فامر بعضهم بالاستيلاء على ابواب المدينة بطريق القهر والغلبة وامر آخرين بالتغلب على الحارات الكبيرة والقلاع وابقى لنفسه الهجوم على المينا التى كانت بها سفن الامير اندره دورية وانما ابقاها لنفسه لانها كانت اصعب واشد خطرا من غيرها وكان ذلك فى نصف الليل واهل المدينة نائمون على غاية من الامن والطمانينة فبينما هم كذلك اذا اخذت عساكر المتحزبين فى تنجيز ما امروا به فتغلبوا على بعض ابواب المدينة بدون مشقة وعلى البعض الآخر بعد مقاتلة شديدة مع الحرس واما ويرينا المتقدم فاخذ غرابا من السفن التى كانت معدة لقتال الدولة العثمانية وحاصر مدخل درسين وهى مينا صغيرة كانت مشتملة على دونما الامير اندره دورية فعند ذلك ايس الاهالى من الخلاص وعزم الامير فيسك على الهجوم على سفن الجمهورية من الشاطئ الذى كانت راسية عليه وكانت خالية عن السلاح وعما يلزم من الشراعات والحبال ونحو ذلك ولم يكن بها سوى رجال مذنبين مكبلين بالسلاسل والاغلال لا قدرة لهم على المقاومة وعما قليل انتشر الفزع والرعب فى المدينة وعمها الاضطراب والتعكير فكنت تسمع فى سائر الحارات اصوات العساكر تكرر هذه العبارة فيسك والحرية وكان كلما سمعها احد من الاهالى تأخذه الحمية ويبادر الى السلاح وينضم الى حزب العاصين وامتلأت قلوب الاشراف واحزاب الجمهورية رعبا وفزعا وغلقوا مساكنهم وصاروا لا يفكرون الا فى حفظ انفسهم من السلب والنهب وبعد ذلك وصل الهرج والاضطراب الى قصر الامير اندره دورية فوثب جيانتينو من فراشه فورا وظن أن هذا القيام ليس الا من بعض العساكر البحرية فخرج فى جماعة من اتباعه قاصدا المينا فلما وصل الى الباب المسمى سنت توماس

وجد

وجد العصاة قد تغلبوا عليه فلما ابصروه انقضوا عليه مع الشدة والحمية وذبحوه
فى اقرب وقت ولاشك أن الامير اندره دورية كان يلقى مثل ذلك لوهجم
جيروم فيسك على قصره عملا برأى اخيه قوتية لوانة ولكنه منع عساكره
عن الهجوم على قصر هذا الامير خشية أن ينهبوه فيحرم مما كان فيه من
الاموال وغيرها فلما بلغ اندره دورية موت قريبه جيانتينو وأنه هو
ايضا عرضة للهلاك ركب جواده حالا وفر من اعدائه ولكن تجاسر بعض ارباب
مشورة السنت واجتمعوا فى ديوان الجمهورية واخذوا يجمعون العساكر
المتشتتة و يهجمون على حزب العاصين فهزمهم العصاة وطردوهم ولم تمكنهم
المقاومة فصمموا على المفاوضة معهم فى شأن الصلح فبعثوا رسلا من طرفهم
الى الامير فيسك ليسألوه عن مقاصده والاولى أن يقال انهم ارسلوا اليه
ليفيدوه انهم راضون بجميع الشروط التى يشترطها عليهم
ولكن كان الامير فيسك قد فارق الدنيا وما عليها وذلك انه بعد أن تغلب
على الدونغا واخذ يرجع الى حزبه المنصور سمع غاغاء فى سفينة الاميرال
(قبطان باشا) فخشى أن تكون هذه الغاغاء من العساكر المذنبين وظن أنهم
فكوا سلاسلهم وهجموا على عساكره فبادر بالرجوع الى السفينة المذكورة
لينظر سبب ذلك فانقلب به اللوح الذى كان يمشى عليه فسقط فى الماء وكانت
اسلحته ثقيلة فهوى الى قاع البحر وهلك وقت أن قارب التمتع بثمار ظفره ونصره
وكان وير ينا اول من شاهد هذه الحادثة المشؤومة فادرك عواقبها ولم يخبر
بها الا قليلا من المتعصبين ورأوا أنه حيث كان ذلك فى اثناء الليل وقت اعتكار
الظلام مع شدة الهرج والاضطراب فالاولى كتمان هذا الخبر حتى يستولوا
على المدينة بموجب مشارطة تنعقد بينهم و بين ارباب مشورة السنت ولكن
فسدت عليهم آمالهم لعدم حزم الامير جيروم دو فيسك وذلك أن رسل
مشورة السنت الذين فوض اليهم امر الصلح لما سألوه عن قوتية لوانة
وهو الامير فيسك اجابهم بقوله ها انا الآن الامير الذى تسألون عنه ومعى
تنعقد المشارطة التى انتم مبعوثون بصددها فعند ذلك ادرك الاعداء والاحباب

(سنة ١٠٤٧)

ماحصل للامير فيسك وتقوّت قلوب فريق منهم وفترت همة الفريق الآخر فاما رسل السنت فقويت قلوبهم بهذه الحادثة التى بدونها كان لايتم لهم مرام وسلكوا مسلكا آخر غير مسلك التواضع والخضوع الذى كانوا يريدون سلوكه قبل ذلك وطلبوا شروطا على حسب ماتقتضيه الاحوال التى كانت تساعدهم وقتئذ ولكن بينما كانوا يحاولون فى تطويل المذاكرات والمداولات كان ارباب السنت مشغولين بجمع احزابهم ليرتبوا منهم طائفة تدافع عن ديوان مشورة السنت ومن جهة اخرى كان المتعصبون فى فزع ويأس من موت رئيسهم ولم يعتمدوا على جيروم حيث لم يكن عنده الا الخفة وطيش الشبوبية والعجب ففترت هممهم ووقعت الاسلحة من ايديهم فكان افشاء خبر موت رئيسهم هو السبب الاصلى فى اختلال العصبة وانحلال نظامها وذلك أنه لما مات رئيسها وكان اغلب اربابها يقاتلون من غير أن يعلموا سرّ مقاصده ولا ماهو قائم بضميره ولم يكن احد منهم جامعا للصولة والمعارف اللازمة للحلول محله وتتميم مشروعه بطل عملها وتبدد شملها ففر كثير منهم الى بيوتهم مؤملين أن ظلام الليل يسترهم وانهم لايعاقبون على عصيانهم وركن آخرون الى الهروب والفرار ليبحثوا عن مأمن يأوون اليه فلم يقبل النهار الا وهم جميعا هاربون لم يظهر منهم احد فى المدينة مع أنهم كانوا قد اشرفوا على التغلب عليها

مطلب نشر الامن والاطمئنان فى مدينة جنويزة

ولما اصبح الصباح صارت مدينة جنويزة على غاية من الامن والاطمئنان فلم ير بها احد من الاعداء وانما بقى بها بعض آثار مما حصل ليلا لان الفتنة كان قد نشأ عنها من التعكير اكثر مما نشأ عنها من الاضرار حيث سلك العصاة فى قيامهم مسلك المفاجأة اكثر من طريق القوة والقتال وعند المساء دخل الامير اندره دورية المدينة واهلها يزفونه باصوات المسرة والتهليل ويقابلونه افواجا افواجا وكان لم يزل متعكرا من اخطار الليلة السابقة وكانت جثة قريبه جيانتينو نصب عينيه ملوثة بالدماء ومع ذلك كان على الهمة لين الجانب رؤفا بابناء وطنه حتى ان الامر الذى صدر من مشورة السنت فى حق ارباب الفتنة لم يتجاوز حد التشديد الذى يستدعيه حفظ الحكومة

ولم

(سنة ١٥٤٧)

مطلب
فزع الامبراطور من
هذه الحادثة

ولم يرفيه شئ يشعر بالتحزب اوقصد الانتقام
ولما حصل الاحتراس اللازم لمنع اشتعال نيران الفتنة بعد اطفائها بدأ ارباب مشورة السنت يبعث رسول من طرفهم الى الامبراطور شرلكان يخبره تفصيلا بحقيقة الواقعة ويطلب منه امدادا يستعينون به في الهجوم على مونتوبيو وهي قلعة كبيرة كانت في اراضي عائلة فيسك وكان جيروم قد تحصن بها فلما وصل الخبر الى الامبراطور تعجب غاية العجب وداخله الفزع والحيرة ولم يصدق بأن قوتة لوانة ولو بلغ في الطمع مابلغ وعظمت جسارته مهما عظمت يتجاسر على مثل هذا المشروع الخطر بدون حث ولاتحريض من دولة اجنبية فلما علم أن الامير فرنيز دوق برمة كان له علم بتلك الفتنة ادرك حالا أن البابا لايجهل هذا المشروع الذي كان ابنه يحرضه على انجازه وتتميمه وبنى على هذا الظن ظنا آخر بعيدا وان كان لايبعد عن العقل بالنظر الى سلوك البابا پولس وهو أن البابا اتفق مع ملك فرانسا على أن ينتهزا فرصة عواقب هذه الحادثة فصار من وقتئذ يخشى أن تعظم الفتنة وتضطرم نيرانها (اذ مستعظم النار من مستصغر الشرر) فيحل ببلاد ايطاليا ثانيا الخراب والدمار وحيث ان حربه في بلاد ألمانيا كان قد الزمه باحضار عساكره من دوله التي خلف جبال ألبه بحيث صار لايمكنه انقاذ هذه الدول عند اغارة العدو عليها رأى انه يلزمه أن يكون مستعدا لذلك حتى يمكنه بمجرد عروض الخطر أن ينقل اليها معظم جنوده وبناء على ذلك رأى انه ليس من الحزم أن يتوجه بنفسه الى قتال الامير منتخب سكس قبل أن يتحقق هل تعصبت عليه في بلاد ايطاليا عصبة تمنعه عن استمرار الحرب في بلاد سكس مع الجنود اللازمة والعساكر الكافية اولا

مطلب
ابقاء حربه في بلاد
ألمانيا الى وقت آخر

تم طبع الجزء الثاني من اتحاف ملوك الزمان بتاريخ الامبراطور شرلكان
وذلك بدار الطباعة الفاخره المنشاه بمصر القاهره لعشر مضين
من ذي القعدة الحرام سنة ١٢٦٢ من هجرة خاتم
الرسل الكرام صلى الله عليه وسلم